

٢٠٠٢

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

محمد عناني

السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر - واحات القرية - واحات مصر



بمبادرة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

منتدی سور الازربکیه

WWW.BOOKS4ALL.NET

السيرة الذاتية الكاملة

واحاحات العمر
واحاحات الغربية
واحاحات مصرية

محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
سلسلة الأعمال الكاملة

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيرة الذاتية الكاملة

واحاحات العمر - واحاحات الغربة - واحاحات مصرية

محمد عناني

الغلاف

والإشراف الفني :

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

السيرة الذاتية الكاملة

واحاحات العمر

واحاحات الغربية

واحاحات مصرية

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة / سوزان مبارك ..

د. سمير سرحان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

هذا هو الجزء الثالث من واحات العمر ، وهو يتناول السنوات من ١٩٧٥ وهو عام عودتى من البعثة حتى عام ٢٠٠٠ ، عام التفرغ فى الجامعة والتحرر من 'المنصب' الرسمى ، أى إنه يبدأ من حيث انتهى الجزء الثانى واحات الغربة بل فى اللحظة نفسها - لحظة العودة بعد السنوات العشر خارج مصر ، وهذا الجزء ، مثل الجزئين الأول والثانى ، لا يزيد عن كونه مرحلة من مراحل السيرة الذاتية الأدبية ، أى إنه ليس تسجيلا لجميع الأحداث ولا لمعظمها ، لا بل ولا لأهمها ، بل هو وصف للواحاحات التى ما زالت خضراء دانية القطوف فى أعماق النفس ، وهى واحات مصرية صميمة ، على كثرة ما انتقلت من مصر واغتريت فى هذه السنوات ، وتقسيم الفصول ليس تقسيماً زمنياً ، فالفصل الأول يتناول أحداث أقل من عامين ، والفصل الثالث يضغط أحداث عشرة (وكذلك تقسيم كل فصل إلى أجزاء ، فالأحداث وحدها هى التى أملت التقسيم ، وهى أحداث أدبية يتصل فيها العام بالخاص ، وكما كان شأنى فى الجزئين الأول والثانى ، حرصت على الصدق فى كل ما أرويه ، والتزمت برصد كل ما اختزنه الذاكرة ، مستنداً إلى المفكرة التى كنت ولا أزال أسجل فيها الأحداث البارزة ، والخطابات المتبادلة مع الأصدقاء ، وقصاصات الصحف التى كنت ولا أزال أحتفظ بها ، وكان لابد من إخفاء أسماء بعض الشخصيات التى تعيش بيننا ، إذا رأيت أن ما أرويه قد يسبب لها حرجاً ، ولكننى لم أحجم عن ذكر الأسماء الحقيقية فى معظم الحالات .

والواحاحات المورقة الوارفة الظلال ليست جميعها واحاحات فرح وسرور ، إذ إن بعضها يحفل بالأحزان والآلام ، ولكنها تظل واحاحات ابتعاد من هجير الحياة لأنها أصبحت تنتمى إلى الماضى . وقديما قال الشاعر إن الماضى مقدس لأنه لا يعود ولا يتغير أبداً ، ومن ثم فهو يؤكد وجود الزمن ، ووجود الزمن أو الإحساس به هو وسيلة كل قلب حى للإحساس بالوجود المطلق ، أى

الوجود الذى يتجاوز البدايات والنهايات ، ويربط كل 'حادث' فى النفس بوجود النفس ذاتها ،
والنفس بعدُ هى الروح التى لا تتجلى إلا فى الزمن فتؤكد للإنسان أن لا بداية ولا نهاية ، بل
انتماء إلى روح السرمد .

والسيرة الأدبية إذن ، ومن هذا المفهوم ، تسجيل للحادث الناجم عن السرمدى ، وهو
الزمن ، وتسجيل الحوادث هو ربط لها بالزمن ، والطريق الموصّل إلى إدراكه ، أو الوعى به ،
ومن ثم فالحوادث ليست 'موضوعى' ، بل إن الزمن هو 'موضوعى' ، والربط بين هذا وذاك
هو موضوع كل أدب ، فما حركة الأدب فى النهاية إلا حركة الوعى .

محمد عنانى - القاهرة

٢٠٠١

الفصل الأول



انطلقنا فى سيارة الأجرة الصغيرة - الأستاذ أحمد السودة وأخى الأصغر مصطفى وأنا - نطوى شارع المطار طيًّا فى ظلام الليل الدامس ، وما يشبه الفضاء الممتد بلا نهاية حولنا . وكانت سيارة صغيرة من طراز فيات ، لم أتبين عام إنتاجها ، ولكنها كانت طاعنة فى السن أو قل إنها تعرضت لأهوال جعلتها تبدو هرمة مهدّمة ، فأوصالها ترتجُّ وتصطكُ كلما صادفت حفرة أو نتوءًا فى الطريق ، فإذا كان النتوء شديدًا قفزت فارتطمت رأسى بالسقف ، وعندما تطلّعتُ إلى عداد السرعة وَجَدْتُهُ مُعْطَلًا ، فصاح أخى بالسائق أن يبطئ من سرعته بعد أن تجاوزنا سور الكلية الحربية وأشرفنا على مدخل مصر الجديدة ، وكان السائق شابًا بِاسِمِ الوجّه، لا يكثرث للظلمة ولا لأشباح المارّة ممن يعبرون الطريق فى ثقة واطمئنان ، بل ينحرف ويتلوّى ليتفادى 'العوائق' من السيارات والبشر ، ولكننى كنت على انزعاجى مأخوذًا بجمال القاهرة نيلًا ، وبالأضواء المتألّثة فى الأفق ، فلم أعبأ برعونة السائق ، وكان الأستاذ أحمد وأخى يدركان مدى انفعالى فأثرا الصمت معظم الوقت ، فيما عدا كلمات مقتضبة عن الرحلة والوصول .

كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٩٧٥ ، وكنت أتوقع أن أرى تغييرًا كبيرًا ينبئ عن سنوات الغربة العشر ، ولكن ما رأيته لم يكن ينبئ بشيء إذ وجدت غرفتى السابقة كما هى ، وكان أخى الأصغر مصطفى يشغلها ، فحططت الرحال فى غرفة أخى حسن ، وهو أوسط ثلاثتنا ، وكان قد تركها بعد أن تزوج قبل عدة أعوام واستأجر شقة أخرى ، وكان آنذاك فى

مونروفييا (عاصمة ليبيريا) حيث يعمل دبلوماسيًا في سفارة مصر ، ولم ألحظ في الشارع تغييرًا يذكر سوى أن اسمه قد تغير من شارع الدُّرى إلى شارع الفردوس ، ربما للتمييز بينه وبين شارع الدرى الآخر في أعماق الجيزة ، وربما لفضب الحكومة على محمد الدرى باشا الذى سُمِّي الشارع باسمه (وكان ذلك وما زال يمثل لى لغزًا محيرًا) . وبعد قليل زارنا ابن خالتي محمد الخطيب ، المهندس الذى كان ضابطًا بالجيش والذى أرسل من يستقبلنى فى المطار ، مع زوجته أميرة عجمية (التي حصلت فيما بعد على الدكتوراة والأستاذة فى كلية الآداب حاليًا)، وهى أيضًا ابنة خالة لى ، واطمأنًا على وصولى ثم خرجا . وكانت والدتى فرحة بعودتى - بطبيعة الحال - وهى تؤكد لى أن كل شئ كما هو لم يتغير ، وقال لى والدى "هل تصدق أنتى أصبحت فى الستين" ، فكانما كانت الستين أزدل العمر !

كان أول شئ فعلته هو الاتصال بمنزل أصهارى فى شبرا ، ورد على التليفون حمای الأستاذ محمد خليل صليحة رحمه الله ، ثم حادثتى حماتى وأخوات نهاد برتى وعزة وسناء، وأخوها أحمد ، وقيل لى إن سارة ابنتى نائمة ، وعلمت أن الجميع بخير ، وكانت نهاد زوجتى قد سافرت إلى جدة قبل عدة أسابيع للعمل بالتدريس فى جامعة الملك عبد العزيز، وعلمت أنها ترسل إليهم خطابات بصورة منتظمة ، كما علمت أن سمير سرحان الذى كان معارًا إلى السعودية والذى أقنعها بالسفر قد وجد لها سكنًا مناسبًا مع زميلة مصرية هى وفاء الزير (الدكتورة) . وكان عبد العزيز حمودة أيضًا فى جدة مع أسرته ، فاطمأن قلبى على أن نهاد لن تشعر بالوحشة ، فأصدقاء الصبا من حولها ، خصوصًا نهاد جاد (رحمها الله) زوجة سمير التى كانت تكن لها حبًا جارفًا ، وكان الإرهاق قد بلغ بى مبلغه فتمتُ من فرط التعب .

نهضت مبكرًا وجلست وحدى . لم أكن أتأمل أى شئ محدد أو أفكر فى فعل شئ ما ، بل كان يغلب على الشعور بالاستسلام . لقد تجاذبتى أيدي الأيام فشُفِلْتُ بالدراسة المتخصصة حينًا ، وبالعَمَل حينًا آخر ، وبالقراءة فى غير التخصص فى أغلب الأحيان ، وها أنذا أعود إلى مصير أجهله ولا أريد أن أعرفه ، وكان أمرًا ما فيه تفرّق شمل أسرتنا ، وأذكر أننى حادثت نهاد زوجتى بالتليفون من لندن بعد وصولها إلى جدة فقالت لى إننا نعيش فى قارات ثلاث : أنت فى أوروبا وأنا فى آسيا وسارة فى إفريقيا ! ولم أكن فى ذلك الصباح أفكر فى شئ من هذا ، بل كان علىّ أن أصدق أننى عدت إلى مصر ، وعندما دقت ساعتنا العتيقة ثمانى دقائق أيقظت بعض النائمين وأخبرتهم أننى ذاهب إلى الجامعة .

وفى مكتب شئون العاملين بكلية الآداب أمضيت ورقة تفيد عودتى من الخارج ، وعلمت أن راتبى أصبح أربعين جنيهاً فى الشهر ، ثم دخلت قسم اللغة الانجليزية فلم ألمح أدنى تغيير ، وقابلت نادية جندى (الدكتورة) زميلتى التى كانت تسبقنى بعام دراسى واحد ، فرحبت بى ترحيباً شديداً ، وكانت الصداقة قد جمعت بيننا أيام الدراسة فى الخمسينيات ، إذ كنا نشترك فى تمثيل المسرحيات بالإنجليزية ، وكان حديثنا اليوم أيضاً بالإنجليزية ، وبعد دقائق فوجئت بها تقول لى "لقد اكتسبت لهجة بريطانية خالصة (") فوجئتُ ودُهشتُ ، لأننى كنت أتوقع أن تكون هذه هى اللهجة السائدة ، ولم أكن أتوقع أن تنتقل اللهجة الأمريكية (مع اللغة الأمريكية) إلى أفواه المصريين (وقابلت بعض الزملاء ممن تخرجوا أثناء غيابى مثل محمود عياد (الدكتور) (الذى هاجر إلى أمريكا) ورشيد العنانى (الدكتور) (الذى هاجر إلى إنجلترا) وعبدل مصطفى (الدكتورة) التى كانت تتحدث عن السفر لاستكمال الدراسة ، ثم عدت أدراجى سيرا على الأقدام ، مما أتاح لى أن أتطلع إلى كل شئ فى شارع الدقى ، كأنما أحاول بعث ذكرياتى ، ولكن مشاهد الماضى البعيد كانت تزاخم المشاهد الآنية ، وتختلط مع مشاهد بلاد الانجليز ، فلا تعود إلا بالبلبله .

وفى المساء زارنى الأستاذ أحمد السودة الذى أصبح رئيساً للنيابة الإدارية ، وكان دائب القراءة والاطلاع متبحراً فى العلم ويتعطش دائماً إلى المزيد ، مما زاد من حبنا وتقاربنا إلى هذا اليوم ، مع الأستاذ ماهر البطوطى - الذى كان يعمل آنذاك فى وزارة التعليم العالى بعد عودته من العمل ملحقاً ثقافياً فى إسبانيا ، وكان قد أجاد الإسبانية إلى جانب الفرنسية والإنجليزية ، وكان يحلم مثلى بمستقبل أدبى فى الكتابة والترجمة وخرجنا معاً نتجاذب أطراف الحديث ونتبادل الأخبار عن أفراد أسرة كل منا ، وعن أحوال مصر بصفة عامة ، وسرنا معاً إلى وسط البلد كما كنا نفعل قبل عشر سنوات ، وكان التغيير الوحيد هو الزحام الشديد ، ولا غرو فالיום الخميس ، ومساؤه مساء السهر ، ولاحظت إعلانات عن مسرحيات ذات أسماء عجيبة وأفلام ذات أسماء أعجب وأغرب ، وتحادثنا عن الزواج والإنجاب فشرحت لهما كم كان حظى سعيداً بالزواج من نهاد ، وبالحياة معها خارج مصر ، أى خارج نطاق الأسرة - وهو ما لا يتوافر لكثير من الأزواج ، ولم يكن الأستاذ أحمد وماهر قد تزوجا بعد ، فقال ماهر البطوطى إنه تعرف على فتاة فرنسية أثناء مقامه فى إسبانيا وينتوى الزواج منها لو قدر له أن يعمل خارج مصر ، وقال الأستاذ أحمد إن تجربة الزواج لا تنجح فى أحوال كثيرة وينبغى

التروى قبل ولوجها ، وصادفنا فى الطريق بعض معارفنا الذين رحبوا بعودتى ، وعرجنا على مقهى جروبى بميدان سليمان (طلعت حرب) حيث قابلنا 'مصطفى هاملت' الشهير .

كان مصطفى المذكور قد نال أعلى درجة فى اللغة الانجليزية عام ١٩٦١ على مستوى الجمهورية كلها ، فتسلم جائزة مالية وأدبية ، والتحق بقسم اللغة الانجليزية واثقاً من التفوق ، ولكن الدراسة (والامتحانات) بالجامعة تختلف عن الدراسة والامتحانات فى الثانوية العامة ، فلم يوفق فى السنة الأولى إما بسبب ثقته الزائدة بنفسه ، وإما بسبب الاختلاف الذى ذكرته ، فتحولت هذه الثقة إلى غطرسة وخيلاء ، وأصبح يمشى مشية مسرحية عادة ما ننسبها إلى من يمثلون أدوار العظماء على المسرح ، وانتقل بتقدير 'معقول' إلى السنة الثالثة ، فتملكته حالة غضب واشمئزاز من الدنيا - وهو ما ننسبه عادة إلى شخصية هاملت فى مسرحية شيكسبير التى تحمل ذلك العنوان ، وتكون لديه مزيج من الشعور بالعظمة والاضطهاد معاً ، مما يسميه العلماء "بارانويا" ، وسرعان ما أصبح يتكلم بلهجة العارف بأسرار الكون والغازه ، المحيط بدقائق الحياة الدنيا والآخرة ، مصعراً خده ، ناظراً بطرف عينه إلى من حوله ، وعمل بعد تخرجه مدرساً للغة الانجليزية فى مدرسة ما ، فكان ينتهى من عمله ثم يخرج إلى وسط البلد لينظر إلى الناس نظرة تعالٍ وتكبر ، ثم يحط الرحال فى مقهى جروبى سليمان . والغريب أنه كان حادّ الذهن قوى الذاكرة ، فما أن لمحنى حتى رحّب بى بالاسم ، وقال لى أنتم فى الجامعة تهتمون بما لا يفيد ، أما أنا فقد قرأت الكتب المقدسة واطلعت على أسرار الملوك ، ولم يستطع أحد منا أن يسخر منه أو يجادله ، بل استمعنا إليه فى صمت قبل أن نجلس ونطلب الشاى . وهمست وأنا أصبُ الشاى "لقد شاهدت 'طارق زكى غانم' هذا الصباح يسير فى شارع الدرى (١) وصاح ماهر "يووه ! إنه لا يزال كعهدك به ! لم يتوقف عن السير فى شوارع العجوزة حاملاً أوراقه (٢) - وطارق المذكور كان تلميذاً عندى فى الستينيات ، وكان هو الآخر مفرماً بشخصية هاملت ، فكتب عنها ما يسميه بحثاً ، وكان يستمد قوّته من الآلة الكاتبة التى أهداها إليه والده الناظر (فى إحدى مدارس الدقى) فكان يعد 'بحوثه' على الآلة الكاتبة ، فتتخذ صورة الكتاب المطبوع ، ويزور الدكتور فايز اسكندر أستاذ الدراما فى القسم فيلحُ عليه أن يقرأ دراساته وأن ينشرها له 'فى الخارج' ، ثم انتهى به الأمر إلى أن صار يحمل المخطوط المنسوخ على الآلة الكاتبة ويدور به على الناشرين طيلة السنوات الماضية كلها ! وتذكرت قول شارلوت زوجة الأستاذ الانجليزى (كريستوفر سالفسن) الذى أشرف على

رسالتى للدكتوراه ، إن دراسة الأدب قد تؤثر تأثيراً غير حميد فى نفس (عقل ٩) الإنسان .
وجعلت أفكر فى ذلك الجنون ونحن عائدون إلى المنزل ، وعندما خلوت إلى نفسى خرجت إلى
الشرفة للابتعاد .

كانت الشرفة هى المكان الطبيعى لتتسم روح 'المجتمع' فى منطقتنا ، فكان معظم أهل
المنطقة يعرفون بعضهم بعضاً ، بل ويتبادلون التحية فى الشرفات ، ولو كانت تقتصر على
بسمة ، فإذا كانت البسمة من 'بنت الجيران' كُتب على الشاب أن يبيت الليل سهاداً كما
يقولون ! ولكننى وجدت أن جميع النوافذ مغلقة ، وأن كثيراً من الشرفات قد ضُمَّتْ إلى
الغرفة المفضية إلى الشرفة ، فأقيمت فوقها أسوار من الزجاج المعتم المُدَخَّن ، أو من الخشب ،
وأن جواً غريباً من الصمت أصبح سائداً ، لا تقطعه إلا أصوات الراديو أو التليفزيون المنبعثة
من الشقق . وتذكرت قول الشاعر الانجليزى ماثيو أرنولد فى قصيدة 'ليلة صيف' إن النوافذ
المغلقة منفرة مثل الدنيا ، وكانت أضواء الطريق مطفأة ، ربما لتوفير الطاقة ، فاكتمت مشهد
الشارع كآبة زادتني همّاً على همّ . لقد تغيّر شيء ما فى مصر ، وحاولت إقناع نفسى بأنه
وليد سنوات الحرب الطويلة ، فأنا أعتبر أن الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ كانت معركة متصلة ،
وأن جو الحرب قد أحدث تأثيره ولا شك ، ولكن إحساساً دفيناً كان يقول لى إن المسألة ليست
'جو حرب' وحسب ، وتأكد لدى هذا الإحساس فيما بعد ، مع بداية العام الدراسى وتنقلنى
للتدريس ما بين جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون والأزهر والفيوم - لقد اختلفت مصر !

وفى الصباح الباكر هبت نسمة منعشة ، إذ اتصل بى ماهر شفيق فريد (الدكتور) ،
تلميذى السابق وزميلى وصديقى الحالى ، فرحب بى وعرض أن يدعونى إلى الغداء معه
فرحبت ، وهو مثلى ممن ينهضون مبكراً ويحبون المشى مسافات طويلة ، فقررنا الخروج قبل
أن تشتد حرارة الشمس ، وفعلاً تقابلنا أمام منزله فى شارع نوال (المشهور باسم نوال دون
تضعيف الواو) وانطلقنا نسير فى شارع سليمان جوهر (وكان شارع السوق) مما أبهجنى
لوجود الناس من أبناء البلد الذين لم يَبْدُ عليهم أدنى ما يُدْكَرُ بجو الحرب (المفترض) وصرت
أقف عند باعة الطيور والدواجن ، وأتأمل أقفاص الحمام والدجاج والأرانب ، وأنظر ما يقوله
الزبائن وما يفعلونه ، كأننى أرتوى من منهل عذب حرمت منه سنيماً ، وكان ماهر صامتاً
كدأبه ، مقدراً أننى متمطش لأن أرى الناس وأن أسمعهم ، فقضينا وقتاً لا حساب له فى ذلك
الشارع وما حوله حتى وصلنا إلى ميدان الدقى . وكأنما أفقت من حلم طويل سألته إلى أين

يريد أن يذهب فقال إلى هدهود ! وما هدهود هذا ؟ فقال إنه مطعم وكبابجى جديد ، أغلقته الحكومة فيما بعد بسبب مخالفات قانونية ، ولكنه كان قد ذاع صيته حتى أصبح منافساً لكبابجى الدقى !

وفى المطعم جعل ماهر يقص على طرفاً من أخبار الحياة الأدبية فى مصر ، ويطلعنى على ما يدور فى الجامعة ، وعرفت منه أنه يدرس فى جامعة لندن وأنه يقضى عطلة الصيف فى القاهرة ، إذ أصبحت الحكومة تسمح للمواطنين بالدخول والخروج كما يشاءون ، فسررت سروراً عظيماً ، وإن لم أكن آنذاك أعتزم الخروج إلى أى مكان ، فلقد رست السفينة وغيض الماء وقضى الأمر ، وظللنا نتكلم ، وكانت كل كلمة تعيد إلى نفسى الاتزان الذى اختل بعض الشيء ، وكان الكباب الذى طلبه ماهر شهياً فزاد من جمال الكلام وأكّده ، ولم أكن أكلت كباباً مصرياً منذ عام ١٩٦٥ !

كانت الساعات التى قضيتها مع ماهر بمثابة "حفل استقبال" حقيقى ، فهو يمثل العالم الذى عدت إليه ، والذى كان ما يزال غامضاً يلفه ضباب كثيف ، لا أكاد أستبين منه ملمحاً من الملامح ، وكان ماهر يعود كل صيف إلى القاهرة حتى لا يتسبب طول البعد فى مثل هذا الغموض ، وأما أهم ما أزال عنى الوحشة فهو إيمانه بالرسالة التى نذرنا أنفسنا للنهوض بها ، واعتقاده الراسخ بجدوى العلم والأدب مهما تكن الظروف ، وكان حديثه معى يصدر عن قلب يحمل دفئاً صادقاً ، فكل كلمة متوهجة ، وكل صمت ينطق ، وعندما آن أوان الرحيل دفع ماهر النقود ومنح الجرسون بقشيشاً سخياً ، فوجدتني أشكره على كرمه فضحك وذكرنى بأننى كنت قبل السفر أخرج مع الأصدقاء وأحياناً أدعوهم إلى تناول الكشرى ، وكان ماهر على صفر سنّه من أفراد "الشلة" ، وكانت تلك من الأحداث التى نسيته ، لكنه كان يذكرها بوضوح ، فأثار حديث الكشرى شجونى واشتقت إلى تلك الوجبة المفضلة لى ، على ما أحسسته من امتلاء ! وخرجنا من المطعم وعدنا أدراجنا مشياً حتى وصلنا إلى شارع نوال فافترقنا .

وعندما خلوت إلى نفسى فى غرفتى الصغيرة أخرجت حقيبة ضخمة كانت والدتي قد وضعت فيها كل أوراقى وبعض كتبى وأشياءى ، وكانت من بينها أعداد مجلة المسرح القديمة التى كنت أرسل لها "رسائل فنية" ، ومجلة 'الجديد' التى كنت أرسلها أيضاً فى مطلع السبعينيات ، وجعلت أقلب الأوراق فعثرت على عددٍ من مجلة الأدب التى كان يرأسها أمين

الخولى ، وكان ماهر شفيق فريد قد أخذ منى نصّ قصيدة قصيرة بعنوان 'الصمت' ونشرها فيها (ثم أعدت نشرها فى أول ديوان لى بعنوان أصداء الصمت عام ١٩٩٧) ، كما وجدتُ نصوص بعض المسرحيات التى قدمتها على المسرح قبل سفرى ، فأضفتُ إلى الحقيبة الترجمة الانجليزية التى كنتُ أنجزتها فى انجلترا لمسرحية مسافر ليل لصالح عبد الصبور ، وقضيت الساعات التالية فى تأمل ما يمكننى أن أفعله فى المستقبل ، ولم تكن أحلام العودة إلى كتابة المسرح قد تبخّرت ، إذ كنت ما أزال على حبى القديم للدراما ، أتلهف للعودة إلى الكتابة وعالم المسرح ، ولكننى أغلقت الحقيبة مؤقتاً - وعدت إلى الواقع .



كان همى الأول - كما قلت - هو الذهاب إلى المطار لتسلم الحقائق الثلاث التى كنت أرسلتها مع الصندوق الخشبى أو الهيكل الخاص الذى وضعت فيه ست مرايا مربعة من 'البنّور' ، ثمن الواحدة جنيهان ، وكان إرسال هذه الطرود من لندن يسيراً ، فتصورت أن استلامها سيكون يسيراً كذلك ، ولكن القدر كان يدّخر لى مذاقاً آخر للعودة ، إذ بدأت رحلة المطار فى التاسعة ولم تكتمل إلا فى الثالثة .

بدأت الإجراءات بالأوراق، التى اقتضت الانتقال بين المكاتب لجمع توقيعات الموظفين على استمارة خاصة أُرْفِقتَ بها 'بوليصة' الشحن ، وظهر فجأة شخص عذب الحديث يقول إنه متطوع لإنهاء المهمة، و"أنا تحت أمرك" و"كل عام وأنتم بخير". وعبثاً حاولت إقناعه بأننى لا أريد مساعدة ، فقد كان يلازمى كظلى ، ويهمس لى عند كل مكتب إن فلاناً يعرف وسوف يساعدنى مقابل "إكرامية" زهيدة (قروش معدودة) وكنت أدفع صاغراً حتى بلغ عدد التوقيعات ٢١ توقيعاً، وآن أوان استلام الحقائق. فخرجت مع صاحبنا إلى ساحة شاسعة تكدست فيها أكوام الحقائق تحت شمس الظهيرة الحارقة إلى جانب الصناديق واللفافات التى كانت تعلو فى أكوام غير منتظمة، ولاحظت وأنا أسير وسط هذه الأكوام أن بعض الحقائق غير محكم الإغلاق، وبعضها مفتوح كأنما بُقرت بطنه وتدلّت أمتعاه، فسألت صاحبنا فهمس لى مع غمزة بعينه "هذه متروكات" ولم أفهم ، فقال إن أصحابها لم يسألوا

عنها ومضى عليها زمن طويل فامتدت إليها يد العبث . وخشيت أن يكون ذلك مصير حقائبي فاجتهدت في البحث حتى وصلت إلى البقعة التي حددها الموظف في آخر مكتب مَرَزْنَا به ، فوجدتها وتنفس الصعداء ، ثم بحثتُ عن المرايا فوجدتها وقد استقرت تحت صندوق خشبي القاه أحدهم فوقها بركنه المدبب فكسر الهيكل الخشبي الذي وضعت فيه ، وكسر أربع مرايا ، ونجت اثنتان منها فحملت الهيكل بما فيه ، ووضعت كل شيء على 'التروली' وتصورت أن الأمر قد قضي .

وسرنا نحو خمسمائة متر عائدين إلى المنطقة الجمركية ، فَطَلَبْتُ من صاحبنا أن يطلب لى سيارة أجرة ، فضحك ضحكة مكتومة وقال "إن شاء الله .. بعد الجمرك" . كانت الأوراق في يدي قد أصبحت ملفاً كاملاً فتقدمت من رجل الجمرك ، وكان فارغ الطول ذا شعر قصير أجعد ، في نحو الأربعين ، قوى الذراعين ، إذ حمل الحقيبة الأولى على ثقلها بيُسْرٍ ووضعها أمامه ، ويبدو أنه أعطى إشارة لم ألاحظها لمن معه فاختلفى الجميع وأصبحت وحدي في مواجهته . كنت هادئ الأعصاب مستسلماً - كما قلت - وعلى أتم استعداد لتقبل ما يحدث . وماذا عساه أن يحدث ؟ فتح "الكشاف" الحقيبة الأولى فوجد خليطاً من الملابس والأحذية والكتب و"الكراكيب" - أى تلك الأشياء الصغيرة التي نحتاجها في المنزل ولا نعرف أهميتها إلا حين تغيب . وكانت نهاد جاد زوجة سمير سرحان قد نصحتني بالألا أترك "قشة" واحدة في البيت ، فسوف يوفر ذلك على مهمة الخروج للبحث والشراء ، ونظر الكشاف إلى باطن الحقيبة فرأى مقياساً معدنياً من الذي يستخدمه النّجّارون ، وقبل أن يبدأ التفتيش الرسمي وضعه إلى جانبه خارج الحقيبة وهو يقول لى بلهجة جادة "هل أنت متمسك بهذا المقياس؟" وقلت بتلقائية "اتفضل" فلم يعقب . ربما كنت أتوقع كلمة "شكراً" ولكن الصمت امتد ، ويد الكشاف تصنّف محتويات الحقيبة ، حتى أَصْبَحَتْ مثل دكان الخردوات . ورفع الكشاف بصره إلىّ وقال : "أنت معفى من الرسوم على الكتب والملابس الشخصية المستعملة" ثم ابتسم ، وأشار بيده إلى "الكراكيب" قائلاً "أمّا هذه الأشياء لا" فقلت له افعل ما بدا لك لا قال "العفو يا أستاذ .. أنا أريد مساعدتك .. ولا أريدك أن تدفع رسوماً جمركية باهظة" . فلم أعلق فاعتبر أن ذلك موافقة ، فبدأ ينتقى ما طاب له من "الكراكيب" - مثل شفرات الحلاقة (قال وشفتهاء تتلمظان "أمواس انجليزي") وأدوات كتابية ، وبكرات خيط وإبر ، وشرائط لصق ، حتى جاء إلى حزام جلدي عادي فقال : "هذا من الملابس ؟" قلت له "كما ترى لا" فابتسم

وقال "فليكن .. من أجل خاطرك !" وانتهى من الحقيبة وقد خف وزنها كثيرا ، ولم أحزن إلا لضياح زجاجة الحبر الضخمة ، وكنت ولا أزال مولعا بالكتابة بأقلام الحبر السائل !

وتكرر ذلك مع الحقيبتين ، حتى إذا جاء دور المرايا صاح فى غضب "من الذى كسر المرايا ؟" وانشقت الأرض عن موظف صغير ، وكان شكله يوحي بأنه صغير الوظيفة ضئيل المكانة ، وكان فى صوته خنوع غريب ، ففهم بكلام لم أتبيته ، وقال الكشاف : "هذه مهزلة ! هذا بنور انجليزى ! وهو غالى الثمن .. كيف يحدث هذا ؟" ولم أجد ما يقال فسكت . واختفى الكشاف لحظة ، إذ كان عليه أن يحمل غنائمه إلى مكان آمن ، ثم عاد وهو يقول ضاحك السن ، "لن تدفع رسوما على المرايا ! المأمور وافق !" وسألت بلهجة حاولت أن تكون مهذبة : هل أمضى الآن ؟ فضحك وقال "طبعاً طبعاً .. أنت شرفتنا .. سوف يأخذك المخلص إلى مكتب المأمور .." .

وبرز المخلص من مكمنه (وكانت كلمة المخلص ترتبط فى ذهنى بدلالة دينية) وسار معى إلى مكتب مأمور الجمرى حيث وقفت ورقة 'إفراج' أقرأ فيها بأننى تسلمت جميع حقائبى كاملة غير منقوصة وفى حالة جيدة وسليمة .. إلخ ولم أنبس ببنت شفة طوال تلك الإجراءات، ثم دفعت 'الترولى' خارج البوابة وأنا أحمد الله على أن ظفرت بما ظفرت به من متاعى . وكان التاكسى فى الانتظار ، فتعاون السائق مع "المخلص" على وضع الحقائب وحطام المرايا (ما نجا منها) فوق السقف وفى حقيبة السيارة ، والتفت إلى المخلص مودعا وأنا فى حيرة كم أدفع له ؟ ووضعت يدى فى جيبى وقبضت على ورقتين مائيتين - أعتقد أنهما كانتا جنيهاً ونصف جنيه ، وأخرجتها مقبوضة ووضعت ما فيها فى يده وهو يعارض بفمه ويقبض على المال بيده ، ثم جلست فى المقعد الخلفى وانطلق بى التاكسى إلى المنزل .

وجعلت أستعرض أثناء رحلة العودة ما ضاع من "كراكيب" ، وأحصى ما نجا منها ، وقلت فى نفسى إن هذه التفاهات لم تكلفنى كثيرا وكان يمكن أن أتركها فى المنزل فى انجلترا، كما إن ذلك الرجل قد ينتفع بها فهو ضريبة لابد أن تطيب نفسى عنها ، ولكن الذى ضايقنى هو كثرة الأوراق والإمضاءات واليوم الطويل الذى ضاع فيها وذكرت أن متاع المنزل لم يصل بعد ، وهو الذى شُحن بحرا ، ترى ماذا سأفعل فى جمرى الاسكندرية ؟ وقررت تأجيل التفكير فى الموضوع حتى يحين موعده .

وما إن وضعت الحقائب فى الغرفة وتناولت الطعام حتى رن جرس التلفزيون ، وكانت المفاجأة ! إن سمير سرحان فى القاهرة فى إجازة خاصة ، ولم نُضَعِ الوقت فى الحديث إذ قال إنه سوف يمر علىّ فى المساء وحددنا الساعة ، وعندما جاء كان يقود سيارة من طراز ”فولفو“ لونها نبيتى فخرجت معه وانطلقنا فى ليل القاهرة نشبع نهمنا لحديث لا ينفد ، كأنما لم نكن معاً فى ردنچ ولندن من أسابيع معدودة ! كان يشجعنى على اللحاق به فى جدة ، واستصدر من عميد كلية الآداب فى جامعة الملك عبد العزيز دعوة موجهة لى للعمل هناك .

انطلقنا فى جولة طويلة بالسيارة ، أسمعنى فيها بعض أغانى فيروز التى لم أكن قد سمعتها من قبل، وكانت ذات قدرة غريبة على النفاذ فى النفس، وأدهشنى أننى لم أفقد المقدرة على تذوق الموسيقى الشرقية بعد السنوات العشر التى كنت أسمع فيها الموسيقى الغربية ليل نهار، وهزنتى أغنية ”رجعت لىالى زمان“ وعرفت أن فيروز غنتها بمناسبة شفاء زوجها من مرض خطير أَلَمَّ به، وبعد الجولة توقف سمير أمام منزل الدكتور رشاد رشدى فى شارع الجيزة، وسرت وراءه مثل الغريب الذى يتبع مرشداً ، أو مثل مبعوث من أهل الكهف، وكان يقال لى إننى كنت شارد النظرات، فكنت أنكر ذلك وأحاول جمع شتات نفسى والتركيز فيما حولى ، وقال لى سمير إن رشاد رشدى أصبح إلى الصديق أقرب منه إلى الرئيس أو الأستاذ، وغدا يرتبط مع تلاميذه السابقين بحبل من الودّ متين ، مما أشاع فى قلبى السرور .

واستقبلنا رشاد رشدى بالترحاب المتوقع ، وكذلك فعلت زوجته ثريا التى كنت تعرفت عليها فى لندن ، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، وكان دائم الإشارة إلى مشاكل الأكاديمية (أكاديمية الفنون) وسمعت منه أخبار أساتذة الفن وحكاياتهم التى تختلف كل الاختلاف عن حكايات أساتذة الجامعة ممن تنحصر حياتهم بصفة عامة فى العمل الأكاديمى ، وأحسست أننى أطل على ”عالم جديد جميل“ كل ما فيه غريب ومدهش ! وقال لى رشاد رشدى إنه أعد لى ’جدول‘ حصص للتدريس فى الأكاديمية - فى المعهد العالى للفنون المسرحية والمعهد العالى للنقد الفنى - ورحبت طبعاً فأننا لم أستمع للغة العربية فى التدريس فى يوم من الأيام ، وكنت أحس أننى أحتاج إلى مثل هذا التدريب المنتظم حتى أعود إلى اللغة العربية فأعود إلى الوطن حقاً .

وامتدت الأحاديث وطالت ، إذ توالى وصول من أعرف ومن لا أعرف ، وبعض الأصدقاء القدامى مثل أحمد بهجت ، الكاتب المشهور (ابن أخت رشاد رشدى وزوج الكاتبة سناء فتح

الله) الذى جاء معه بصديق غريب اسمه عصام ، قُدِّر لى أن ألتقى به كثيرًا بعد ذلك ، كان قصيرًا يميل إلى النحول والصلع ، وكان يتكلم بصورة متقطعة فيدخل السرور على قلب أحمد بهجت ، وعلمت أنه يعيش ويعمل فى ألمانيا بعد أن اضطر إلى الهجرة بسبب ميوله الإسلامية المتطرفة ، وكانت تعليقاته التى تثير ضحك أحمد بهجت تتضمن السخرية من كل ما ننادى به ، حتى ولو لم يكن خلافياً مثل تنظيم الأسرة ، وتتضمن عداءً دفيناً لعبد الناصر ، ولكن أهم سماتها هو عدم الترابط والإشارات المختلطة إلى وقائع قديمة وأحداث وقعت فى ألمانيا ، فتهامس البعض قائلين إنه عدوى (nihilist) أو فوضوى (anarchist) ولكننى لم أفهم منه شيئاً . ثم وصلت الدكتورة سميحة بهجت ومعها زوجها الطبيب وبعض أفراد الأسرة الآخرين مثل عفاف ، وهى ابنة أخت أخرى لرشاد رشدى ومعها زوجها توفيق عبده إسماعيل الذى كان على صلة وثيقة بالدكتور عبد القادر حاتم (وتولى منصباً وزارياً فيما بعد) وكان الزوار يناقشون من شئون الحياة ما لم يجلب بخاطرى ، ولا أعرف عنه شيئاً البتة ، فيزداد عمق إحساسى بالهوة الزمنية التى تفصلنى عن مصر .

وعندما انتصف الليل أو كاد بدأت أغالب النعاس ، إذ كنت أستيقظ مبكراً ولم تكن آثار رحلة المطار قد انمحت ، ولم أكن أنام فى الظهيرة ، حسبما تعودت فى إنجلترا ، فوجدت صعوبة فى متابعة السهرة ، ولاحظت سميح ذلك فطلب لى قهوة ، ولكن فوات موعد نومى جعلنى أحس بصحوة جديدة فيها لمسة خدرٍ لطيفة ، جعلت أحاديث القوم تصل إلى مسامعى فى غلالة كأنها من نسج الأحلام ، وكان معظم الموجودين لا يكادون يشعرون بوجودى ، فنهضت من مجلسى وتطلعت إلى صفحة النيل فكانما كنت أرى دنيا جديدة - وسرعان ما اقترح سميح أن نمضى معاً ونحن نتحدث مع الدكتور رشدى عن لقاء قريب .

وفى الصباح ذهبت إلى الجامعة فقابلت الدكتورة فاطمة موسى رئيسة القسم آنذاك ، فقالت لى "سوف نعلن لك عن درجة مدرس (تخصص شعر) فترقب الإعلان" وحددت لى ساعات التدريس فى العام الجديد ، وجلست إليها نتجاذب أطراف الحديث ، فصداقتنا عميقة قائمة على الحب والتقدير معاً فسألتهما ما سألْتُ ، وسمعت منها بعض الأخبار عمَّن سافر وعمَّن عاد ، وسمعت عن الاتجاه الجديد فى الجامعة إلى ما يسمى "بالقيادة الجماعية" التى تعنى إصدار القرارات عن طريق المجالس (مجلس القسم ومجلس الكلية ومجلس الجامعة) وعلمت أن ندوة أكتوبر عقدت فى الجامعة فى الصيف ، وكانت مؤتمراً دولياً لمناقشة حرب أكتوبر ، وكان انقضى على وقوعها عامان ، مما ذكرنى بمؤتمر عدم

الانحياز الذي عقد في الجامعة عام ١٩٦٤ وشاركت فيه مترجمًا. ودخلت غرفة المدرسين فوجدت الدكتور فايز اسكندر الذي رحب بي أيما ترحيب ، ومعه ضابط برتبة كبيرة لا أذكرها (مقدم أو عقيد) وكان يقص على الدكتور فايز قصة ضياع مكافآت المترجمين منه بسبب إغماء مفاجئ ، وقدمنى الدكتور فايز إليه ، دون أن يبدو على وجهه ما ينم عن تصديق أو تكذيب لقصة الضابط ، وكان صامتاً حتى انتهى صاحب القصة من سردها وخرج ، وقد ضاع اسمه من ذاكرتى مع ما ضاع من ذكريات !

قال الضابط إنه صرف الشيك وأتى بأجور المترجمين والمحريين والمشاركين في أعمال المؤتمر نقدًا في حقيبة "سمسونيات" ودخل الجامعة ، وفجأة أصابه إغماء ، وعندما أفاق وجد الناس حوله ، لكنه عندما فتح الحقيبة لم يجد المال . لا أذكر الرقم الذي ذكر آنذاك لكنه كان يعد بالآلاف ، وجعلنا نتعجب من عساه يكون السارق ؟ ولا بأس من استكمال قصتي مع هذا الضابط التى استمرت عدة شهور في عام ١٩٧٥ - إذ أوصاه أحدهم بأن يلجأ إلى لترجمة كتيب سيصدر عن أعمال الندوة المذكورة ، وكان الكتيب صغيراً لا يزيد عدد صفحاته عن ٢٥ ، وكانت اللغة سهلة غير معقدة ، ولم أصادف فيه كلمة واحدة لم تسبق لى ترجمتها في انجلترا ، فانكبت عليه وانتهيت منه في أيام معدودة ، واتصلت به تليفونيا وقلت له إن الترجمة جاهزة ، ففرح وقال ضاحكاً إن المكافأة جاهزة أيضاً ، وسألنى هل تريد شيكاً أم نقدًا ، وقلت له كما تشاء ، المهم أن تنتهى من هذا الموضوع لأن الدراسة بدأت وأنا مشغول . وفعلاً حضر إلى الجامعة ، فرحبت به وطلبت الشاى ، وأعطيته الترجمة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، ونظرت إليه مستفسراً عن المكافأة ، ولكنه كان يتحاشى نظراتى إما بالتطلع إلى النص المكتوب صامتاً ، أو بالسؤال عن معنى كلمة من الكلمات ، ثم تكلم أخيراً في الموضوع فسأل : هل سنحسب المكافأة بالكلمة أم بالصفحة ؟ وعجبت لأنه سبق أن قال إنه سوف يدفع مكافأة شاملة هي خمسون جنيهاً ، وعندما ذكّرته بذلك قال : للأسف ! المحاسب اعترض ! لابد من الحساب ! كم أجر ترجمة الكلمة ؟ فقلت له مليمان من الإنجليزية وثلاثة مليمات من العربية ، ومليم للمراجع في الأولى ومليمان للمراجع في الأخيرة ، فقال : إذن نعيد الحساب على هذا الأساس ! وبدأ يعد الكلمات العربية بتركيز شديد ثم قال الصفحة فيها ٥٠٠ كلمة ، ولم أعترض ، ولو أن بعض الصفحات كانت مكدسة ، وهكذا يكون المجموع ١٧٥٠٠ كلمة في ثلاثة مليمات - ولم أعترض أيضاً ، وإذا به يقول : لا .. المكافأة الشاملة أوفر لنا .. سوف

أقنع المحاسب واتصل بك .. وخرج . وعلى الرغم من محاولاتي الدائبة التي استمرت في أكتوبر ونوفمبر وديسمبر للاتصال به والحصول على النقود ، لم أتناقض مليماً واحداً حتى يومنا هذا (من عام ٢٠٠٠) .

عندما عدت إلى المنزل وجدت خبيراً رائعاً وهو أن نهاد زوجتى سوف تصل فى مساء اليوم نفسه - فى إجازة خاصة - وقال لى عبد العزيز حمودة الذى كان قد عاد لتوه وأنبأنى ذلك النبأ تليفونياً ، هل تحب أن نذهب إلى السويس لاستقبالها ؟ فهى ستصل بالباخرة لا بالطائرة ! ورحبت بالفكرة لأنها تمثل رحلة إلى مدينة طالما تردد اسمها فى الآونة الأخيرة فى أسماع العالم بعد الكفاح البطولى الذى خاضه شعبها ، والانتصار أخيراً على الإسرائيليين ، وكنت أشتاق لرؤية الجبل الذى يطل على المرفأ والذى كانت صورته ماثلة أبداً فى مخيلتى منذ أيام رحلات الكلية فى الخمسينيات ، وعندما ذكرت ذلك لعبد العزيز حمودة ونحن ننطلق فى سيارته الأمريكية (لا أذكر نوعها) قال لى : لم تعد المدينة إلى سابق عهدها بعد .. وأمامها شوط طويل ! وفى الطريق تجاذبنا أطراف الحديث عن العمل وعن الأسرة فلم نشعر بالرحلة ، ولكننا عندما وصلنا وسألنا قيل لنا إن الباخرة سوف تصل غداً - وعلى الرغم من خيبة الأمل فقد كان المشوار ممتعاً ، إذ تجوّلنا بالسيارة فى الميناء وشاهدت الجبل ، وكانت الشمس قد غربت ، فاكتسى المشهد جلالاً طالما اشتقت إلى رؤيته ، وتوقفنا عند بعض المعالم الرئيسية قبل أن نعود إلى القاهرة .

أنا دهشٌ لأن هذه التفاصيل تشغل مكاناً واضحاً وثابتاً فى ذاكرتى ، ودهشٌ لأننى أثبتتها على الورق وذلك - فيما يبدو - دون مبرر ، ولكنها تنتمى إلى ساعاتى الأولى فى مصر والتي لا تزيد على مائة ، والتي كانت مشحونة بلقاءات وأحاديث ومشاعر يمكن أن تملأ كتاباً كاملاً ، ولذلك فليس من الغريب أن يكتب "جيمس جويس" رواية من ألف صفحة تقريباً (هى أوليس) يرصد فيها وقائع ٢٤ ساعة فى حياة البطل "ليوبولد بلوم" ، والربط بين الأحداث ليس مما يستطيعه الذهن الذى "يتعامل" مع معانى الصور التى تتغير عبر الزمن ، وهذا هو الذى جعل أستاذاً كبيراً مثل "ديفيد ديتشيز" David Daiches يكتب جانباً من سيرته الذاتية بعنوان WAS - أى كان - ويردغه بعنوان فرعى هو "تسرية من الزمن الماضى" Pastime from Time Past - يتابع فيه أفكاره من خلال ألفاظ بعينها ، ألفاظ تستدعى ألفاظاً فى زمن مضغوط مثل الزمن الرومانسى ، فقديمًا قيل إن الزمن

الرومانسى هو الكثافة ، أى إنه يقاس بالعمق لا بالامتداد ، ولطالما أحسست أن الزمن لدينا فى الشرق رومانسى فى جوهره ، فنحن أسرى لحظات محددة تتجلى فيها أشياء تصبح هى الزمن لدينا ، وهذه اللحظات هى الواحات التى أعود إليها للابتعاد من هجير الحياة وقبض الأحداث ! إنها ماثلة أبداً فى النفس، مشرقة أبداً فى الوجدان ، نابضة أبداً فى الوعي ، وهى التى نعرف منها أننا عشنا !



مر علىّ سمير سرحان فى الصباح واصطحبني بالسيارة إلى دار أخبار اليوم حيث أخذني لمقابلة أنيس منصور ، وكان سمير ولا يزال يحبه حباً جمّاً ، فرحّب بنا وكان أيامها رئيساً لتحرير آخر ساعة ، وكان يتكلم فى التليفون طول الوقت ، وفجأة وضع السماعة وقال: ”جلال عارف .. موش عارف حاجة !“ وضحك ضحكة مقتضبة ، واتفق معه سمير على نشر شيء ما فى المجلة ، وخرجنا فمررنا بعدة مكاتب ، وكان الحر شديداً ، وعندما عدنا إلى السيارة وجدناها مثل نار الله الموقدة ! وكان سمير أثناء تنقلاته يقص علىّ طرفاً من الحياة فى جدة ، فهى غربة من نوع جديد ، لكنه لم يكن يعترف بأى اغتراب ، إذ سرعان ما أقام علاقات وثيقة مع ”الكبار“ وحقق بذكائه النادر انتشاراً أدبياً فى كل مكان ، وكان إغراء الذهاب إلى جدة كبيراً ، فساكون مع زوجتى (وابنتى طبعاً) وسنكون جميعاً مع أصدقاء الصبا ، وسيكون لدينا من النقود ما يكفى للحياة الرخيّة بل وادخار شيء ما للمستقبل ! وتحدث سمير عن مباحج جدة التى كانت لا تزال فى مرحلة التحول العمرانى الأولى - أى قبل أن تصبح بالضخامة التى شهدتها فيما بعد عام ١٩٨٢ - وكانت أحاديثه نموذجاً حياً لما يفعله ذهن الفنان بالمادة ”الحياتية“ (الحيوية) إذ يعيد تشكيلها باستمرار ، وكان ذلك ولا يزال ما يميز ذكريات سمير عن ذكرياتى !

وعندما وصلت إلى المنزل فى نحو الثالثة وجدت أجمل مفاجأة ، إذ كانت نهاد قد عادت من السعودية ولديها هى الأخرى عشرات القصص عن الحياة فى الغربة الجديدة ، وناقشنا موضوع الشقة التى كانت استأجرتها لنا بمساعدة والدها فى مدينة المهندسين ودفعت فيها

مقدم إيجار كان يعتبر باهظاً آنذاك (٦٠٠ جنيه) وقالت لى إنها تتطلع إلى الاستقلال ، ومن ثم قررنا أن نبدأ فى إعداد الشقة للإقامة ، ولم أكن على دراية بمسائل طلاء الجدران فى مصر ، فذهبت إلى العمارة التى كان بناؤها قد اكتمل ، ووجدت فيها دكاناً استأجره أحدهم وأحاله إلى ورشة لصناعة المرايا وأنواع الزجاج ، فرحب بى وعندما أخبرته بموضوع الطلاء عرفنى بشخص قال لى إنه مقاول ويمكنه أن ينتهى من طلاء الجدران و”قشط“ الأرضيات الخشبية - أى جعلها مستوية ناعمة - بل وطلائها أيضاً ”بالبوليثيرين“ ، وكانوا يسمونه ”البلاستيك“ فى مصر آنذاك ، وكنت قد أحضرت معى أربعة جالونات من انجلترا (شحنتها بحراً ولم تصل بعد) وذلك فى غضون شهر على الأكثر ، مقابل مبلغ كلى هو خمسمائة جنيه، دفعت له منها مائة ، فأتى بالعمال وبدأ العمل .

وقضينا الأيام التالية أنا ونهاد زوجتى ما بين منزل والدى ومنزل والدها ، وناقشنا موضوع ذهابى إلى جدة ، إذ إننى بعد أن قابلت مندوب الجامعة السعودية فى القاهرة ، وكان رجلاً فاضلاً مهذباً اسمه الدكتور محمد الرشيد ، بل وبعد أن وقعت العقد (٣٦٠٠ ريال شهرياً) اتضح أن ذهابى إلى جدة يتطلب استخراج ما يسمى بالورقة الصفراء - أى موافقة جهة العمل على السفر (التي حلت محل تأشيرة الخروج) وكان ذلك محالاً ، فاعتذرت لسمير سرحان ، وخرجنا مساء ذلك اليوم مع نهاد جاد زوجته ، التى كانت حاملاً فى الشهر التاسع، ومع نهاد زوجتى ، إلى أحد فنادق القاهرة الكبرى ، وصعدنا إلى الطابق العلوى حيث توجد شرفة واسعة يسمونها ”روف“ ، فجلسنا نطل على القاهرة ، وتهب علينا نسائم الليل المنعشة، وما لبث أن لحق بنا محمد جلال (الروائى) والفنانة عايدة عبد العزيز (زوجة الفنان أحمد عبد الحليم) ولم أكن قابلت أيهما من سنين ، وكانت الأحاديث شائعة ممتعة ، ولكننى كنت صامتاً معظم الوقت ، وقد تملكنى الإحساس بأننى عدت إلى رحم الأم ، وتمنيت لو قضيت الليل كله فى ذلك المكان .

وفى اليوم التالى - يوم ٢٤ سبتمبر - ذهبنا جميعاً فى المساء إلى مكان ما على شاطئ النيل بالقرب من المعادى ، وجلسنا نتأمل صفحة الماء والسفن الشراعية المنسابة دون صوت كأنها طيور بيضاء ، فأحسست أننى عدت إلى رشيد لا إلى القاهرة ، وكنت أستغرق فى أحلام اليقظة وفى ذهنى تتردد أبيات من الشعر العربى التى كانت مشحونة بالذكريات ، فلم ألتفت إلى أحاديث الصحبة ، وكان سمير يقول لى آنذاك إنه يحاول أن يساعدنى عملياً على العودة

إلى مصر ، وإنه يريد أن يكون وسيلة امتصاص صدمة العودة - مستعملًا التعبير الانجليزي shock absorber أى جهاز امتصاص الصدمات الذى شاع إطلاقه على جهاز خاص فى السيارة يقال له "المساعدين" فى مصر . وكان محمد جلال يتحدث - فيما أذكر - عن الأدب والصحافة ، فهو مدير تحرير مجلة الإذاعة - ونهاد جاد تشاركه الحديث باعتبارها صحفية فى مجلة صباح الخير ، ولكن سمير كان يتعمد أن يتكلم عن مشروعات المستقبل ، كأنما لينتشلنى من عالم الغربة ، ويقيم الصلات اللازمة مع الواقع الذى عدت إليه . وفى اليوم التالى سمعنا أن نهاد وضعت فى المستشفى ، وأن اسم المولود خالد ، فذهبنا إليها أنا ونهاد وهنأناها بالسلامة ، وكان سمير مشغولاً بإجراءات السفر ، وأهمها إضافة اسم المولود إلى جواز السفر ، وأذكر أنه كان يشكو من رفض الموظف السماح بذلك دون تصريح من الأمن ، وكيف شرح سمير له أن الرضيع لا يمثل خطراً على الأمن القومى ، وكيف اضطر سمير إلى الاستعانة بأحد معارفه من كبار الضباط لإنجاز المهمة !

وانقضت أيام الإجازة وعاد الجميع إلى السعودية ، وبدأنا العمل فى الجامعة ، أو قل بدأنا الاستعداد للعمل ، وذات يوم جاءنى الدكتور محمود شكرى مصطفى الذى كان عيّن أستاذاً فى كلية اللغات والترجمة التى أنشئت فى جامعة الأزهر ، وقال لى إنه يتمنى أن أقوم بتدريس مادة الشعر لطلبة السنة الثالثة فى قسم اللغة الانجليزية ، فرحبت واتفقنا على أن أذهب إلى جامعة الأزهر يوماً واحداً فى الأسبوع - هو يوم الأحد - لكننى سرعان ما كُلفت بتدريس مادة الشعر أيضاً للسنة الرابعة ، ثم مادة الترجمة لطلاب شعبة يسمونها شعبة الترجمة الفورية ، أى إن عدد الساعات أصبح ست ساعات أسبوعياً ، تبدأ فى الواحدة ظهراً ، وتستمر حتى الساعة ، لا تتخللها إلا فسحة لصلاة العصر ، ثم فسحة صلاة المغرب التى كانت بمثابة النهاية الفعلية لليوم الدراسى ، لأن الطلاب كانوا يتفرقون بعد الصلاة ، ويرفضون بإصرار أن يشغلهم شئ فى الفترة ما بين المغرب والمساء . ولكن تجربة التدريس فى الأزهر كانت ممتعة ، إذ كنت أستقل الأتوبيس ظهراً حتى حى الحسين ، ثم أتجول ساعة أو بعض ساعة فى المنطقة العتيقة ، وأشتري السميط أو الخبز والجبن الرومى أو الأبيض، وكنت أفضل السميط لأنه كان طازجاً فكنت أقضمه قضمًا وأختتم الوجبة بزجاجة مياه غازية يعتبرونها "كوكا كولا" وإن لم تكن كذلك لأن المقاطعة العربية للشركة الأجنبية كانت لا تزال سارية بسبب تعاونها مع إسرائيل ، وكنت كثيراً ما أضع ما يتبقى من الطعام فى حقيبتي

الصغيرة ، ولم أكن أعرف أن أحداً يراقبنى ، فلقد اعتدت التجوال واعتدت الحرية ، حتى جاء اليوم الذى قال لى أحدهم فيه إن تناول الطعام فى الطريق العام ”حرام“ ، وإن وضع الطعام فى حقيبة الدرس ”غير محمود“ . كان الناصح من أعضاء هيئة التدريس فى الأزهر، وكان مهذباً ولبقاً، فلم أغضب، ولكننى سألته عن مصدر معلوماته فابتسم ، وقال إن ذلك معروف ، فلم أعقب ، ولم أول الأمر أهمية ، وإن كنت قد عرفت فيما بعد أن بين الطلاب من يبلغ ”الإدارة“ بكل ما يحدث وكل ما يقال، فدهشت وتعجبت.

كانت مشكلة التدريس فى الأزهر هى ضعف حصيلة الطلاب من اللغة الانجليزية ، وكان أضعف الجميع طلاب شعبة الترجمة الفورية ، ولم أكن أدرك سر هذه التسمية ، فالترجمة الفورية مهارة عليا من مهارات المترجم الموهوب الذى يتمتع بخبرة طويلة ولماحية وبديهة حاضرة بل ووقادة ، أى إنها فن لا يصل إليه كل مترجم مهما تكن قدرته اللغوية ، فكيف نعلمها للمبتدئين ممن يجاهدون حتى يتقنوا اللغة الأجنبية قراءة وكتابة ؟ وبعد ’التفاهم‘ مع أفراد الفرقة التى كنت أتولى التدريس لها ، اتفقنا على تحديد قطع معينة وترجمتها وحفظها بحيث لا يخرج الامتحان عنها (كنت حزينا لإقدامى على هذه الخطوة ، ورأيت من واجبى أن استشير أستاذاً من أساتذة القسم ، فقصدت الدكتور وجدى الفيشاوى - خريج جامعة القاهرة - وقصصت عليه القصة فلم يبد أى دهشة ، وقال بنبرات هادئة ”كلهم يفعلون ذلك! لا تهتم!“ ولكننى ألححت فى طلب العون ، فنصحنى بأن أشكو إلى الدكتور محمود شكرى مصطفى ، ولكن رده كان مماثلاً لرد الدكتور وجدى . ما زلت أذكر تلك اللحظات بوضوح ، إذ كانت الشمس قد مالت للغروب ، وكنا نجلس فى غرفة الأساتذة ، وكنت أتطلع من الشباك إلى السحابات الواهنة ”التي خرقتها مئذنة“ كما يقول أحمد عبد المعطى حجازى، وشاعت فيها ألوان الأصيل الشاحبة ، وكنا قريبين من ”الميضأة“ (أى مكان الضوء) فكنا نسمع قرقرة القباقيب التى يلبسها الطلاب قبل الضوء ، وتصل إلينا أصواتهم العالية فأتصور أن عراقاً قد نشب ، وكنت قد انتهيت من شرب الشاي الذى أقتعت الفراش ألا يضيف إليه السكر، فنهضت أعتزم الخروج فإذا بالدكتور عبد العظيم سويلم - تلميذى القديم فى جامعة القاهرة - يظهر لدى الباب ويفاجئنى بعبارات الترحيب ، وكنت قد رأيته آخر مرة فى انجلترا فى مكتب البعثات ، ففرحت وقررت استشارته هو الآخر ، ولكن الحوار الذى دار بيننا آنذاك كان فريداً ، فسجلته عندما عدت فى مفكرتى . وكنت بعد الترحيب والسلامات قد عرضت

عليه مشكلة الطلاب فانتحى بى جانباً - بالقرب من النافذة - وقال لى بصوت هامس إنه معار إلى السعودية و"كلام فى شرك .. لا أريد الرجوع ا" فابتسمت وقلت له لا بأس إذن من التدريس بهذه الطريقة ، فقال بنبرات عميقة ، وَضَعَ فيها كل ما يستطيعه من تأكيد "مرتب شهر يساوى مرتب سنة" وابتسمت مؤكداً استيعابى لما قال وحاولت محاولة أخيرة "يعنى أستمر ؟" وكان رده حاسماً "يعنى انت أيضاً لابد أن تسافر ا" ورفعت يدى بالتحية وافترقتنا .

وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع هو يوم أكاديمية الفنون . وكنت أقضيه كاملاً من الصباح إلى المساء مع طلاب المعهد العالى للفنون المسرحية صباحاً ، وطلاب المعهد العالى للنقد الفنى مساءً ، وكان التدريس باللغة العربية ، فكان يستلزم قدرًا كبيراً من الترجمة ، وهنا أيضاً قابلت بعض زملائي السابقين ، ولقد تحول بعضهم إلى أصدقاء ، بل إلى بعض أقرب الأصدقاء إلى قلبى حتى اليوم ، وكان التناقض بين الأزهر والأكاديمية لا يقل عن التناقض بين العالم الذى خلفته فى انجلترا والعالم الذى عدت إليه فى مصر ، فطلاب الأكاديمية يعرفون منذ البداية أو يراهنون على أن يصبحوا نجومًا لامعة فى سماء الفن فى مصر ، فهم يدخلون باب الشهرة والمجد ، والمال فيما بعد ، ولذلك فهم فخورون بمواهبهم ، ويمارسون ما يشبه التمثيل فى حياتهم العادية ، وأحياناً ما يتقمص بعضهم شخصيات مسرحية شهيرة ، أو يحاكون بعض تلك الشخصيات فى حياتهم ، خصوصاً فى قسم التمثيل ، أما فى أقسام المعهد الأخرى - مثل قسم النقد (الدراما) والديكور وما إلى ذلك ، فهم أكثر تواضعاً وأكثر حذباً على الدرس .

ولم تمض أيام حتى توثقت علاقتى بزميل قديم سأطلق عليه اسم (حسن) ، أصبح نافذتى التى أطلق منها على عالم الفن المسرحى فى مصر ، فهو مخرج ناب ، هادئ الطبع ، يميل إلى الهشاشة والبشاشة ، ويقول إن ابتعاده عن مصر فترة ما قد أفاده فى ضمان النجاة مما كان يطلق عليه "صداع ما بين الحريين" ، وكان يقصد بذلك التمزق الذى حدث فى الحياة المسرحية ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، فإذا كنت أنا أتصور أنها فترة حرب متصلة ، فهو يقول إنها كانت فترة انهيار فى 'المعنى' أى فى الدلالة التى لابد منها حتى يصبح الفن فناً ، ولم يكن 'حسن' قد ابتعد كثيراً عن مصر ، واعتقد أنه لم يمكث فى الخارج إلا سنوات معدودة قضى بعضها فى أمريكا والبعض الآخر فى فرنسا ، وكان يزور مصر أثناءها حتى يبقى على الصلات القائمة بينه وبين العاملين فى المسرح ، وكان يحاول مثلى أن يتجنب

استخدام الكلمات الأجنبية فى حديثه ، وهى كلمات من اللغتين الانجليزية والفرنسية أساساً ، وإن كان يضيف إليها شذرات من الإيطالية . كما تعرفت فى المعهد العالى للنقد الفنى على بعض الطلاب النابهين الذين حصلوا بعد ذلك على الدكتوراة وأذكر من بينهم زين نصار وأحمد العشرى ومحمود على فهمى وفاطمة يوسف ، والسورى عاصم كلاليب الذى أرسل لى بعد فترة خطاباً من دمشق يقول لى إن الناس غاضبة من نقدى للشاعر عمر أبى ريشة ، فهو عندهم فوق النقد ، وكان الشاعر قد رحل آنذاك إلى المملكة العربية السعودية واستقر به المقام فيها حتى توفى منذ أعوام قليلة .

وذاث يوم من أيام أكتوبر جاءنى من يقول إن رئيس الجامعة الدكتور صوفى أبو طالب يريدنى أن أذهب إلى الفيوم للتدريس فى كلية التربية التى ستفتح أبوابها اعتباراً من أول نوفمبر. لم أكن أستطيع الرفض ، فأنا لم أعيّن محاضراً بعد ، لأن الإعلان الموعود لم يظهر فى الصحف ، ومصيرى فى العمل معلق برضاء الرؤساء . وكانت الجامعة قد أعدت للأساتذة أتوبيساً صغيراً ينقلهم إلى الفيوم كل يوم ويعود بهم فى المساء ، فاخترت يوم الخميس ، لأنه اليوم الذى لا أعمل فيه فى أى مكان ، وبدأت أذهب إلى الفيوم مع مجموعة من الأساتذة فى مختلف التخصصات مثل الكيمياء والفيزياء واللغة العربية ، وما زالت ذكريات عملى الأولى فى الفيوم حية نابضة فى ذهنى .

كان ذلك فى يوم من أيام نوفمبر ، وكان الجو بارداً على غير عادته ؛ فارتديت قلنسوتى ومعطفى مثلما كنت أفعل فى إنجلترا وخرجت إلى الجامعة فى الساعة ، وتحركت الحافلة بعد نصف ساعة فوصلنا إلى الكلية فى الفيوم فى التاسعة ، فدخلت قاعة الدرس - وهى فصل مثل فصول المدارس العادية ، وما إن خلعت القلنسوة والمعطف وبدأت الحديث بالانجليزية ، حتى سمعت ضحكاً مكتوماً فالتفتُ إلى مصدره فلم أعثر على وجه ضاحك ، فعدت إلى الحديث بالانجليزية فعاد الضحك ، فتظاهرت بأننى لم أسمع حتى علت الضحكات فالتفتُ فجأة لأرى بيومى - وهو طالب يجلس فى الصف الأمامى - مستغرقاً فى نوبة من الضحك كنت أراها غريبة ولا مبرر لها ، فسألته (بعد أن صمتُ قليلاً وتوقف هو عن الضحك) بالانجليزية عن سبب ضحكك - وما كدت أنتهى من السؤال حتى عاد إلى الضحك ، وكان هذه المرة هسيئيراً ، فسألته بعض الطلبة إن كان يعانى من مرض فأنكر الجميع - فطلبت منه الخروج فخرج ، وبعد برهة عاد متجهماً كأنما ليؤكد لى أنه لا يضحك ، وجلس

فى مكانه ، لكننى ما إن عدت للحديث بالانجليزية حتى انفجر ضاحكاً من جديد إلى الحد الذى جعل بعض زملائه يحملونه إلى الخارج حيث استمر يضحك وصوت ضحكاته يأتينى من خلال الباب المغلق ، فخرجت أستفسر عما حدث له لكنه كان قد اختفى .

وبعد الدرس جاءنى بيومى ليعتذر ومعه مدرس من أهل البلدة أوضح لى أن بيومى لم يسمع اللغة الانجليزية فى حياته ، وأنه لم يكن يتصور أن هناك من البشر من يستطيعون أن يتكلموا هذا الكلام غير المفهوم ، وكانت الكلمات الإنجليزية تسبب له صدمات هستيرية ، ومن ثم طلب الإذن بالتحويل إلى قسم آخر يكون التدريس فيه بالعربية ، ووافقت طبعاً ، وظلت مرفت إحدى طالباتى التى تخرجت بامتياز وعملت معيدة بالكلية تطلعنى على أخبار بيومى حتى تخرج وعمل مدرساً ولم تعد تتنابه نوبات الضحك حين يسمع الانجليزية .

وذات يوم اتصل بى صاحب العمارة التى استأجرت الشقة فيها وقال إنه قد باعها للحاج يوسف عفيفى ويريد تصفية حسابه مع المستأجرين ، فذهبت أنا وأخى مصطفى إليه ومعنا العقد ، فقال إنه كان قد تسلم ٦٠٠ جنيه بمثابة مقدم إيجار ، ولكنه لن يتقاضى الإيجار الآن، ولذلك فنحن أحق بما تبقى منه ، فدفع لى ٤٥٠ جنيهها وأمضيت ورقة ما وانصرفنا . كانت النقود هدية من السماء ، إذ سرعان ما وصلنى تلفراف من الاسكندرية يقول لى إن الأثاث الذى كنت قد شحنته قد وصل ، وعلى أن أذهب لاستلامه . وفعلاً سافرت أنا وأخى مصطفى حيث قابلنا 'المخلص' وكان يدعى بركة ، وكان من أصدقاء العائلة لأنه كان يعمل لحساب خالى عبد الحليم بدر الدين قبل أن تستولى الحكومة على شركته ، وكان يعرف أقاربى وكثيراً ما كان يقول إننى أشبه أحد أفراد أسرته الكبيرة وهو فاروق الجارم ، وكنت قد تعلمت من خبرتى فى المطار ألا أتعجل الأمور ، فتركته يجمع التوقيعات ، حتى كاد كل شيء أن ينتهى حين وصلنا إلى الموظف المسئول عن الإعفاء الجمركى الذى قال لى "إن من حقه الإعفاء فى حدود ٢٠٠ جنيه باعتبارك عضو بعثة عائد" ، ولما نظرت إليه آملاً أن يفعل ذلك قال لى "ولكن عليك أن تثبت أنك لم تتمتع بذلك الإعفاء قبل الآن" ، فقلت له ألا يكفى جواز السفر؟ فقال لا بل عليك إحضار ورقة من إدارة البعثات فى القاهرة . ففعلت ذلك ، وقام الكشف بفحص جميع الأمتعة وتحديد الرسوم المستحقة على كل قطعة حتى أتى على الكتب التى كانت تمثل معظم المتاع - ٢٨ صندوقاً - فقال إننا نريد الآن موافقة الرقابة . فقلت له إذن أحضر الرقيب ، ولكن الرقيب لا يعرف الانجليزية ! ولم أعرف ماذا أقول سوى أن أؤكد له أنها كتب

أدبية محضنة من المتداولة فى مصر ، فبدا عليه الاقتناع ثم قال إنها مسئولية كبيرة وأجهزة الأمن يقظة ، وهو قد يوقع على الورقة بشرط موافقة مأمور الجمرك والمراقب العام !

وغامت الدنيا فى عيني ، إذ كنت قضيت أسبوعاً كاملاً فى التردد على الجمرك ما بين القاهرة والاسكندرية ، وكان معنى الرحلات اليومية الانقطاع عن التدريس ، إلى جانب التعب الجسدى والنفسى بطبيعة الحال ، وكرهت أن أعود هذه المرة خاوى الوفاض ، فأسلمت أمرى إلى الله ، وتطلعت إلى السماء وأنا أقول إن هذا قدرى وما يريد الله سبحانه وتعالى لابد أن ينفذ ، وفجأة هطل المطر غزيراً فأسرعنا نحتفى منه ، ولاحظت أن بالات ورق الصحف كانت ملقاة على الرصيف دون غطاء ، وهى بكرات ضخمة تزن عشرات الأطنان، وبعد دقائق معدودة صفت السماء ، فعدنا إلى موقع المتاع ، وإذا بصوت جهورى ينادى علىّ ، ونظرت فإذا الصوت قادم من الطابق الأول (فوق الأرضى) لمبنى الجمرك . وتلفتُ مستفسراً فقيل لى إنه المراقب العام . واتجهت إليه أنا وأخى مصطفى فقام مرحباً وقال هل أنت محمد عنانى مؤلف مسرحية البر الغربى ؟ فأجبت بالإيجاب ، فتهلل وجهه ، وقال أنا كامل حسنى - الشاعر الشعبى فى الاسكندرية ومن عشاق مجلة المسرح ورشاد رشدى ! وانطلقنا نتحدث عن الأدب كأننا نسينا موضوع الرقابة ، ثم التفتَ إلى المخلص وسأله عن المشكلة ، ولم تمض دقائق حتى كانت جميع الأوراق قد وُقِعَتْ ، ودفعت الجمرك المقرر ولم يكن مقداراً كبيراً لأن الكتب معفاة ، وحصلت على ورقة الإفراج وخرجنا نبحث عن سيارة شحن تنقل الصندوقين الخشبيين إلى القاهرة . ولم يصدق المخلص ما حدث ، وكان الناس من حوله يتعجبون ، وقال أحدهم إنها معجزة ، وأعطينا العنوان للرئيس ”جيد“ سائق الشاحنة وتواعدنا على اللقاء فى القاهرة ، وكان الاتفاق أن يتصل بى تليفونيا حالما يصل إلى مشارف القاهرة ، وأن أقابله عند كوبرى الزمالك القديم بعد عبوره منطقة إمبابة ، وافترقنا ، وقررت أنا وأخى أن نمرّ على خالتي الحاجة لطيفة بدر الدين - فى عمارات الأوقاف بالشاطبي - لنسلم عليها قبل الرحيل. وقالت لى خالتي دون انفعال : هل مررت بأزمة قبل أن تمطر السماء ؟ لقد شعرت أنك فى ضيق فصليت ركعتين ودعوت الله لك ! وقلت فى نفسى هذا والله هو الدعاء المستجاب ! وفى القاهرة رن التليفون فى السابعة والنصف مساءً ، وجاء صوت الرئيس جيد ، فانطلقنا فى تاكسى إلى حيث كان ينتظرنا ، وسارت الشاحنة خلفنا حتى وصلنا ، فاستقبلنا البواب النوبى عوض ، وكان يشبه تمثالاً رائعاً من الأبنوس ، وحمل الرجال قطع المتاع إلى

الطابق الرابع ، وأخذ كل منهم جنيهين ، ثم انصرفوا ، وقال لى عوض إن المالك الجديد للعمارة قرر التخلص منه لمرضه ، وأنه سيأتى ببيواب جديد . ولم أدر ما أقول . ووضع عوض الأخشاب التى صنع الصندوق منها فى الجراج . وانصرفنا . وفى الصباح أتيت بنجار له دُكان بجوار منزلنا بالمعجزة فوافق على شراء الأخشاب ، واستعمالها فى صناعة معدات مطبخ للشقة ، فحملها ومضى ، وكان العمال ما يزالون يعملون فى طلاء الشقة .

وفى ديسمبر ظهر الإعلان عن درجة مدرس (تخصص شعر) فى القسم ، وكنت المتقدم الوحيد ، وتمت إجراءات التعيين ، لولا أن الجامعة قد استحدثت دورة لتدريب الأساتذة على التدريس ، ولكن مدام وجيدة رئيسة شئون العاملين قررت أن الشرط لا ينطبق علىّ ، فتسلمت العمل ، وارتفع مرتبى إلى ستين جنيهاً فى الشهر ، فشعرت بالاطمئنان وبت قرير العين كما يقولون !



وفى ديسمبر اكتمل طلاء الشقة ، وانتقلت للعيش فيها ، وكان من عادتى أن أذهب لزيارة الدكتور رشاد رشادى فى منزله ، أو فى مجلة الجديد التى كان مقرها فى غرفة من شقة مجلة الإذاعة ، وكانت بها غرفة أخرى اتخذت مقراً لمجلة الكاتب قابلت فيها صلاح عبد الصبور - الشاعر - لأول مرة بعد عودتى - كما قابلت ثروت أباظة الذى كان يعمل رئيساً لتحرير مجلة الإذاعة ، واتفق معى على ترجمة كتاب ذئب الأحراش (عن الانجليزية) للكاتب الألمانى هيرمان هسه ، وقال لى إنه سيدفع لى مبلغاً محترماً هو ١٥٠ جنيهاً ، ولكنى كنت كلما بدأت الترجمة - والواقع أننى قطعت فيها شوطاً لا بأس به - توقفت بسبب صعوبة الكتابة بالفصحى ، وإحساسى بأن ما أكتبه لن يعتبر أدباً رفيعاً . وكان العمل بالتدريس يشغل وقتى كله ، وأذكر أن الجامعة الأمريكية عرضت علىّ المشاركة فى التدريس وحددت الساعات ظهراً يومى الاثنين والأربعاء ، وحاولت تغيير المواعيد فرفض المسئولون فاعتذرت ، وكان وقتى كله منصّباً على القراءة وإعداد النقاط التى سأحدث فيها فى المحاضرات ، وكنت ألتقى فى كل يوم جمعة مع صديقى أحمد السودة - ولا أزال أفعل ذلك حتى الآن - ومع ماهر

البطوطى - حتى سافر إلى نيويورك ، وكان هذا اللقاء الأسبوعى فرصة للتأمل ، وكنا نتجه سيراً على الأقدام إلى وسط البلد ، ونحتسى الشاي فى جروبى عدلى ، ونتجول فى المكتبات ، أى أماكن بيع الكتب) ، وكانت القاهرة كمهدى بها ، جميلة هادئة موحية .

وقابلت صديقى القديم نبيل راغب (الدكتور) فى منزل رشاد رشدى ذات يوم ، وعرفت أنه يعمل للانتهاء من رسالة الدكتوراه ، وكان يقدم بعض ما يكتبه منها إلى المشرف (رشدى) لقراءته ، وعرفت أنه (أى نبيل) يعمل فى السكرتارية الخاصة للرئيس السادات ، وأن رشدى يتمنى أن يقابل الرئيس لأمر ما ، وقابلت فى منزل رشدى شخصاً قصيراً أسمر اللون من كفر الشيخ يدعى سيد الباز ، عيناه خضراوان ، وكان أحياناً يأتى بوالده معه ، وكان يوحى للحاضرين بأنه أخو أسامة الباز مستشار نائب الرئيس (حسنى مبارك) للشئون السياسية (ومدير مكتبه) والغريب أن سيد هذا كان له أخ يدعى أسامة فعلاً ، ولكنه من أسرة مختلفة ، وقد حدث فى الثمانينيات أن قبض عليه بتهمة النصب والاحتيال إذ باع بعض أراضى المحافظة للأهالى وهى مملوكة للدولة .

وفى يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٧٥ نشرت الصحف نبأ يقول : استقبل الرئيس السادات الدكتور رشاد رشدى مدير أكاديمية الفنون ، ومع الخبر صورة للقاء . أى إن اللقاء حدث يوم الثلاثاء ٢٠ ديسمبر ، وكان يوم الأربعاء هو اليوم الذى يأتى فيه رشاد رشدى إلى الكلية للتدريس ، فجلست معه فى غرفته ، وكان يبدو عليه القلق رغم الخبر المثير ، وعندما سأَلْتُهُ الدكتورة فاطمة موسى - رئيسة القسم - عما تحدث فيه مع الرئيس رفض الإفصاح بشئ . وقال لى إن الليلة هى ليلة رأس السنة ، وثريا (زوجته) قد أعدت ديكاً رومياً ، "وانت معزوم !" وفعلأً ذهبت فى المساء ، فمر علينا فى الشقة أقاربه الذين ذكرت بعضهم من قبل ، وقال له توفيق عبده إسماعيل ، زوج عفاف ابنة أخت رشاد رشدى ، إن الدكتور عبد القادر حاتم سعيد بالخبر ويقول إن رشدى سيصبح وزيراً . وانصرف الجميع لحضور حفل رأس السنة فى أماكن أخرى ، ولم يمكث سوى أحمد بهجت ، وعندما جئ بالديك الرومى أبدى اعتراضه على طهوه قائلاً إنه ، على تمزق أوصاله ، لا يزال صُلْب الأنسجة ! ومكثنا نتحدث فى كل شئ ما عدا موضوع مقابلة الرئيس ، حتى حل العام الجديد ، وبدا على الجميع الإرهاق فانصرفوا وانصرف .

وجاءنى المخرج (حسن) ذات يوم فى الأكاديمية، وجلس معى على سلم معهد الفنون المسرحية وجعل يقص علىّ ما حدث للشاعر (والمخرج) نجيب سرور، فقال إنه أصيب بلوثة، وأخذ يتصعلك ويلعب دور الشحاذ الفقير فى الحياة ، وكنت قرأت له شعراً أعجبنى فقلت له إنه شاعر موهوب فقال إن النقلة رهيبة بين الفن والحياة ، والفنان مفتون بنفسه أبداً، يبهره ما يخرج من ذاته من تصاوير قد تكون لفضية أو بصرية ، وقد تكتمل فى الدراما وقد لا تكتمل، ثم سألتنى عما أكتب فقصصت عليه ما أعانيه من إرهاق فى التدريس فى كليات متعددة، وما يتيح لى ذلك من إلمام بخبايا مصر التى ابتعدت عنها طويلاً، فسألتنى عن النساء فضحكت وقلت له إننى متزوج وزوجتى فى السعودية، وإننى الآن راهب، فانهط يقهقه حتى لفت الأنظار إليه، ثم همس لى. لابد أن نخرج معاً يوماً ما حتى أطلعك على مصر التى لا تعرفها! ورحبت ولكننى قلت إننى لم أتسلم السيارة التى اشتريتها أنا وزوجتى من شركة النصر- وهى فيات مصرية ١٢٨-.

فقال سأصحبك معى فى سيارتى وأفضى إليك بأسرار الدنيا!

وعندما حلت عطلة منتصف العام أُرْسِلَتْ نهاد لى دعوة لزيارة جدة مع سارة ابنتنا فوجدت أن علىّ أن أستخرج جواز سفر جديد ، فأعددت الأوراق المطلوبة واستخرجت جواز السفر دون أى صعوبة وأنا بين مصدق ومكذب ، ولكننى وجدت أن الفتاة التى تكتب الأسماء بالانجليزية (أى بالحروف اللاتينية) كتبت اسمى مبدوءاً بحرف A بدلاً من E ، ولم أكتث فلم أكن أتصور أن ذلك مهم ، أو أنه سيتسبب فى أية مشكلات فلم أكن أنتوى العودة إلى أوروبا ، ولم تكن بى أى حاجة إلى استعمال الاسم بصورته الصحيحة وفقاً للنطق ، أو هكذا كنت أتصور! واصطحبت سارة طفلتنا وذهبنا إلى جدة حيث رحب بنا الجميع ، وقضينا أياماً ممتعة ، وكانت نهاد قد دعت أختها عزة للزيارة ، وما لبثت عزة أن وجدت عملاً فى شركة 'إليتاليا' للطيران ، حيث تعرفت على شاب باكستانى دمث الأخلاق يدعى شبير شنوى ، وما لبثا أن تزوجا بعد أشهر معدودة (فى عام ١٩٧٦) ، فاستقر بها المقام فى جدة .

وأنا أذكر الآن هذه التفاصيل لأن تلك الرحلة كانت بداية رحلات لم تتوقف حتى الآن إلى بلدان الله الواسعة ، ولأنها كانت تمثل بداية نسق متصل ، فكانما كان الانفتاح الذى يدعو إليه النظام السياسى قد أصبح نمطاً عاماً من السفر والترحال ، وهو ما أصبح سائداً إلى يومنا هذا، وكان له من الآثار ما لم أكن أتوقع وأنا أحزم حقائبى حتى أعود إلى مصر قبل شهور معدودة!

وعندما عدنا من جدة (أنا وسارة) تسلمت السيارة ، وهى صفراء ”فأقع لونها تسر الناظرين“ ، وبدأت أستمتع بحرية الحركة ، فكنت أذهب إلى مبنى جريدة الأهرام ، وأصعد لمقابلة أحمد بهجت الذى أصبح مسئولاً عن الصفحة الأدبية فأعطيه مقالات قصيرة جداً ، وكان ينشرها فيقرأها الناس ويعرفون أنني عدت من الخارج ، ومنه سمعت لأول مرة عن جمال الفيطنانى إذ قال فى غضون حديث مع أحد الزملاء ”وهل يفهم أحد فى الأدب مثل جمال الفيطنانى ؟“ وكنت أخرج إلى مسارح صباى فى منطقة الأهرام أو فى أعماق الجيزة فأتوقف ساعات لتأمل الزمن الذى كنت أراه فى كل بقعة ، وذهبت ذات مرة إلى مسرح الجمهورية بعابدين حيث كانت فرقة المسرح الحديث تقدم مسرحية من تأليف الدكتور مصطفى محمود اسمها ”الشيطان يسكن فى بيتنا“ وحاولت التركيز فى المسرحية حتى الفصل الثانى ، ولكننى كنت ضيق الصدر فلا الفكاهات تضحكنى ولا الموضوع يشدنى ، وكيف يشدنى نصٌ يقول إن الشيطان هو المرأة ؟ ويصور الصراع بين الخير والشر فى صورة اجتتاب النساء فى مقابل الوقوع فى غرامهن ، وكان الممثلون يتسمون بقدر يصعب وصفه من ثقل الظل ، حتى انصرف الجمهور - ووجدت نفسى وحيداً فى الصالة فى الفصل الثالث ، فتسللت برفق حتى خرجت .

وفى الصباح ، كنا فى يوم الثلاثاء ١٦ مارس (موعد دروسى فى أكاديمية الفنون) قابلت المخرج حسن على باب معهد الفنون المسرحية ؛ وكان يحمل فى يده ملفاً أزرق ، وتبدو عليه أمارات الاكتئاب ، ولما طلبت منه تفسيراً لتجهمه دفع إلى الملف وهو يقول فى نبرات مريرة ”اتفرج يا سيدى !“ وفتحت الملف فوجدت نصاً مسرحياً من تأليف سعد الدين وهبة بعنوان الأستاذ ، وعندما بدأت القراءة أوقفنى وقال ”تمهل ! لقد رفضته الرقابة ! ولا أمل فى الموافقة أبداً !“ وقلت له ”لا تبتئس فسوف يتغير كل ذلك ، فالانفلاق قد انتهى ! وكما سمعت ألفى السادات معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى بالأمس !“ (وكان الإلقاء فى يوم ١٤ مارس ١٩٧٦) فضحك حسن وقال : ”لن يتغير شيء !“ وسرت معه حتى القاعة التى كنت سألتقى فيها بالطلاب ، وكنت أتصور أنه يريد إخراج المسرحية ولكن الرقابة اعترضت ، ولكننى فهمت من حديثه أنه معترض على مبدأ الرفض وحسب .

وعندما انتهيت من محاضرتى العامة ، فى نحو الحادية عشرة ، خرجت إلى البهو الذى يتوسط المعهد، فوجدت حشداً واقفاً بجوا السلم، وعرفت من بينهم حسين مهران الذى كان

أميناً عاماً للأكاديمية، وأحمد الفخرانى الذى كان مستشاراً قانونياً ، والمقدم عاصم عباس الذى كان ضابط الأمن ، وآخرين من العاملين فى الطابق الأول (مكتب المدير). ولم أسأل عن سبب الزحام ولم أكتثر له، بل اتجهت إلى السلم الموصل إلى غرفة رشاد رشدى وهناك قيل لى إنه لن يأتى - وهمس لى عاصم عباس قائلاً "إن رئيس الجمهورية قد استدعاه اليوم". وفهمت بعد ذلك من الهمسات وشذرات الحوار أن هؤلاء كانوا يريدون شيئاً ما من رشاد رشدى وخاب ظنهم ، وعدت أدراجى إلى الممر الموصل إلى قاعات الدرس فرأيت أو سمعت من ينادينى، وكان حسن (المخرج) جالساً فى غرفة الأساتذة حيث دفتر التوقيع بالحضور، فذهبت إليه وقال لى بلهجة قاطعة: "أنا أدعوك إلى الغداء معى!" ولما رأى ترددى قال: "لن أقبل الرفض وهناك مفاجأة!" وكأننى كنت مُخَدَّرًا استدريت وخرجت معه دون أن نتبادل أى حديث.

تركت سيارتى فى فناء الأكاديمية ، وركبت إلى جوار حسن فى سيارته البيجو وانطلقنا غرباً أى باتجاه أهرام الجيزة ، وكان الشارع ما يزال بهيجاً يذكرنى بالأيام التى كنت أتردد فيها على المقاهى والمطاعم المنتشرة فى سفح الهضبة ، وكان الجو صحواً والنسيم ما زال لطيفاً لم تفسده رياح الخماسين ، وما لبث حسن أن صعد بالسيارة الهضبة فأوقفها خارج مقهى يسمى "كازينو منظر الأهرام" وكنت قد اعتدت المعنى الإنجليزى لكلمة كازينو (أى مكان لعب القمار) فقلت فى نفسى ليتهم يغيرون الكلمة الانجليزية حتى لا يسئ السياح فهم الدلالة المصرية البريئة ! وجلسنا فى مقاعد نطل منها على القاهرة التى بدت مثل العروس فى أبهى حللها ، وطلب حسن الشاى ، ثم بدأ يقص على طرفاً من مغامراته الغرامية ، ولم أجد الوقت مناسباً لذلك ، فأبدت تمللاً لم يلبث أن لاحظته فقال "كل شيء له سبب!" وضحك . وأسرعت أعتذر عما بدر منى من سام ، على الرغم من محاولتى إخفاءه ، فقال : "إن من أحكى لك عنها ليست نكرة ! وأنا أحكى لك ما أحكى لأنها حكى لى ما يهمك !" وكان الطعام قد وصل فحوّلت اهتمامى إليه وأنا اتظاهر بالاهتمام ، فلم أكن أريد أن أغضبه ، فهو صديق عزيز حقاً ، بل كان من القلائل الذين تواصلت علاقتى بهم منذ الستينيات ، حتى انتهى إلى القول بأن لها صديقة تريد "خدمة" معينة من جهة حكومية ، وتعرف صلتى برشاد رشدى وكيف يمكن الاستعانة به (من باب الوساطة) وعجبت فى نفسى لذلك اللف والدوران كله ، فإن كان الأمر ينحصر فى "الواسطة" فلماذا لم يفصح عنها 'حسن' مباشرة ؟ وأخرجت من جيبى مفكرتى الصغيرة ، ودونت فيها اسم طالبة "الخدمة" ونوع الخدمة ، وبعد الأحاديث

العابرة التي لم أكن أرى لها وجهة محددة ، نهضت وأنا أنظر فى ساعة يدى ، وفهم حسن مقصدى فضحك وقال انتظر لحظة . والتفت فى حركة مسرحية إلى مائدة مجاورة لنا تجلس إليها امرأتان كنت لاحظت وجودهما قبل فترة ولكننى لم أتعرف على أيهما ، وما لبثت إحداهما أن ضحكت وقالت بلهجة مسرحية أيضاً ”لحظة واحدة لا“ والتفت أنا إلى حيث جلسنا وأنعمت النظر هذه المرة وخيل إلى أن وجه إحداهما مألوف ، ورددت على ابتسامتهما بابتسامة ، فرد التحية واجب ، وفى ’لحظة‘ خاطفة وجدتهما يشاركاننا المجلس ا وقال ’حسن‘ بسرعة : أنت تعرف ’فلانة‘ النجمة المشهورة ا وغمغمت كذباً ”طبعاً طبعاً“ وأنا أحاول جاهداً أن أذكر لها اسماً ، واستمر حسن يقول ’وأما هذه فهي ’فلانة‘ المعيدة فى معهد البالية ا‘ وكأنما كان ينتظر منى التعبير عن الدهشة فتوقف - مثل المسرحيين - ليتيح لى ذلك التعبير ، ولكننى لم أقل إلا ’أهلا وسهلا ا‘ وإن كانت دهشتى الحقيقية هى ذلك اللقاء المسرحى الغريب ا وخلعت الأخيرة نظارتها السوداء كأنما لتساعدنى على التعرف عليها ، وفعلاً تذكرت أنها إحدى طالباتى فى دروس الدراما بمعهد الفنون المسرحية لا بمعهد البالية ، فلم أكن أعمل فيه ، فبدأت أشكك فى الرواية .

وبعد تبادل الأحاديث ”الاجتماعية“ التى امتدت حتى أتى الجرسون ودفع ’حسن‘ تكاليف الوجبة ، قمنا وتبادلنا التحية من جديد واتجهنا إلى سيارته .

كانت الحادثة غريبة ، وتوقع أن يقص ’حسن‘ على سر ذلك اللقاء الذى كان فى رأبى مُدَبَّرًا ، ولكنه التزم الصمت طوال الطريق ، حتى وصلنا إلى الأكاديمية ، ، وكنت أتحرق شوقاً إلى معرفة ”القصة“ فسألت ”حسن“ سؤالاً مباشراً فضحك وقال ”لا تحمّل الموضوع أكثر مما يحتمل .. وسوف تعرف التفاصيل فى حينها ا“ وتركته وعدت إلى قاعة الدرس ، وأنا أقلب الأمر على وجوهه ، حتى انتهى اليوم ، وعدت إلى المنزل .

وفى اليوم التالى - يوم الأربعاء - ذهبت إلى الكلية وقابلت رشاد رشدى وجلسنا نتسامر كالعادة ، وفجأة قال لى أريدك أن تأخذنى بالسيارة إلى الأكاديمية ، وكان فى صوته توتر لا يخفى على من يعرفه ، وعندما وصلنا دخلت معه المكتب ، فأمر السكرتيرة ”كريمة“ أن تمنع الزوار ، وقد رقيت بعد ذلك فأصبحت تشغل منصب المسجل فى المعهد العالى للنقد الفنى حالياً ، وقال لى فى نبرات جادة وقد ارتسمت على وجهه ملامح جهمة قاتمة تتم عن قلق شديد لم ينجح فى إخفائه : هذه صفحات أريدك أن تترجمها إلى الانجليزية - ترجم قدر ما

تستطيع اليوم ، وائتني بها فى الثامنة مساءً . وتسلمت المظروف من يده ، وفتخته فوجدت الصفحة قد امتلأت بالكلمات حتى اكتظت (لا أقل من ٥٠٠ كلمة عربية) فقلت له هذا يستغرق وقتاً طويلاً - فقال: أنت لها ! فقلت وأنا مهموم .. فكم من الوقت أحتاج إليه ؟

وما إن دخلت غرفة المكتب فى منزلى حتى بدأت العمل ، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة عصرًا ، ولم أتوقف عن الترجمة حتى الساعة تقريبًا ، ولم أترجم فى ذلك الوقت كله إلا نحو ثلاث صفحات ، وكنت قد أعددت صورتين للنص - الأولى حرفية والثانية "بتصرف" أو ترجمة حرة أو ما نسميه بالترجمة الإبداعية ، إذ استعنت فيها بكل ذخيرتى اللغوية وتعمدت فيها ما كان شكرى عياد ينصحنى بالابتعاد عنه وما كان يسميه "التأنق فى الأسلوب" ، وخرجت بالسيارة إلى منزل رشدى . ووجدته يجلس وحده فى غرفة المكتب ، على أريكة فى زاوية منها ، صامتًا ، ولم أكد أجلس حتى قال لى: "اقرأ ! " وقلت له: "النص الحرفى أم الحر؟" فقال "بل الحر ! " وجعلت أقرأ بلهجتى البريطانية وهو يتابع ما أقول فى النص العربى، حتى انتهيت وساد الصمت لثوان خلتها دهرًا وأنا أنتظر التعليق ودقات قلبى تسرع لاهثة وإذا بصوت أجنبى يقول بلهجة أمريكية (شمالية) ما يفيد الاستحسان ، أو ما معناه هذا حسن أو لا بأس ! والتفتُ فإذا بجوار الباب شخص قصير أصلع الرأس ، يمسك فى يده قبعة، وقدمنى رشدى إليه، وعرفنى به قائلاً: هذا 'مايكل سيمون - بيسى' (Michael Simon - Bessie) - - وأردف الضيف قائلاً: لم أشأ أن أقاطعكما ولكننى سأذهب الآن إلى المطار!

(I have a plane to catch)

وقلت فى نفسى إن الحياة المسرحية تفرض نفسها على بمستويات مختلفة ! ما هذا الغموض فى أحداث الأمس واليوم ؟ وانصرف الضيف فبدأ أن رشاد رشدى قد تنفس الصعداء، وجاء بعد توديعه لدى الباب إلى ببسمة عريضة تتناقض كل التناقض مع مظهر القلق الذى كان يكتسبه فى الظهيرة .

وبدأ رشدى يقول إنه أقنع الرئيس السادات بكتابة سيرة حياته بالانجليزية ، وكان الرئيس قد أعجبه كتاب الدكتور نبيل راغب السادات رائدًا للتأصيل الفكرى (١٩٧٥) فعميته لديه فى السكرتارية الخاصة ، وكان يملئ ذكرياته على شريط مسجل ، أو شرائط كثيرة فى الواقع ، علّها تصبح مادة لكتابة تلك السيرة باللغة العربية ، وكلف أحد كبار الكتاب وهو إحسان عبد القدوس أولاً بإعداد نموذج مستمد من تلك الذكريات ، التى كان يملئها بحضور

نبيل راغب ، ويبدو أنها لم تعجبه ، ثم كلف أنيس منصور بكتابتها ، وكان يرتاح إليه ، وأنيس ذو أسلوب ساحر جذاب ، وفهمت من حديث الدكتور رشاد رشدى أنه كان يتابع ذلك كله ويتحين الفرصة لإقناع السادات بكتابة الكتاب بالانجليزية لا بالعربية ، ومن ثم حصل على الشرائط واتفق مع الرئيس على إملأء المزيد منها ، وكان ذلك سر مقابله له يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٧٥ ، وفى الشهور الأولى من ذلك العام (١٩٧٦) كتب رشدى الفصل الأول بالعربية ، وحاول الاستعانة ببعض أساتذة اللغة الانجليزية لدينا لترجمته ، ولكن الناشر الأمريكى لم يستسغ الترجمة ، وكان أن استعان بى ، ولم يشأ أن يكون وحده الحكم على الترجمة فدعا الناشر الأمريكى للحضور فى الثامنة ، وعندما وصل ووجدنا 'نعمل' قرر أن يستمع بنفسه إلى الترجمة - فى حركة مسرحية عجيبة - بررها بأنه لم يشأ مقاطعتنا ، ولكن الحقيقة هى أنه لم يكن يريد إحراج أحد إذا رفض الترجمة ، ويبدو أن الناشر قد اقتنع بالنص الذى سمعه وأبدى موافقته ، وانصرف سعيداً ، فكان ذلك مصدر سعادة باللغة لرشاد رشدى .

ومرت أيام الربيع المصرى سراعاً حتى تفسح للصيف قيظه نهاراً ونسائمه الجميلة ليلاً ، وعاد الأحباب من السعودية ، فعادت نهاد لتفاجأ بمرض والدها ، وجعلنا نتردد على الأطباء الذين قطعوا بأنه أصيب بالمرض اللعين ، وكانت نهاد قد عانت الأمرين من الوحدة والعمل الشاق فى السعودية ، فذهبنا فى الصيف لقضاء أيام معدودة فى الاسكندرية - فى أغسطس - وعندما عدنا وما كدنا نستريح من وعثاء الرحلة حتى وَجَدْتُ فى انتظارى طلباً من وزارة الخارجية للذهاب فوراً لمقابلة السفير صلاح أبو جبل - رئيس إدارة المؤتمرات . وعندما قابلته قال إن على أن أسافر فوراً إلى كولومبو (سريلانكا) للترجمة فى مؤتمر قمة عدم الانحياز . وعندما تساءلت عن الإجراءات قال لا تخش شيئاً - هذه السكرتيرة ستسافر معك ، وسرعان ما استخرج لى جواز سفر لمهمة ، وتذكرة الطائرة ، وفى غضون ساعات معدودة كنا فى الطائرة ! كنت مذهولاً من السرعة التى انتهت بها الإجراءات ، وكنت ما بين مصدق ومكذب حين وصلنا فى مساء اليوم التالى (إذ فقدنا ساعات بسبب فروق التوقيت وتغيير الطائرة فى الهند) إلى مقر المؤتمر ، وقابلنى السفير الدكتور عادل صالح (رئيس الأمانة الفنية للمؤتمر) فأرسلنى إلى فندق فوق ربوة عالية ، وسط غابة لم أكن أحلم برؤيتها ناهيك عن الضرب فى شعابها ، فقضيت ساعة أو بعض ساعة أسير فى جو آسيا الحار ، وإن كانت الحرارة غير شديدة بسبب ارتفاع المكان ، وفى الصباح ذهبنا إلى قاعة المترجمين حيث

عرفت سر استدعائي ، وهو أن فؤاد كامل - أحد المترجمين الكبار - قرر الرحيل فجأة وكان لابد من إيجاد بديل له ، وتعرفت هناك على مجموعة قدر لي أن أعمل معها سنوات طويلة بعد ذلك في الترجمة بالمؤتمرات الدولية ، كنت أعرف بعضهم بسبب زمالتهم القديمة لي - مثل محمد عبد الله الشفقي (رحمه الله) ومثل فكرية السويفى زميلتى فى الدراسة الجامعية ، وتعرفت على البعض الآخر ونشأت بيننا صداقة عميقة .

وانقضى المؤتمر 'وانقض المولد' (وهو مشهد تكرر عشرات المرات فى حياتى الجديدة) ، ولكن الدكتور عادل صالح قرر استبقاء عدد من المترجمين والمراجعين ثلاثة أيام للانتهاء من الوثائق ، وكنت بين من بقى ، وفى تلك الأيام القليلة أثناء المؤتمر أحسست بأننى أدخل عالمًا جديدًا ، فالترجمون خليط غريب من الناس ، بعضهم جاد لا يعرف الهزل ، وهم العماد الذى تستند إليه الأمانة الفنية لكل مؤتمر ، وبعضهم دخل مهنة الترجمة دون إحكام الصنعة ، وبعضهم من أقارب الكبار أو أصحاب السلطة والنفوذ (ومعظمهم من الفتيات) ولم يكن أمامى إلا أن أعرف هذا وذاك ، فمن القسم الأول تعرفت على اثنين من كبار مترجمى مصر هما السيدة نهى بدوى (بنت عبد الحميد بدوى باشا) وعمر حسن صبرى (ابن حسن صبرى باشا) وكانا مثل سائر أولاد الذوات يجيدان الانجليزية والفرنسية إجابة تامة ، ولم يكن أيهما فى مقتبل العمر ، كما تعرفت على بعض الشبان النابهين مثل محمد عبد السلام رضوان المترجم الضليع ، وتعرفت أيضًا على بعض موظفى وزارة الخارجية ، وعرفت أن الدبلوماسى يتميز عن غيره بإضافة لقب 'بك' إلى اسمه رغم إلغاء الألقاب ، وانقضت الأيام كالحلم الجميل ، وكان من مكاسب تلك الرحلة تعرفى على عبد الرحيم شلقامى - وكان أمهر من يكتب على الآلة الكاتبة العربية ، كما جمعتى صلاة الجمعة بأحمد بهجت ، الذى رأى الناس يتوضئون فى بركة المياه (لأنها جارية من مسيل أحد الغدران فى الجبال) وتصور أن الأسماك سوف تغضهم- وإن لم أكن قد رأيت فى الماء أسماكًا !

وهكذا فى غضون عام واحد من العودة كنت قد تركت مصر مرتين ! وما إن حططت الرحال هذه المرة حتى أدركت أن ما رسمته لنفسى من حياة أدبية لن يكتب له أن يتحقق على نحو ما أردت ، إذ كنت تقاضيت أكثر من ألف دولار مكافأة عن العمل عشرة أيام فى المؤتمر (وكان أجر المراجع آنذاك ١٢٥ دولارًا فى اليوم مثل المترجم الفورى) وهو مبلغ كنت فى مسيس الحاجة إليه آنذاك ، وما لبث أن توفى والد نهاد ، وتعرضت لهزة عنيفة ، فأسرة نهاد لم

تواجه فاجعة من قبل ، وعزة تقيم فى جدة ، وأحمد ما زال طالباً فى كلية الآثار ، وسناء ما زالت طالبة فى كلية الإعلام ، ونهاد ما زالت فى عطلة الصيف فى القاهرة وسوف تعود إلى السعودية بعد قليل ، وأنا ممزق بين منزلنا الذى أقيم فيه عادة وحدى لأن سارة تقيم مع أسرة زوجتى فى شبرا ، وبين منزل أصهارى ، وأصبحت أشعر بمسئولية جديدة نحوه . وكنا آنذاك فى رمضان ، فانتهدت مراسم العزاء بسرعة ، وأنا أزداد فى كل يوم تفكيراً فى أحوال الأسرة وازداد اقترباً من الله فى ضميرى ، حتى جاء يوم بدا لى فيه أن سارة مريضة . واصطحبتها بالسيارة إلى الدكتور خليل عبد الخالق ومعى عيئة من البول إذ شككت فى أنها أصيبت بالتهاب الكبد الوبائى ، وعندما دخلت إليه سألتنى عن الحالة فقلت له إن درجة حرارتها زائدة نصف درجة - وهذا هو البول وإننى أشك فى إصابتها بالصفراء . فإذا به يصرخ فى وجهى قائلاً : "أنت حتشخص كمان يا أستاذ ؟ إنت إيش فهمك ؟ إديها سلفا لا" وكتب لى روشتة وخرجت .

كانت الساعة قد تخطت الرابعة ، والقيظ فى ذروته ، ووضعت سارة فى المقعد الخلفى فغلبها النعاس ، وعبرت كوبرى ٦ أكتوبر وأنا شارد الذهن ، فإذا بسيارة أخرى تحاول قطع الطريق على ، فصحت فى قائدها غاضباً ، فرأيته يشير إلى أن توقف . فتوقفت . فخرج هو من السيارة وأقبل على مرحباً ومعه زوجته ، وقال لى ألا تذكرنى ؟ كنت زميلك فى مدرسة الأورمان لا والدى كان الناظر السابق الأستاذ المسيرى لا وانعقد لسانى ولم أجد ما أقوله إلا إن ابنتى مريضة ، فقال أنا الآن طبيب فى القصر العينى - سر ورائى من فضلك لا وسرت بالسيارة خلفه حتى توقفت عند عيادة لم أكن رأيته من قبل فى الدقى ، وأخذ عيئة البول ودخل ، ثم خرج ومعه بعض أدوية ، وقال لى هل تسمح أن أزورك فى المنزل بعد الإفطار للاطمئنان على سارة ؟ وتوقفنا فى الطريق عند منزله فى شارع مصدق - القريب من منزلنا - حيث أعطى سارة عصير برتقال ، وقال لى اجعلها تستريح حتى المساء ، وفعلأتى إلى المنزل فى نحو التاسعة ، واطمأن على سارة وخرج بعد أن أعطانا نتيجة التحليل .

وفى الصباح استدعينا الدكتور السعيد يونس الذى أكد صحة تشخيص المسيرى ، وقال لنا لا تقلقوا فالأطفال "بياخدوا الصفرا على رجليهم" يقصد أنهم لا يتطلبون من الراحة ما يتطلبه الكبار ، ولم تمض أيام معدودة حتى كانت سارة قد شفيت . ولكن هذه الأحداث جعلت نهاد عازفة عن العودة إلى السعودية ، وكانت تشعر بأنها مرغمة على ذلك ، بسبب العقد الذى

وقعته ، ويتضمن شرطاً جزائياً ، إلى جانب الالتزام الأدبي ، وكانت تمنى وتكتم معاناتها ، فأسرتها الصغيرة فى حاجة إليها ، وأسرتها الكبيرة ليست أقل حاجة ، ومن ثم توجهنا إلى مقر البعثة السعودية حيث اتفقنا على إمكانية إلغاء العقد فى منتصف العام - أى بعد ثلاثة أشهر أو أربعة ، ثم سافر الجميع من جديد بعد العيد ، وعدت إلى الوحدة والوحشة .

ومع بداية أكتوبر كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به من كتاب رشاد رشدى - نحو ثلاثة فصول - أرسلها فى الحقيبة الدبلوماسية من مكتب أسامة الباز - وفوجئت ذات يوم فى الجامعة بالدكتور مصطفى محمود (الكاتب) داخلاً ومعه كتاب صغير عنوانه هو الماركسية والإسلام وطلب منى أن أترجمه . ووجدته صغيراً فقبلت ، وجعلت أترجم فيه على فترات ، وكنت أجد مشقة كبرى فى الترجمة بسبب أسلوب الكاتب الاستطردى ، فهو يقفز من فكرة إلى فكرة داخل العبارة ويغير النبرة داخل الفقرة الواحدة ، ولكنى كنت أشغل نفسى به فى لحظات الفراغ وما كان أقلها فى تلك الأيام .

هل كان ذلك ما عدت إلى مصر لأفعله ؟ أين طموحاتى الأدبية ؟ أين كتابة المسرح ؟ أين الترجمات الأدبية التى كنت بدأتها بمسرحية مسافر ليل لصالح عبد الصبور ، وهى الآن قابضة فى قاع الحقيبة الضخمة فى منزل والدى ؟ وفحصت ذات مساء مخطوط مسرحية لم يقدر لها أن ترى النور أبداً عنوانها الزيارة فوجدت النص أوروبياً فى بنائه وصوغه ، ومن المحال تحويله إلى نص عربى الروح مثلما هو عربى اللفظ ، ونظرت أيضاً فى مخطوط مسرحية أخرى لم أكتب منها إلا بضع صفحات قبل أن أسافر وعنوانها السجين والسجان - فأعجبتنى حيوية الحوار وغرابة الموقف وتمنيت أن أكملها ! وكانت لدى بعض أوراق خططت فيها 'موقفاً' من مواقف مسرحية 'الفنم' التى كانت تشغلنى طيلة السنوات العشر السابقة - وفيها أتصور موقفاً غريباً يتمثل فى 'فرار' الفنم من الحظيرة كأنما قامت بثورة ! وأنطلق من ذلك الموقف لتأمل مفهوم الاشتراكية الذى أخذنا به فى مصر ، وكيف تتحول مبادئها إلى قيم غامضة لا علاقة لها بالنظام الذى وضعه العالم وطوره - وكانت يغيظنى أن أقرأ عبارات مثل "جهاز عروسة اشتراكى" فى الصحف ، أو أسمع كلمات (فى أغنية لعبد الحليم حافظ) تقول "لو تخدم باشتراكية" أو "يا عديم الاشتراكية" - ترى ما معناها ؟ هل يفهم الشعب المصرى وغالبية من الأميين معنى ذلك النظام الاقتصادى بشتى صورته الأوروبية ؟ وتصورت أن أسخر من فهم المصريين للقيم النبيلة أو عدم تحويل تلك القيم إلى واقع عملى فى المسرحية - وكان تفكيرى أيضاً غريباً بمعنى أنه كان يفترض قدرة القارئ أو المشاهد على

إدراك معنى "التورية الساخرة" أو المفارقة الدرامية (Dramatic Irony) وكان ذلك خطأ .
كان كل شيء فى حياتى الأدبية قد انفرط عقده ، وكانت الأيام تجري كأنما دون هدف -
وأنما كنا جميعاً نتسابق نحو الغاية المحتومة دون مبرر لحياتنا أو أحلامنا - كان أكتوبر
١٩٧٦ شهر 'الانقباض الأعظم' ١



واتصلت بى فى نوفمبر نهى بدوى وقالت إن هناك فرصة للاشتراك فى مؤتمر فى
الجزائر وإن التذكرة موجودة فى مكتب شركة الخطوط التونسية ، فذهبت إلى الكلية وقدمت
طلباً للسفر ، أى لاستخراج الورقة الصفراء ، وكان معنى السفر أثناء العام الدراسى ، ضرورة
موافقة القسم ثم العميد ثم مجلس الكلية ، ثم رئيس الجامعة ، وهى إجراءات تستغرق وقتاً
طويلاً ، ولكن إغراء السفر لرؤية الجزائر وكسب المال أيضاً كان لا يقاوم ، وشرعت فى
الإجراءات حتى انتهت ، وتسلمت الورقة الصفراء من مدام وجيدة وخرجت سعيداً فالتذكرة
فى جيبى ولم يعد هناك مجال للقلق وعندما وصلت إلى المطار وتوجهت إلى ضابط الجوازات
قال إن الورقة الصفراء لا تصلح ! وتطلعت إليه فى ذهول ! هل هى مزورة ؟ ما عليه إلا أن
يتصل تليفونيا بالعميد ليتأكد بنفسه من صحتها ! ولكنه ضحك قائلاً : أين ختم النسر ؟
وفوجئت وانعقد لسانى . لم يخبرنى أحد بضرورة ختم النسر ! وبذلت محاولات متعددة
لإقناع الضابط الكبير الذى كان يتكلم كأنه صاحب المطار أو صاحب مصر نفسها - وحاولت
بكل ما أوتيت من لباقة إقناعه بالاتصال بالكلية أو قبول إقرار منى أو أى شيء - ولكنه قال
كلاماً مهيناً بصوته الجهورى الأجرى الذى لا تزال أصداؤه ترن فى ذاكرتى بعد هذه السنين
كلها ، فخرجت واستعدت حقيبتى وقررت إلغاء الرحلة . وعندما عدت إلى الكلية وقصصت
عليهم القصة كان رد الفعل مزيجاً من الرثاء والسخرية والتشفي ! أفلا يعلم هذا العائد من
انجلترا أن ختم النسر هو سر الحياة ؟

لم يتغير فى مصر شيء إذن - وتأملت ما أنفقت فى استخراج الورقة الصفراء ، إذ كان
على الساعى - بعد الحصول على توقيع رئيس القسم أن يحصل على توقيع العميد ثم غالبية

أعضاء مجلس الكلية فيما يسمى "القرار بالتمرير" - أى أن يمر عليهم فى أماكن عملهم أو فى منازلهم فى الأوقات التى يُحتمل العثورُ عليهم فيها ، وكنت أصاحبه بالسيارة فى هذه الرحلات إلى المنازل ، وكان كلما حصل على توقيع صاح صيحة الظفر ، حتى إذا اكتمل العدد المطلوب (أكثر من ٢٥ توقيعاً) طار إلى العميد ثانياً للأمر بإعداد مذكرة وكتابتها على الآلة الكاتبة فى قسم "النسخ" ، ثم حمل المذكرة إلى إدارة الجامعة ، وكان رئيس الجامعة فى اليوم الذى زرنه فيه غائباً فى الفيوم ، فتطوع أحدهم بإدراج المذكرة فى "البوسطة" التى ستحمل إليه ، والعودة بها "إكراماً لخاطري" فى اليوم التالى ، فإذا تم التوقيع عادت المذكرة إلى الكلية لاستخراج الورقة الصفراء وتوقيع العميد عليها من جديد ! ولكن ختم النسر أبى واستعصم فطارت الرحلة !

وفكرت فى أحداث العام المنصرم ، وجعلت أتأمل الآمال الضائعة والآمال التى تحقق بعضها ولو بصعوبة ، فقررت أن أشغل وقتى بالقراءة مثلما كنت أفعل فى إنجلترا ، وفى الكتابة التى جئت إلى مصر من أجلها ، وساعدنى جو الخريف الجميل على تحقيق بعض من هذا وذلك ، فأخرجت الصور الفوتوغرافية (الزيروكس) التى كنت صورتها لمخطوطات الشاعر الانجليزى وردزورث والتى تتضمن مسودات السُّفر الأول والسفر الثانى من قصيدته "المقدمة" وهى سيرة ذاتية كتبت شعراً وكنت درستها فى إنجلترا ، وقررت أن أحقق النص الأول لهذين السفرين استناداً إلى هذه المخطوطات بعد أن أنفقت الكثير فى سبيل الحصول عليها ، فالسفران يمثلان قصيدة مكتملة ، ولو أن الشاعر عاد إليهما قبل أن ينشرها فاستكمل سيرته الذاتية وزاد عدد الأسفار إلى ثلاثة عشر سفرًا فى عام ١٨٠٥ . ووجدت أن تحقيق النص الأول ونشره مع مقدمة وافية يمكن أن يشغلنى فى ذلك الشتاء ، بل إنه كان يمثل حلمًا من أحلام دراستى فى إنجلترا ، فعكفت على ذلك العمل حتى آخر العام .

كنت سعيداً - لا شك - باستغراقى فى الدراسة ، فلم أعد أذهب إلى الأزهر ولا إلى الفيوم ، وحصرت نشاطى كله فى جامعة القاهرة وأكاديمية الفنون ، حتى انتهيت من تحقيق النص ومضاهاة القراءات المختلفة فى شتى المخطوطات بما استقر عليه الشاعر آخر الأمر ، وكتبت فى غضون ذلك دراسة مستقلة ومنفصلة لمفهوم الأسلوب عند ذلك الشاعر ، منطلقاً من مقولة "ماثيو أرنولد" إن الشاعر لم يصطنع لنفسه أسلوباً خاصاً بل كان يكتب ما تمليه عليه الطبيعة، وما جاء فى مقاله عنه من أن الطبيعة نفسها هى التى كانت تمسك بالقلم

وتكتب له ! وعندما اكتملت الدراسة عرضتها على أستاذتى الدكتورة فاطمة موسى فزحبت بها واقتُرحت نشرها فى مجلة الكلية ، وعدت أنا إلى التحقيق فكتبت له مقدمة من خمسين صفحة ، ولكن أبواب نشر ذلك العمل كانت مغلقة فى مصر ، فوضعت كل شئ فى الدرج ، وعدت إلى مسرحيتى القديمة ”الغنم“ فقطعت فيها شوطاً طويلاً ، وكنت أشعر بحاجة ماسة إلى عرض ما كتبت على ناقد أو كاتب أو مخرج ، ولكن الأصدقاء كانوا فى السعودية ، فوضعت ما كتبت أيضاً فى درج المكتب ، وشغلت نفسى بالترجمة والتدريس وحسب .

وفى يناير ١٩٧٧ اتصلت بى إدارة المؤتمرات بوزارة الخارجية وكلفتنى بالسفر إلى دار السلام (تنزانيا) للترجمة فى مؤتمر تعقده لجنة التنسيق لتحرير إفريقيا المنبثقة عن (أو التابعة) لمنظمة الوحدة الأفريقية ، فركبت الطائرة فى الواحدة صباحاً ووصلت إلى دار السلام ، مروراً بنىروبي (كينيا) فى نحو التاسعة ، بعد ليلة لم أنم فيها إلا لماماً ، فوجدت فى انتظارى الأستاذ محمد متدن (واسم الأسرة باللغة السواحيلية تحريف للكلمة العربية متدين) ومعه جميع وثائق المؤتمر التى يريد ترجمتها بالعربية . وطلبت منه أن يمهلى حتى أنال قسطاً من الراحة ، ولكنه أصر على ترجمة إحدى الوثائق فوراً لأن الجلسة الأولى ستعقد فى الرابعة من عصر ذلك اليوم ، ولابد من النص العربى فى أيدي المندوبين من السفراء أو وزراء الخارجية العرب . وصدعت بالأمر ، وتحقق ما يشبه المستحيل بفضل عبد الرحيم شلقامى - أسرع من يكتب على الآلة الكاتبة العربية فى العالم - إذ جلست معه فى غرفة بمقر اللجنة ، وشرعت أترجم ترجمة منظورة at sight أى أقرأ النص الانجليزى بالعربية ، وهو يكتب بسرعة نطقى للكلمات ، مثلما كنت أفعل مع ”جنيفر باتشيلور“ (جيني) الانجليزية إبان الأزمات فى إنجلترا ! وكان أحد العاملين يأخذ الصفحات المكتوبة على الإستسل (قبل شيوع آلات التصوير أو النسخ) فيستخرج منها النسخ المطلوبة، حتى إذا حان موعد الجلسة كان النص العربى فى أيدي الجميع!

واستمر الإرهاق فى إفريقيا عدة أيام متوالية ، لم يخففه سوى متعة مشاهدة إفريقيا السمراء ، ومقابلة أحد تلاميذى السابقين فى قسم اللغة الانجليزية وهو إبراهيم الخضرى الذى كان يعمل آنذاك ملحقاً صحفياً بالسفارة المصرية . وكان إبراهيم طموحاً شديد الذكاء ذا طابع عملى فى حياته - فهو من دمياط ، المجتمع الصناعى الذى لا يفهمه الكثيرون - وشديد الوله بالفكاهات والقفشات ، فدعانى إلى الغداء فى منزله عدة مرات ، وفى فندق على ساحل المحيط اسمه ”بحارى بيتش“ ، وكان قد تعلم اللغة السواحلية أيضاً وأجاد فهم

أبناء إفريقيا ، فكان خير عوض عن إرهاق الترجمة ، وقد قدر لنا أن نلتقى فيما بعد ونعمل معاً فترات طويلة فى قسم الترجمة العربية بمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة فى روما ، وقابلت بالمصادفة سفيرنا فى دار السلام أحمد حتاته (رحمه الله) الذى كانت تربطه بالأسرة صلة نسب ، فدعانا إلى منزله أيضاً (أنا وفريق الترجمة : آن مارى جريس ، وسميرة عبد السيد ، وشوقى الكيلانى، ونهوت عبد الله) وبعد انقضاء الأسبوع تقاضيت الأجر وكان ٤٥٠ دولاراً وعدت إلى القاهرة محملاً بالشاى ولوز الكاشو (يكتبونها كاجو فى مصر الآن محاكاة للنطق العربى الذى يعطش الجيم) .

وعدت إلى الجامعة للتدريس يوم السبت ١٥ يناير ١٩٧٧ وكنت قد انقطعت عن أخبار مصر أثناء الرحلة فسمعت من الزملاء كثيراً من الأحاديث عن الأزمة الاقتصادية ، وكان معظم أصدقاء الستينيات قد خرجوا من مصر فى إعارات للعمل بالبلدان العربية ، أو بالأمم المتحدة ، بعد أن أصبح الخروج من مصر ميسوراً ، ولم يكن هناك من أستطيع مناقشته فى الشؤون العامة غير أصدقاء الصبا الأستاذ أحمد السودة والأستاذ ماهر البطوطى ولم أكن أقابلهما سوى يوم الجمعة ، فخرجت فى مساء ذلك السبت إلى منزل رشاد رشدى لأطمئن عليه فإذا به ما زال يعانى من نوبة الانفلونزا الحادة وسمعت أن الرئيس السادات قد اتصل به تليفونيا من أسوان ليطمئن على صحته ، ومكثت ساعتين أحطت فيهما بما فاتنى من أبناء ، إذ توافد الأصدقاء وجعلوا يطرحون من الآراء ما ذكرته بعد ذلك فى خطاباتى إلى سمير سرحان ونهاد زوجتى وهما فى جدة .

كان أهم ما سمعت فى تلك الجلسة أن معارضى السادات ، ومعظمهم من مؤيدى عبد الناصر ، غير مقتنعين بسياسة الانفتاح التى أدت إلى ”توحش“ بعض التجار الذين استغلوا فتح الأبواب للإثراء السريع دون وازع من ضمير، ومن ثم إلى نشأة طبقة يتزايد عدد أفرادها من المستغلين والجشعين ، فأصبح من الصعب الحصول على مسكن بالإيجار ، وارتفعت أسعار الوقود نتيجة ارتفاع أسعار النفط عالمياً ، وتعالى أصوات المعارضين ، والسادات يسمح لهم بإصدار الصحف الجديدة والحديث دون خوف ، وكنت أستمع فى صمت فأنا بطبعى عازف عن الكلام فيما لا أعرف ، وعندما احتدم النقاش ملأت على أحد الضيوف فسألته عن حقيقة الانفتاح - وكان ملماً بالجوانب الاقتصادية ”السرية“ التى أجهلها ويجهلها الكثيرون فقال لى :

” إنك لا تستطيع تحويل النظام الاشتراكي إلى نظام رأسمالي بين يوم وليلة ! فهذه هي الوصفة الجاهزة والسريعة للتمزق الاجتماعي ، وأوضح مجال لذلك هو الطعام ، فالتناس لا يد أن تأكل ، ونحن لا ننتج كفايتنا من الأغذية ، والمستوردون من الأفراد والشركات الخاصة يستغلون ذلك أبشع استغلال، بعد أن غابت رقابة الدولة تقريباً “

وسألته إن كانت الحكومة قد تخلت عن مسئوليتها في الرقابة حقاً ، فقال كلاماً سجلته في خطاب مطوّل أرسلته يوم الأحد إلى نهاد زوجتي ، وملخصه أن الكبت والانغلاق في أيام ما كان يسمى بالاشتراكية أوجد فئة من المتحايين على القوانين، وأن هذه الفئة تتخر كالسوس في جسد الاقتصاد المصري، يساعدهم في ذلك الفاسدون من العاملين في الحكومة، والفساد يستشري في كل نظام مغلق بطبيعة الحال ولكنه ينمو ويزدهر في مراحل التحول الاجتماعي، خصوصاً إذا كان ذلك التحول فجائياً ! وقلت له إن السادات سوف يحصل على الأموال اللازمة للنهضة الاقتصادية من إخواننا العرب ، وَلَخَصْتُ له ما نشرته صحيفة التايمز البريطانية عن الخطة الرئيسية master plan التي أعدها السادات بمساعدة شركات الخبرة الأجنبية لتحويل شرق الدلتا ومنطقة قناة السويس إلى منطقة صناعية كبرى، وبها موانئ للتصدير، وحدثته عن الوعد الذي تلقاه من العرب عام ١٩٧٥ بعد إعادة فتح القناة بالمساهمة في هذه الخطة بنحو عشرة مليارات دولار.

وضحك الضيف قائلاً : وهل صدقت الصحيفة البريطانية ؟ لن يحصل السادات على شيء من إخواننا العرب ، فكل منهم همومه ومشاغله ، ودعني أؤكد لك أن السادات يعلم ذلك أو أصبح يعلمه بعد أن قضى ما يقرب من عامين في الاستجداء ! وأخشى ما أخشاه أن يفلت زمام الموقف من يده وأن يقاجأ بانفجار غير متوقع ! لقد كان الناس يتوقعون بعض التحسن الاقتصادي بعد نصر أكتوبر، ولكن انظر ما يحدث الآن !

وعندما عدت إلى المنزل تذكرت رواية ابن آوى للكاتب الإيطالي جيبوسيبى لامبيدوزا، التي يصور فيها تحولا مماثلاً لبّان توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر ، ويصف فيها بالتفصيل ما يسميه بالطبقة الوسيطة أى التي تكسب دائماً في كل تحول اجتماعي، فهي تستفيد من الانهيار مثلما تستفيد من الازدهار، وسلاحها دائماً هو الاستغلال وخدمة المصالح الشخصية، وذكرت مسرحية السبنسة لسعد الدين وهبة، التي يقول فيها أحد الأشخاص إن القطار قد يسير في اتجاه معين فتصبح العربات الأولى هي الدرجة الأولى، أو في الاتجاه

المعكس فتصبع الدرجة الثالثة (السبنسة) هى الأولى ، ولكن الدرجة الثانية تظل دائماً درجة ثانية ! وعندها عدت إلى مسرحيتى الفلم فألححت على اختلال المفاهيم خصوصاً ما يتعلق منها بالسلطة والشعب، وما يتصل منها بمفهوم الاشتراكية الذى شوهناه فى مصر، على نحو ما ذكرت آنفاً، ولم أكن قادراً على الوصول إلى الفصل الثالث ، كأنما كنت أنتظر الأحداث العامة التى تحدد لى مسار الكتابة !

كانت الصحف فى ذلك الأسبوع تركز على الأزمة الاقتصادية ، ووجدتني رغماً عني أناقش الموضوع مع كل من أعرفه ، وفى صباح الثلاثاء ١٨ يناير ١٩٧٧ صدرت الصحف وهى تحمل أنباء زيادة أسعار الكثير من السلع الأساسية ومنها وقود السيارات ، وكنت فى أكاديمية الفنون ، فقابلت المخرج ”حسن“ الذى بادرنى بالتحية وشدنى شداً إلى ركن قصي كأنما يريد أن يسرّ لى بما كان يشغله من أمور المسرح (أو النساء)، وجلسنا فى حديقة المعهد ، وأبدت له استعدادى الكامل للإصغاء ، فإذا به يحدثني عن الضائقة الاقتصادية ! ولم أكن أتوقع ذلك فسألته أن يوضح لى ما غمض على من علاقاته مع الفنانة ، فضحك ضحكة مقتضبة قائلاً ”خلينا فى المهم“ ومن ثم انطلق يتحدث عن أزمة مسرح الدولة وما يتهده من خطر الانهيار ، وانتشار فرق القطاع الخاص ، والمهازل التى تقدم باسم ”الهزليات“ الفنائية أو الموسيقية ، ولم أجد فى ذلك كله ما يستدعى جو السرية الذى أشاعه دون مبرر ، فقلت له إننى مرتبط بعدة مواعيد ولا بد أن أنصرف فحدجنى بنظرة عتاب قائلاً ”أترك أخاك فى محنته ؟“ وكان ذلك كافياً لشد انتباهي فقلت له ”ما تلك المحنة ؟“ فقال ”لقد قرأت ما أعلنته الحكومة اليوم من قرارات برفع جميع الأسعار ، ومنها أسعار البنزين بل والغاز والكيروسين ، وربما شعرت بضيق الناس لهذا الغلاء المفاجئ ، فالمكوجى كان يتقاضى قرشاً ونصف عن كى القميص فأصبح يتقاضى قرشين ، وأنا غارق فى الديون إلى أذنى !“ وفهمت ما يرمى إليه ولكنى لم أعلق ، فاستمر قائلاً : ”إن الفنانة الشهيرة التى رأيتها فى الهرم هى زوجتى ! وصديقتها التى كانت تجلس معها - هى خطيبتى !“ وكدت أضحك ولكنى تماسكتُ وأمسكتُ لسانى . وساد الصمت المتوتر لحظات كنت أنتظر فيها نهاية القصة وأتوقع طلب العون ، ولكنه نهض وقال : ”لعلك فهمت الآن سر الأزمة ! لقد تعاقدت على إخراج مسرحية للقطاع العام ثم تأمر الناس ضدّى دون سبب مفهوم، فطارت المسرحية، وأنا الآن مضطر إلى إخراج هذا الهراء ! تفضل ! اقرأ !“ وأخرج من حقيبته مخطوطاً لمسرحية دون عنوان، تصفحتها فقرأت ما يمكن تسميته

بالحوار وإن كان على درجة من الانحطاط لم أعهد مثلها يوماً ما ، وقبل أن أبدى أى رأى بادرنى قائلاً ”لابد من إخراجها مهما بلغ من ابتدائها فهي مصدر الرزق الأوحـد ! ما رأيك ؟“ كان الموقف محيراً وغريباً وبه عناصر ”عبث“ واضحة ، وحاولت بالمنطق الهادئ الذى اعتدته أن أربط بين علاقاته النسائية وأزمته المسرحية فلم أفـلح ، ووجدتـى مضطراً إلى سؤاله وكانت إجابته حاضرة ، إذ قال إنه سوف يسند دور البطولة إلى زوجته ، فهذا هو ”المعقول“ الوحيد ، ودور الراقصة إلى خطيبته ، فهذا ”معقول“ أيضاً ، ولكنه يخشى أن تفصح أى منهما لصاحبـتها عن علاقتها به ، إذ إن زواجه من الأولى زواج ”سرى“ حتى تلك اللحظة ، وكذلك خطبته للراقصة ! وأبديت له دهشتى ، قائلاً إنهما صديقتان وكانا يتساران معاً يوم لقائنا فى الهرم ، فأجاب بأن زوجته لا تعرف إلا أن الراقصة (وقد اتضح أنها قد طُردت من المعهد) تشارك فى الأعمال الفنية فقط ، وأن الراقصة لا تدرى شيئاً عن زواجه ، فهو يعيش وحده فى شقة فى ”منيل الروضة“ ، وزوجته تقيم مع والدتها المسنة التى فقدت السمع تقريباً وتعتمد اعتماداً كاملاً على ابنتها فى كل شىء !

ولم أدر بمرور الوقت وأنا أستمع لهذه الأقاصيص التى بدت لى أغرب من الخيال، إذ تبينـتُ أن موعد محاضرتى لدبلوم الترجمة فى الجامعة قد حان ، فتململتُ فى مقعدى وأنا أنظر إلى الساعة كأنما لألفت انتباهه إلى الزمن ، ولم يغب عن نظره ذلك فأسرع يقول: ”كل ما أردت اليوم هو إشراكك معى فى الأزمة ، فأنا أعرف أنك كاتب مسرحى موهوب ، ولو قدمت لى نصاً محترماً فسوف ينقذنى من هذه الورطة !“ فأخبرته أن الغنم لم تكتمل، فأسرع يقول ”مسرحية مترجمة يا أخى !“ فقلت له ”الترجمات كثيرة !“ فقال ”لا! ولكن ترجم لى نصاً جديداً نقدمه معاً إلى المسرح القومى مثلاً .. أو الحديث .. فيعود علينا جميعاً بالخير !“ وابتسمت ووعده خيراً، فأردف يقول بالانجليزية :

“Meanwhile, you haven’t got a tenner to spare by any chance?”

وقلت فى نفسى إن هذه الأقاصيص تساوى عشرة جنيهات ولا شك! فأخرجت الورقة المالية ودفعت بها إليه فعاد يقول بالإنجليزية :

“A temporary loan, of course!”

وأمنتُ على كلامه مكرراً ”طبعا طبعا“ وانصرفـت.

وانهمكت في التدريس عصر ذلك اليوم ، وشغلتني المشاكل اللغوية عن "حسن" و"حواديته" ، وإن كنت في أعماقي أكابد صعوبة في تصديق ما قاله ، وكان من الممكن ألا أذكر هذه القصة باعتبارها من نسج الخيال ، شأنها في ذلك شأن الكثير من قصص أهل الفنون، لولا ما ثبت من صدقها في الأعوام التالية ، وما أدت إليه من أحداث بعضها مستمر إلى يومنا هذا (٢٠٠٠) ، ولكنني كنت في دروس الترجمة - ولا أزال - أنسى الدنيا وما فيها ، إذ حل الظلام وأضيئت أنوار قاعات الدرس ، وفي نحو السابعة مساءً طرق الباب عم محمد شهاب ، فراش القسم ، وقال لي ماذا تفعل ؟ المظاهرات في الشوارع ، والدنيا مقلوبة ! فأنهيت الدرس فوراً وسمحت للجميع بالانصراف، ثم مررت على والدي ووالدتي للاطمئنان عليهما ، فوجدت أخي مصطفى أيضاً الذي قال لي إن المتظاهرين يخلعون بلاط الشوارع ويقذفون أعمدة الإنارة بالأحجار ، فعدت إلى المنزل ، فلم أجد أخباراً في الإذاعة والتلفزيون عما يحدث ، باستثناء ندوة اقتصادية بين كبار علماء الاقتصاد والقانون .

وفي الصباح ، سمعت أن الحكومة قد فرضت حظر التجول اعتباراً من الساعة الواحدة ظهراً ، وكنت آنذاك في السيارة الصغيرة ، حين قطع المذيع الأغنية ليذيع القرار ، وكنت قد وصلت إلى قرب ميدان الدقي ، فأوقفت السيارة في شارع التحرير (غربي الميدان) وخرجت لأنظر فوجدت حشداً هائلاً من البشر الذين يصيحون ويصرخون ، بعضهم يجري في اتجاه الجيزة ، وعدداً من الصفار يجرون نحوي خوفاً وذعراً ، وجاءني أحدهم وهو يبكي ويقول "لقد خطفوا البلوهر ! " فأيقنت أن الشغب جاد ، فعدت إلى السيارة وعدت أدراجي ، وظللت أستمع إلى الإذاعة حتى اقترب موعد حظر التجول ، وصدرت البيانات الرسمية عن أعمال الشغب ، وكنت أقف في صيدلية "الصفاء" القريبة من منزلنا ، فقال لي الدكتور إننا يجب أن نعود إلى بيوتنا ، فلا يعلم إلا الله ما يكون من أمر تلك الثورة .

كان الإحساس بالعزلة غريباً في مصر ، إذ خرجتُ إلى الشرفة لأرقي المارة والسيارات فلم أجد أحداً على الإطلاق ، وفي نحو الساعة الرابعة وصلت سيارة مصفحة بها جنود ومدافع رشاشة فوقفت عند تقاطع شارعنا (شارع دمشق) مع الشارع الرئيسي (شارع سوريا) وظل الهدوء مخيماً حتى أظلمت الدنيا ، واستأنست بالتلفزيون الذي كان يذيع فيلماً من أفلام عبد الوهاب القديمة ، وكان المذيع يقاطع الفيلم بين الفينة والفينة ليذيع بياناً أو بلاغاً ،

وعندما حان موعد نشرة الأخبار ، ذكر التلفزيون أن الرئيس السادات عاد من أسوان لمتابعة الموقف وأنه سيلقى خطاباً فى اليوم التالى .

وسرعان ما رُفع حظر التجول ، وعَدَلَت الحكومة عن رفع أسعار بعض السلع . ولكن الرَجَّة التى أحدثها خروج الجماهير إلى الشوارع كانت عنيفة ، وحدثت أنها لن تمر بسلام ، وتبارى المحللون السياسيون وكتاب صحف المعارضة الوليدة فى تقديم تفسيراتهم ، وكان بعضها يؤيد ما قاله السادات فى خطابه من أن تلك الفورة لا تعدو كونها بعض أعمال الشغب الإجرامى ، وبعضها يصفها بأنها ثورة شعبية على الحكم ، وعلى رئيس الدولة تحديداً ، فأسموها انتفاضة شعبية ، وأسموها انسادات "انتفاضة الحرامية" ، وقَدَّمت بعض الدول العربية الفنية بعض الأموال إلى مصر لإغاثتها فى تلك المحنة الاقتصادية وقد اتضح للجميع أنها ليست أزمة عابرة ، وأن أحداث المستقبل لابد أن تكشف الكثير عما وراءها .

وكان من عاداتى التى لم أقلع عنها منذ عودتى إلى إنجلترا عادة الاستماع إلى الإذاعة المصرية والإذاعة البريطانية ، وخصوصاً إلى الخطابات السياسية (إذ كنت أترجمها إلى الإنجليزية من باب كسب الرزق) وكان اهتمامى بمتابعة تطورات الأحداث العالمية قد أصبح عادة مكتسبة . والعادة - كما يقولون - طبيعة ثانية ، فلاحظت فى الخطابات التى كان يلقيها الرئيس السادات تغييراً ما فى النبرة ، خصوصاً فيما يتعلق بالمساعدة المتوقعة من أشقائنا العرب الذين أصبحوا من أغنى دول العالم بعد تضاعف سعر النفط أضعافاً مضاعفة ، وكنت ألمح ضيقاً ، فى خطاباته الجماهيرية ، وبرماً بعدم تحقيق ما يبدو أنه وُعد به أو كان يتوقعه ، كما لاحظت أن سياسة الانفتاح - على كل مساوئها - قد سمحت بقدر من حرية التعبير فى الصحف (على الأقل) لم تكن نعلم به من قبل ، مما أتاح لى تطارح الآراء دون خوف مع أصدقائى المخلصين من المؤمنين صدقاً وحقاً بالاشتراكية ، وكنت لسبب غامض غير محسوب من أى طائفة إلا إذا اعتبرنا أن دراستى العربية المبكرة ، وإقامتى الطويلة فى إنجلترا ، وارتباطى الشديد برشاد رشدى قد جعلنى أبدو أقرب إلى اليمين فى نظرهم منى إلى اليسار . ولم أكن أكثرث لذلك التصنيف آنذاك على أى حال ، فلست ولم أكن مفكراً سياسياً ، وإن كانت السياسة تفرض نفسها فرضاً على كل أديب مهما حاول التملص والتخلص !

ونتيجةً للمناقشات المستفيضة فى ربيع ١٩٧٧ ، عدت إلى مسرحيتى ، وقد اقترح المخرج العبقري كمال يس - رحمه الله - تغيير اسمها إلى ميت حلوة ، فأكملت الفصل الثالث الذى

أسخر فيه من نوع الفكر الذى يسمى اشتراكياً ظلمًا ، وهو النائم فى بلدان العالم الثالث التى لم يكتب لها أن تمر بمراحل التطور الاجتماعى الأوروبى الذى أثمر الاشتراكية المعروفة ، وكانت مصر قد أخذت بجانب منه ولم تأخذ بجانب ، وكنت - كما سبق أن قلت - أسخر من سوء الفهم وسوء التطبيق ، ومن صور معروفة من صور الانحراف بالسلطة ، ومن ثم دعوت أصدقائى إلى جلسة فى منزلى بعد عودة نهاد من السعودية ، وكانوا تحديدًا سمير سرحان وعبد العزيز حمودة ، وفوزى فهمى ، ونهاد جاد زوجة سمير ، وكمال يس ، ونهاد زوجتى ، وقرأت عليهم المسرحية ، وبدأ عليهم السرور ، ثم بدأت المناقشات التى انتهت إلى ضرورة تعديل الفصل الثالث ، وكانوا محقين تمامًا ، ولو أننى قررت آنذاك أن أضعها فى درج المكتب ريثما يأتى الخريف ويبدأ الموسم المسرحى .

الفصل الثانى



شغلت طيلة الصيف بترجمة البحث عن الذات إلى الإنجليزية . وكان الدكتور رشاد رشدى يتعجل الرئيس السادات للانتهاء منه ، فدعاه الرئيس إلى زيارته فى الاسكندرية للانتهاء من الفصول الأخيرة ، فنزل فى فندق فلسطين ، وكان يزوره فى استراحة المعمورة حتى تكتمل الشرائط التى يسجلها الرئيس بصوته ثم تتولى السكرتارية الخاصة تفريفها ، وبعد ذلك يقوم رشاد رشدى بتحرير النص وإعطائى الفصول لترجمتها ، وكانت نهاد زوجتى تكتبها على الآلة الكاتبة ، فإذا صادفتُ شيئاً لا يروقها نبّهتني حتى أعدله أو أصحّحه ، قبل إرساله إلى رشاد رشدى .

وانتهى الكتاب فى أكتوبر ١٩٧٧ ، وكانت خطابات الناشر الأمريكى تعرب عن السعادة بالمادة المرسله ، ثم تحدّد موعدُ سفر رشدى إلى أمريكا للإشراف على الطباعة ، وكان على مدار العامين السابقين يعانى من انزلاق غضروفى فى فقرات الظهر العليا عند العنق ، وكان ذلك يسبب له آلاماً مُبرّحة ، فانتهازها فرصة ليعرض نفسه على الأطباء فى أمريكا ، وفعلاً جاءنا فى منزل رشدى نص الكتاب بعد ملاحظات الرئيس السادات والتعديلات التى أدخلها بخط يده، وكان يستخدم الحبر الأخضر فيما يضيفه إلى النص ، وإن لم يحذف شيئاً، فعكفنا أنا والدكتور رشدى على مضاهاة النصّين العربى والانجليزى حتى نضمن تطابق التعديلات ، ثم أرانى رشدى الخاتمة التى كان كتبها بالعربية واختار لها العنوان الانجليزى Epilogue

وهو عادة ما نترجمه بتعبير "بعد إسدال الستار" ، ولكنه لم يرق له لأنه ينذر بأن قصة الحياة آذنت بالمغيب ، وظللنا ساهرين حتى الرابعة صباحاً ، هو يكتب العربية وأنا أصوغها بالانجليزية ، وليس معنا سوى مدام ثريا زوجته ، وعندما انتهينا من الخاتمة باللفتين نهضت للخروج ، ونهض لوداعى ، وبعد أن غادرت الشقة خطر لى خاطر فعدت أطرق الباب ، ولما فتحه لى بنفسه قلت له فلنقل "وبعد" فحسب ! فبدأ عليه الارتياح وعدت إلى المنزل مع تباشير الصباح الأولى .

وبعد أن سافر الدكتور رشدى تطورت الأحداث سريعاً ، إذ أعلن السادات اعتزامه زيارة القدس لصلاة العيد (عيد الأضحى) فى المسجد الأقصى ، وهو ما أصبح يسمى بالمبادرة ، واتصلت بى السكرتارية الخاصة للرئيس ، وحُدِّد لى موعد فى أوائل ديسمبر ، حيث تسلمت شريطاً عليه تسجيل صوتى للرئيس لفصل جديد يضاف إلى الكتاب العربى ، وطلب منى أن أترجمه وأرسله عن طريق السكرتارية إلى رشدى فى أمريكا . وفعلت ذلك ، فأرسل لى رشدى من أمريكا نصاً جديداً للخاتمة بالانجليزية وطلب منى أن أضاهيه بالنص العربى القديم وأن أدرج الإضافات الانجليزية بالنص العربى وأسلمه إلى الحاج أحمد يحيى ، ناشر النسخة العربية ، وصاحب المكتب المصرى الحديث ، دار النشر المرموقة .

ولم يصدر الكتاب باللفتين إلا فى إبريل ١٩٧٨ ، ولكن مجلة **Time** نشرت مختارات من الفصول الأولى للكتاب قبيل النشر الرسمى ، وجعلت أقرن النص المنشور بالمخطوط الذى احتفظ به ، فعجبت من أن المحرر الأمريكى لم يغير حرفاً واحداً ، بل لم يقرب علامات الترقيم (أى الفواصل والنقاط وما إلى ذلك) وزاد من دهشتى أنه حافظ على خطأ كنت أخطأته عندما ترجمت عبارة 'الحق والخير والجمال' فكتبت كلمة الحق بحرف كبير (كابيتال) دون الكلمتين الأخريين فإذا به يبقى على ذلك الحرف كأنما رأى فيه دلالة عميقة لم يشأ أن يجور عليها ، ولم تكن إلا سهواً محضاً .

وعندما عاد رشدى وذكرت له ذلك أبدى الدهشة وقال إنه راجع التجارب الطباعية بنفسه ، ولكن السهو وارد فى كل حالة ! ولم يكن يعلم بسرّ الكتاب إلا قلة قليلة من المقربين إلى الرئيس - طبعاً - وإلى رشاد رشدى ، وأما أنا فلقد تقاضيت أجرى من الرئاسة وفقاً للقواعد المعمول بها ، وكان قد صدر القرار الجمهورى لعام ١٩٧٨ الذى يحدد سعر ترجمة الكلمة إلى الانجليزية بستة مليمات بدلاً من ٣ ، وكان المفروض أن يمنحنى الحاج يحيى -

رحمه الله - شيئاً مقابل تصحيح النسخة العربية حسب الاتفاق ولكنه تباطأ وتلكاً ، فطلبت منه أن ينشر لى نصاً مسرحياً ، ولكنه تباطأ وتلكاً أيضاً وقال لى إن المسرح للتمثيل لا للقراءة، ولن يشتري النص أحد !

فى فبراير ١٩٧٧ عادت نهاد زوجتى من السعودية ، كما قلت ، بعد أن قطعت نصف مدة العقد للسنة الثانية أى بعد انتهاء الفصل الدراسى الأول ، وبدأنا نعيش حياة الأسرة التى افتقدناها منذ العودة من إنجلترا ، ودخلت ابنتنا سارة مدرسة بورسعيد بالزمالك (مانور هاوس سابقاً) ولم توافق مارى سلامة النازرة على قبولها إلا بعد أن اتفقت مع نهاد على العمل فى المدرسة لتدريس الأدب لتلاميذ الثانوية العامة ، وكنت أتولى اصطحاب سارة إلى المدرسة بسيارتى الفيات (١٢٨) الصفراء ، ولم يلبث أن عاد سمير وحمودة من السعودية فى عطلة صغيرة فى منتصف الفصل الدراسى الثانى (فى أول مارس ١٩٧٧) ثم عادا لاستكمال العام الدراسى ، وظللت وحدى أعمل فى كتاب السيد الرئيس ، بعد أن انتهيت من كتاب مصطفى محمود (الماركسية والإسلام) وسلمته المخطوط ، ولكنه قال إنه كتاب صغير ويود إضافة كتاب صغير آخر إليه هو لماذا رفضت الماركسية ، فترجمته بسرعة ، وأذكر أننى عندما ذهبت لتسليمه المخطوط الجديد وتسلم المكافأة على الكتابين معاً ، كان معى صديقى المستشار أحمد السودة ، وكنا فى منزله بالزمالك ، وسألنى عن الأجر المطلوب (وفقاً للقرار الجمهورى القديم) فقلت له ٢١٢ جنيهاً ، فدخل غرفة من غرف المنزل وعاد بمائتين وقال هذا يكفى ، وانصرفنا .

كنت عندما سافرت إلى دار السلام ، للمشاركة فى ترجمة وثائق منظمة الوحدة الأفريقية أتقاضى فى اليوم نحو سبعين دولاراً ، وكان الدولار له سعران ، سعر رسمى وسعر تشجيعى فيما يسمى بسوق الصرف الموازية ، أما السعر الرسمى فهو أربعون قرشاً ، وأما التشجيعى فهو يزيد على ٦٧ قرشاً ، وكانت له سوق سوداء كذلك ، ولكننى كنت أفضل تغيير الشيكات السياحية من البنك ، ومعنى ذلك أن العمل فى ترجمة المؤتمرات كان مجزياً على عكس ترجمة الكتب مهما كان كرم أصحاب العمل .

وكما سبق أن ذكرت كان عام ١٩٧٧ عام الاستقرار ، أو قل عام الحياة الجديدة التى كتب على أن أعيشها ما بين الترجمة والتأليف ، وفى مارس ١٩٧٧ اتصلت بى وزارة الخارجية وأبلغتنى أننى قد أُخْتِرْتُ للعمل بالترجمة فى مؤتمر عدم الانحياز بالهند ، وبسرعة البرق

أنهت الإجراءات الخاصة بالسفر ، وكان ذلك فى أواخر مارس ، لمدة أسبوع ، وهناك عملت مع صديقتى القديمة عصمت عبد المجيد نصر ، زوجة أحد أقربائى ، وهو جهاد الميثاقى ، وكان معنا من المترجمين محمد عبد النبى (اللغة الفرنسية) ومن الفوريين رفعت شلتوت ود . خلف الله عبد الغنى ، وعلى أبو شادى كبير مترجمى الأمم المتحدة ، وكان المؤتمر عملاً متصلاً ، وإن كان نطاقه محدوداً ، فـهر نيس مؤتمر قمة بل مؤتمر دول لجنة التنسيق للحركة فقط، ولكن زيارة الهند كانت ممتعة ، وأوحت لى بقصيدة لم تنشر إلا عام ٢٠٠١ :

فى الهند قابلت صلاح عبد الصبور الذى كان يعمل مستشاراً ثقافياً ، وقابلت أحمد الإبراشى الذى كان ملحقاً إعلامياً ، ولكن أوقاتنا كانت محدودة ، بسبب ضغط العمل ، ودعانا القنصل يسرى لحفل عشاء فى السفارة ، ودهشت عندما قدم نفسه لى قائلاً إنه أحد تلاميذى القدامى ! وفى منزل صلاح عبد الصبور قضينا ليلة رائعة فكان ينصحنا على المائدة بالإكثار من أكل اللحم بسبب رخص سعره والإقلال من الأرز بسبب غلائه ، وأسمعنا هناك بعض قصائده وناقشنا الأحوال الأدبية فى مصر ، وفى الصباح ، وكنا آخر مارس أو أول إبريل ، جاءنا من يقول إن عبد الحليم حافظ قد توفى ! كانت آخر ليلة نقضيها فى الهند ، وفى صباح يوم السفر ، تأخر 'فوزى' وهو كاتب على الآلة الكاتبة (من وزارة الخارجية) فذهبت إلى غرفته أستطلع الأمر ، فإذا به يجاهد لكى يضع فى حقائبه مابقى من الكعك و'القرص' لديه وكانت والدته قد زودته بكميات هائلة حتى تغنيه عن إنفاق النقود فى الطعام فى الهند ، وكان قد بقى معه جوال (جوالق) كامل ، ولم يكن من الممكن بعدما اشترى من الهدايا لأسرته أن يرحل عائداً إلى مصر ومعه ذلك الجوال ، فحاول حشرها حشراً فى الحقائب دون جدوى ، فاهتدينا إلى حل معقول وهو ترك جانب منها للعاملين بالفندق ، وكان فندقاً متواضعاً أصحابه فقراء والعاملون فيه أفقر ، فوافق على مضيض ، وجعل يجاهد كى يحشر ما تبقى فى حقائبه فى أكياس من النايلون .

كانت زيارة الهند تجربة فريدة، إذ كان نص الاتفاق التى عقدته مارى بنى (Penny) وهى 'المقاوله' الانجليزية التى تتولى تنظيم المؤتمرات الدولية ، يقضى بالاستعانة ببعض المترجمين المحليين، إلى جانب جهاز سكرتارية هندی خالص، بالإضافة إلى فريق الآلة الكاتبة العربية، وكان يتكون من أربعة هم فوزى المذكور ومحاسن ومديحة وفوزية، وهم جميعاً من العاملين فى وزارة الخارجية المصرية، ولذلك وجدنا معنا فى فريق الترجمة الانجليزية/

العربية شاباً في أواخر الثلاثينيات من مسلمى الهند يدعى الأستاذ 'نقوى' وقد أوضح لنا أن اسمه ذو جذور عربية، فهو مشتق من النقاء، وكان يعمل أستاذاً للغة العربية في جامعة نيودلهي، ولم يكن في فريقنا سوى عصمت وأنا، وكانت المادة المترجمة زاخرة، فأعطيته صفحة وبعض صفحة ليترجمها إلى الانجليزية وسمحت له بما يريد من وقت، ولكن عمل المؤتمرات لا يسمح بهذا الوقت في العادة فترجمتها بنفسى (سراً) على الفور وأرسلتها للطباعة والتوزيع ، وقلت لعصمت أن تتولى مراجعتها عندما يعود بها ، ثم شغلت بعد ذلك بالترجمة والمراجعة والتحرير حتى ساعة متأخرة ، وعدنا جميعاً إلى الفندق ، دون أن يظهر للأستاذ 'نقوى' أثر.

وفي اليوم التالي، وفي نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً، ونحن نستعد للانتهاء من أعمال جلسة الصباح، دخل الأستاذ 'نقوى' ومعه النص المترجم، وقدمه إلى عصمت، وكانت عصمت ولا تزال ذات نفس صافية صادقة لا تعرف المداورة ولا المراوغة، وتعبّر عن رأيها دائماً بصراحة تامة ، وتضحك مما يفيظها مثلما تضحك مما يسعدها، ولم تمض دقائق حتى سمعتها تقهقه وتصرخ، فأدركت أن الأستاذ نقوى قد 'لبّخ' تليخاً شديداً، فتناولت الورقة منها بسرعة واصطحبته خارج الغرفة ، وأوضحت له أخطاءه، وشكرته على مجهوده، ثم أعطيته نصاً انجليزيا هذه المرة وطلبت منه الانصراف. وعندما عدت إلى الغرفة كانت عصمت ساكنة ذاهلة، فسألتها ما الخبر فقالت: هل هذا هو أستاذ اللغة العربية هنا ؟ وفي الجامعة ؟ قلت لها ربما لا يكون أفضل من عندهم، ولكننى كنت مقتنعة في أعماقى بأن العربية لا تنتمى إلا لأبنائها، وقد تأكد ذلك عندما عاد الأستاذ نقوى في اليوم التالي بالنص العربى، إذ كان عدد الأخطاء التى أخطأها مذهلاً، ولو كنا صدقناه وسمحنا له بالعمل رسمياً معنا لجلب لنا المصائب، إذ اختلطت عليه بعض المعانى مثل 'الضفة الغربية' West Bank (التي ترجمها بالبنك الغربى) و'التسوية السلمية' Peaceful settlement إذ ترجمها بالمستوطنة السلمية، ولا أدري ما عساه أن يحدث لو قلنا إن البلدان العربية تطالب بمستوطنة سلمية في الشرق الأوسط!

وقبل رحيلنا بيوم اشتريت عقداً من لآلى المياه العذبة (fresh water pearls) بثمن زهيد ، ومعظم أسعار الهند زهيدة ، ولكن الدرّ غير مثقوب ، وقد نصحنى صاحب الدكان أن أستأجر شخصاً لثقبه ونظمه (أى وضعه فى دوبارة أو خيط من النايلون) فطلبت من يفعل ذلك فجاءنى ، وكان من 'الفقراء' الهنود حقاً وصدقاً ، وصحبته إلى الغرفة وكان نحيل

الجسد ضئيل الجرم يتكلم انجليزية بدائية ، وحاولت الاحتفاء به فطلبت له الشاى ، ولكنه قال إنه يعبد الماء ، وتصورت أنه يستخدم الفعل استخداماً استعارياً ، فقدمت له كوباً من الماء البارد . وإذا به يقمى ثم يركع ركعة تقترب من السجود ، ويستغرق فيما يشبه الغيبوبة حتى خَفْتُ عليه ، ولكنه سرعان ما أفاق ، وقال لى معتذراً إنه كان يصلّى لإلهه وهو الماء ، ثم تجرع ما فى الكوب وبدأ عليه الانتعاش لأن ربح الإله - فى عقيدته - قد تملكته ، فأمكنه إنجاز العمل بسرعة ، وخرج .

وعندما عدت إلى محضر سمعت أن السادت قد عاد من رحلة خارج البلاد ، وكان يتوقع من الصحف تغطية أنبائها ، ولكن الصحف كانت تحمل صور الراحل عبد الحليم حافظ ، وكان الحديث فى كل مكان يدور حول الراحل العظيم ، إلى جانب أنباء كارثة طيران مروعة فى جزر الكنارى ، راح ضحيتها ٥٧٤ شخصاً (٢٨ مارس) وبعض الأنباء التى كان البعض يتناقلها دون اهتمام مثل التحول الماركسى فى إثيوبيا بعد ثلاث سنوات من الإطاحة بالزعيم القديم هिला سلاسى . إذ كان منجستو يقبض على البلد بيد من حديد والحرب الأهلية فى أنجولا لا يهدأ لها أوار ، وتولى حكومة جديدة فى الهند بعد هزيمة إنديرا غاندى فى الانتخابات ، والعالم يبدو فى تغير مستمر . ولكننى كنت على المستوى الشخصى سعيداً بعودة سمير سرحان وعبد العزيز حمودة عودة نهائية من الإغارة فى السعودية ، واهتم كل منهما بشئون الاستقرار ، وذهبت أنا وزوجتى وابنتى لقضاء أيام معدودة فى شاطئ المعمورة ، وزرنا رشاد رشدى فى فندق فلسطين ، وذات يوم شاهدت لديه عابدة شعراوى (الدكتورة) زميلتى القديمة ومعها نسخة من أحد فصول رسالتها للدكتوراه ، وكان رشدى يقتصر الوقت المتاح له أثناء كتابة نص البحث عن الذات ، لقراءة ما يأتية به الطلاب .

وعندما عدنا إلى القاهرة وجدنا إعلاناً نشرته أكاديمية الفنون للعمل فيها ، وكانت الشروط تنطبق على نهاد زوجتى فقدمت أوراقها ، وانتظرنا بداية العام الدراسى حتى يُبْتَّ فى الطلب ، وكان المطلوب الحصول على الماجستير فى الأدب الانجليزى ، وكانت قد حصلت على هذه الدرجة من جامعة ساكس Sussex فى إنجلترا ، وتخصصت فى الدراما والرواية ، ومن ثم كانت فرصتها كبيرة عند المفاضلة مع غيرها ، خصوصاً لأنها حصلت على درجة الليسانس الممتازة ، بمرتبة الشرف ، فى الأدب الانجليزى من جامعة القاهرة .

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن بنات السيد الرئيس الثلاثة لبنى ونهى وجيهان ، كن قد

التحقن بتسم اللغة الانجليزية لدينا ، وكانت السيدة الأولى جيهان السادات قد انتهت من دراستها بقسم اللغة العربية وحصلت على تقدير ممتاز . كانت البنتان الكبيرتان تتجحان بسهولة ، فهما تتمتعان بالذكاء والاجتهاد معا ، فكانتا تحصلان على تقدير جيد كل عام ، أما الصغرى فكانت غير مجتهدة ، وكانت تتنقل بمواد 'تخلف' من عام إلى عام ، وفي العام الثاني (٧٨ - ٧٩) رسبت في أربع مواد فعادت السنة الثالثة كلها باعتبارها 'باقية' والحق أن أحداً منا لم يتعرض لأي ضغوط حتى يساعدها . ولو أنني علمت أن بعض أساتذة القسم كانوا يُستدعون إلى منزل الرئيس في الجيزة لشرح بعض ما قد يستعصى على الطالبات .

كنت قد وطلت النفس على أن أحاول كتابة مسرحية جديدة ، وكانت خبرات السفر في المؤتمرات قد بدأت تمدني بزاد لا بأس به من المادة الإنسانية ، ولكنني لم أكن قد نشرت كتباً تحمل اسمي بعد عامين من العودة ، وباستثناء ترجمة كتاب مصطفى محمود الذي ظهر بالانجليزية عام ١٩٧٧ ، إلى جانب الترجمات التي كنت أنجزتها لمجلة 'المسرح والسينما' (يوسف جوهر) ومجلة فنون (سعد الدين وهبة) والتي حضني على الانتهاء منها صديقي أمير سلامة الكاتب المسرحي والناقد النابه الذي عمل معي بعد ذلك سنوات طويلة مديراً لتحرير مجلة المسرح ، وتوفي عام ٢٠٠١ (رحمه الله) فبكيت فيه دماثة الخلق وحلاوة المعشر، لم أنشر شيئاً يذكر ولم أحقق شيئاً مما أصبو إليه ، واستسلمت للقدر وأنا أترجم البحث عن الذات ، فهو عمل ربما لن يحمل اسمي (بخلاف كتاب مصطفى محمود) بل ولا اسم رشاد رشدي بطبيعة الحال ، واجتهدت - كما سبق أن قلت - حتى انتهيت منه في أكتوبر ، ووضعت همي بعد ذلك في تأمل مواقف وشخصيات تصلح لمسرحية جديدة لا يكون مصيرها مثل مصير ميت حلاوة التي وضعتها في الدرج وقررت تجميد موقفها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولكن بداية عام ١٩٧٨ كانت تختلف اختلافاً تاماً عن أواخر العام المنصرم . كان 'حسن' (المخرج) قد اختفى اختفاءً مفاجئاً من الأكاديمية ، والحق أنني لم أكرث لاختفائه ، وعلتُ ذلك بأنه ربما ترك مصر في إعاره إلى بلد عربي ، وكنت مشغولاً بما أكتب وما أترجم، وإن كنت أحياناً ما أعجب مما يفعل ، وأجد في مفامراته تسهيرة عن الهموم التي أحملها في الكتابة وفي الترجمة جميعاً ، وكنت كثيراً ما أتذكر قصصه فأقول في نفسي ويلٌ للشجى من الخلى ، فهو مثال الفنان الخالي البال ، إذ تعلم من الحياة المسرحية والسينمائية ألا يزهق نفسه بالتفكير ، وأن يلقي خلف ظهره بأية هموم قد تنشأ من الصدام مع واقع يؤلمه ، وأن

يركز على اللحظة الراهنة فيعيشها بعمق بعد أن يضيء عليها من خياله ألواناً وظلالاً تجعلها ذات سحر أخاذ ، وفي شتاء ٧٧ - ١٩٧٨ ، كان استقرارنا العائلي قد حدد لى نمطاً جديداً من الحياة يتناقض تماماً مع حياة 'حسن' بل كنت على وشك أن أنساه حين وجدته ذات يوم جالساً في غرفة الأساتذة بالمعهد العالي للفنون المسرحية !

وكنت على وشك الانصراف بعد التوقيع في دفتر الحضور حين لمحته ولم أصدق عيني ، إذ كان يرتدى ثياباً فاخرة وشبه 'رسمية' ، وكان يمسك غليوناً غير موقد ، وإن كانت ترين على وجهه سحابة حزن تتم عن انشغال غير معهود فيه بفكر أو همّ دفين ! وعندما التفتُ إليه وخاطبته مُرحباً نهض بخفة ورشاقة فرد التحية وتبادلنا السلامات ودون وعي خرجنا معاً من الغرفة ونحن نتبادل بعض أحاديث 'السمر' (small talk) حتى وقفنا على سلّم المعهد ، فاقترب منا شاب أزرق العينين يدعى 'محمد الأزرق' ، وكان معيداً بالمعهد ويتابع دراسته في المعهد العالي للنقد الفني ، كما كان مرشحاً لبعثة في الخارج ، فسَلَّم علينا وحادثنا في أمر بعثته كأنما ليصل بذلك حديثاً كان قد انقطع منذ هنيهة ! وقلت في نفسي إن هؤلاء الفنانين لا يشعرون بالزمن، فالاستغراق في الحاضر يجرفهم دائماً إلى ما لا يبتعد به الزمن عن آخر اليوم أو الغد على أقصى تقدير، وهم دائماً ما يدورون في دوامات المشروعات الفنية التي قد لا تتحقق أبداً، ولم نكد نؤكد له ضرورة معرفة لغة البلد التي سيدرس فيها، ونحن في أعماقنا نتلهف على الرحيل - فأنا أريد أن أعرف أخبار 'حسن' ، وهو يريد أن يطلعني عليها - حتى تجمع عدد من الطلاب والمعيدين ، كان من بينهم توفيق عبد اللطيف المعيد وعبد الرحمن عرنوس المدرس بالمعهد ، وبعض الفتيات ، فاعتذرت للجميع بمشاغلي وانسحبت برقة، وإذا بحسن يعتذر بسرعة هو الآخر ويلحق بي عند أسفل السلّم قائلاً إن لديه ما يريد أن يقوله .

وسرنا معاً حول مبنى المعهد إلى الكافيتريا حيث شمس الصباح الدافئة ، واشترينا الشاي وجلسنا فقال لى 'حسن' إنه قد عاد لتوه من الاتحاد السوفييتي بعد الحصول على الدكتوراه! وكان يعرف أنني سوف أدهش لذلك فوعدني بالحديث التفصيلي في كيفية تدبير ذلك (في وقت لاحق) قائلاً إنه يفضل الآن أن يحكى لى عن مشروعاته بعد 'التأهل' ، وكيف أنه نادم على السنوات التي قضاها في الغرب، وكيف أن الاشتراكية تقدر الفن والفنانين حق قدرهم، إلى آخر هذا الكلام المعروف ، ومن ثم اقترح على أن أكتب له مسرحية فكاهية، حتى ولو كانت 'مقتبسة' ، حتى نهز الدنيا هذا ، كما قال ، لأنه يتطلع إلى موقع مرموق في مصر!

والغريب أننى صدقته ، على الرغم من يقينى بأنه 'خدن أوهام' - كما يقول الشاعر - وفرحت بما عرضه على من أسماء النجوم التى يريد أن تلعب الأدوار الرئيسية ، بل وبدأت أفكر فى النصوص العالمية التى يمكن إعدادها بحيث تمثل الفن الراقى وترضى الجمهور فى الوقت نفسه ، فقلت لى ما رأيك فى حلم ليلة صيف ؟ فاعترض على الفور ، وقال إن شيكسبير لا يصلح فى مصر ، فأخذت أستعرض معه أسماء ما أتصور أنه يصلح من مسرحيات موليير إلى مزيكات جورج فيدو ، وهو يعترض على الواحدة بعد الأخرى ، حتى وصلنا إلى نويل كاوارد البريطانى فقال إنهم أنهكوه اقتباساً ، ولكنه يتصور اقتباس مسرحية مثل ملهارة غرفة النوم للكاتب البريطانى ألان إيكبورن ولم أكن قرأتها فدهشت لإحاطته بهذا النص ، وتصورت من أن نوان أن به ما لا بد أن يثير الرقابة ، فوعده بقراءتها والاتصال به بعد ذلك . وبدأ لى أننا على وشك إنجاز شيء ما ، ففرحت وحاولت النهوض ولكنه استبقانى وقال إن لديه طلباً خاصاً ، فتوقعت طلب النقود ولكنه قال إنه يريد أن يُعين أستاذاً فى الأكاديمية وإن مستقبله معلق بتحقيق هذا الحلم ، وإنه يعرف أننى لو كلمت رشاد رشدى فسوف يستجيب ، وقلت له إننى سوف أخاطب د. رشدى فى هذا الموضوع بعد عودته من أمريكا ، لكننى لا أستطيع أن أعد به شيء محدد ، ونهضنا ، وقال لى ونحن فى الطريق إلى سيارتنا : "على فكرة .. زوجتى تسلم عليك .." وفهمت أنه يشير إلى الممثلة الشهيرة ، فسألته عن أخبارها فقال "أبداً .. إنها حامل لى" ووقفت مذهولاً وكأنما لح فى عينى شبه استفهام عن 'خطيبته' (الراقصة) فأسرع قائلاً "قصدك اسمها إيه ؟ لا .. دى سافرت مع الفنون الشعبية للعراق ولا تريد الرجوع لى" وساد صمت قصير قال بعده ضاحكاً "لكن فيه غيرها لى لا بد من تعدد القنوات لى" ولم أستطع تمالك نفسى من حب الاستطلاع ، فهذا رجل لا يهدأ ولا يكل ولا يمل ، فسألته مباشرة عن هذه الجديدة ، فقال إنها لا تزال 'مشروعاً' وإنها تعلم أنه متزوج وتعرف كل شيء عن طباعه ، أى إنها تدخل الطريق 'مفتوحة العينين' . وسألته إن كان ينتوى الاقتران بها ، فقال نحن مقترنان فعليا ولا ينقصنا إلا شقة مناسبة لى ثم تكلم فى شبه تأمل حزين قائلاً : "الموضة اللى طالعين فيها اليومين دول يا سيدى .. اكتب لى ورقة لى كأن الورقة دى سر الحياة لى" وأفهمته أننى أختلف معه فى نظرتى للمرأة ، فرد بسرعة "يا حبيبى افهمنى لى تقنين العلاقة يقتلها .. وأنا مع برتراند راسل فى 'الحب الحر' (free love) .. إذا وضعت قيوداً عليه تبقى قتلته .. وأستاذك رشدى يقول إن الحب شعلة لازم

تنطفى .. المهم أنك تولّع شعلة ثانية.. وبسرعة ! وخراقة إن القلب لا يتسع إلا لواحدة لا بد من قهرها ! وبعدين التغيير هو سنّة الحياة ..“ وقلت له إنه لا يقبل ذلك مع زوجته ، فكيف يقبله لنفسه ، وقال وهو يركب السيارة ”أنت بريطانية أثرت عليك أكثر من اللازم .. بكرة أثبت لك وجهة نظري ! بس أنت شد حيلك وكلم رشدى !“ وانطلق بالسيارة .

وكدت أنتوى أن أفاتح رشاد رشدى فى الموضوع فعلاً لولا أنه عندما عاد كانت فى انتظاري تقبات فى العلاقة لم أكن أتوقعها .



لا أدري أسباب الجفوة المفاجئة التى حدثت فى دائرتنا الضيقة (inner circle) بعد عودة رشاد رشدى من أمريكا ، ويبدو أنها أسباب ترجع إلى الأكاديمية، إذ كان رشدى قد أحاط نفسه بعدد من الموظفين المداهنين مثل حسين مهران، وأحمد الفخرانى، وعاصم عباس، وغيرهم ممن كانوا يؤحون إليه بضرورة التخلّى عن أبنائه القدامى (ثلاثتنا - سمير وحمودة وأنا) وبالاتقاض على أساتذة الأكاديمية بيد من حديد، ولم يكن رشدى - للحق والتاريخ - يصفى إلى نصائحهم دائماً أو يعمل بها، ولكنه لا شك قد تأثر فى إدارة الأكاديمية بآراء مستشاريه، فبدأ الصدام بينه وبين فوزى فهمى وإبراهيم حمادة ، وكانا عميدى للمعهد العالى للنقد الفنى وللمعهد العالى للفنون المسرحية (على الترتيب) ، ولما كان قد استصدر من رئيس الجمهورية قراراً جمهورياً بمد العمل له رئيساً للأكاديمية أربع سنوات (من ١٩٧٦ - ١٩٧٩) وذلك بعد سن المعاش (التقاعد) الذى كان بلغه قبل سنوات فقد زيّن له مستشاروه اتخاذ قرارات فردية أغضبت الأساتذة، وكان أكبر صدام له مع إبراهيم حمادة (رعهمما الله) إذ كان كل منهما ذا ذات منتفخة، وكان كل منهما يتمتع بثقة لا متناهية فى نفسه . وكنت أتصور بعد العمل الذى جمعنا فى الكتاب وما يسمى 'بعشرة العمر' القديمة ألا أجد نفسى طرفاً فى هذا الصراع، ولكننى أحسست بجفاء لا يمكن أن تخطئه العين تجاهى، وشعرت بأن بعض الأيادى تعمل على الخشاء على التفريق بيننا. حتى كان كأننا يتحاشى النظر إلى داخل الكلية، ووصلت الأمور - لا أدري كيف - إلى ذروه عجيبة، إذ استصدر هؤلاء منه قراراً يقضى بمنع

من التدريس فى أكاديمية الفنون يوم ١٧ مايو ١٩٧٨ ولم يكن قد بقى على انتهاء العام الدراسى إلا أيام معدودة ، وعندما ذهبت إلى محاضرتى فى ذلك اليوم قال لى زكى معاون المعهد ” آسف! لى قرار بمنعك من الدخول من باب المعهد العالى للنقد الفنى “ والتفت الطلابُ حولى وأرادوا أن ألقى المحاضرة فى الهواء الطلق ولكنى اعتذرت . وكانت الممرارة شديدة، وعندما عدت إلى المنزل وجدت ما يدعو لمرارة أشد! لقد أرسلوا طلباً إلى نهاد زوجتى برده مبلغ ١٠٢ جنيه مقابل الساعات الإضافية التى كانت قد عملتها فى المعهد العالى للفنون المسرحية طيلة العام الدراسى بحجة أن رئيس الأكاديمية لم يوافق على انتدابها للتدريس .

كانت أحوالى المالية مرتبكة فى تلك الأيام ، ولكن النجدة جاءت من السماء . إذ اتصل بى أمين بسيونى ، وكان رئيس صوت العرب آنذاك ، وقال إنه يريد حلقات إذاعية بعنوان الحب والحرب ، وسرعان ما كتبت أول خماسية عن أنطونيو وكليوباترا ، وتقاضيت آخر الأسبوع مبلغ ١٢٠ جنيهاً (من أصل ١٥٠ - ناقص الضرائب) . وسددنا الأموال ، وأرسلت نهاد زوجتى إلى رشاد رشدى خطاباً شخصياً تستكر فيه ذلك الإجراء ولكن الأزمة كانت قد تخطت الحل ، إذ قام الزبانية بإحالة فوزى فهمى إلى التحقيق فى النيابة الإدارية . واستدعيت أنا وسمير سرحان للشهادة فى القضية ، وكانت التهمة هى تغيير المناهج دون استئذان وبطبيعة الحال أوضحنا الحقيقة لوكيل النيابة ، فأمر بحفظ القضية ، ولو أن الجماعة لم يسهلوا وظلوا يمارسون تخريبهم فى الظلام .

بذل البعض عدة محاولات للإصلاح ، وأذكر أننا اجتمعنا أنا وسمير ورشاد رشدى فى غرفته القديمة بقسم اللغة الانجليزية ، وتصافينا تصافياً عاطفياً ، وقال له سمير إن طباعنا تختلف عن طباع هؤلاء الموظفين ، وقالها بالانجليزية مستخدماً تعبير (our chemistry) وضحك رشدى وإذا بالبواب يفتح ويدخل الفخرانى الذى كان فارغ الطول أصلع الرأس . ووراءه مهران وعباس ، فكان ذلك إيذاناً بانفضاض الاجتماع ، فلم يكن هناك ما يرجى تحقيقه فى وجودهم.

وشهد عام ١٩٧٨ حادثة غريبة ، وأكاد أقول فريدة ، إذ كان الخلاف قد دب بين وزير الثقافة والإعلام آنذاك عبد المنعم الصاوى وبين سعد الدين وهبة ، وقيل إنه بسبب التنافس فى انتخابات مجلس الشعب ، ولكن الوزير استصدر قراراً قضائياً بإنهاء عمل سعد وهبة أى

إحالاته إلى المعاش ، وكان وكيلاً أول لوزارة الثقافة ، وكذلك زوجته سميحة أيوب ، بتهم تتعلق بإدارة وإنشاء شركة خاصة للإنتاج الإعلامى والثقافى (أى الفنى) هى شركة 'فجر' . وفى آخر ليلة من ليالى عرض مسرحية ست الملك بالمسرح القومى (تأليف سمير سرحان) وكانت سميحة أيوب تلعب دور البطولة فيها ، وقفت على المسرح بعد خاتمة المسرحية تخاطب الجمهور وألقت مونولوجاً جمل الأيادى تلتهب بالتصفيق لها والفضب من قرار إحالتها إلى التقاعد .

وشجعتنى تقديم مسرحية ست الملك على أن أتقدم إلى هيئة المسرح بمسرحية ميت حلاوة، وكان كمال يس متحمساً لإخراجها ، وبدأت الخطوات التنفيذية ، فأرسل المسرح الحديث ، الذى كان يرأسه محمود عزمى ، نص المسرحية إلى الرقابة ، وذهبت إلى المسرح الذى كان مكانه فى مسرح الجمهورية الحالى ، فقابلنى مخرج يدعى جمال الشيخ ، وقال لى أنا بصراحة ضد هذه المسرحية ! وسألته عن السبب فقال إنها "ضد السادات !" وأنكرت ذلك بشدة وقلت له كيف انتهيت إلى تلك النتيجة العجيبة ؟ فقال إن 'غريب' بطل المسرحية هو الرمز الحى للسادات ! وانطلق يقول "إنه غريب عن الثورة ، وهو إذن رمز الانتهازى الذى يدمر تركيبة الجمعية التى ترمز بها إلى الثورة !" وقلت له إن ذلك تفسير غير مقبول ولا مبرر له إلا فى ذهنك ! وانصرفت مغضباً ، وبعد أيام معدودة قابلت المخرج رشاد عثمان الذى كان يريد إخراج المسرحية وقال لى "إلحق ! الرقابة رفضت النص !"

وأهرعت فى صباح اليوم التالى إلى منزل سمير سرحان القديم فى روكسى بمصر الجديدة، وأبلغته ما سمعت ، وكنت مهتاجاً ثائراً ، فقال لى هدئ روعك ! سوف نمضى معاً إلى الرقابة ! وخرجنا إلى رقابة المصنفات الفنية فى الطابق الثالث بمبنى جريشام الذى تقع فيه هيئة الاستعلامات ، وبمجرد أن سألتناه عن النص قيل لنا "آه ! المسرحية المرفوضة ؟" وكانت تلك الكلمات كالسهم فى جانبي ، ولكننى تذرعت بالصبر ، ودخلنا إلى مكتب مدير الرقابة ولا أذكر من اسمه إلا 'رضوان' ، فرحب بنا ، وكان فى المكتب محمد شيعه (الدكتور) وسيدة فى مقتبل العمر تدعى فاطمة ، وناقشناه فى أسباب الرفض ، فأطلعنا على التقرير الختامى وتقارير الرقباء الستة ، وأهمهم ممثل يدعى محروس الجارحى ، وكان قد كتب يقول إن المسرحية 'ضد النظام' وانتهى إلى العبارة التى هزّتنى هزاً "ولو كانت هناك عقوبة أقسى من المنع لطبقناها على المؤلف !"

واستتكرت ما جاء فى التقارير وكان سمير سرحان ينصحنى بالتريث والهدوء، وأخيراً قال رضوان ما يعتبره خلاصة التقارير ألا وهو أن المسرحية شيوعية! وغامت الدنيا فى عينى فعلاً وأحسست بدوار خفيف، حتى إننى لم أستوعب كل ما قاله سمير، إذ جعل يشرح لرضوان أن جمعية الصيادين التى هى جزء من الجمعية الزراعية والصناعية إلخ لا ترمز لشيء، وإنما هى معالجة ساخرة لسوء فهم الاشتراكية وتطبيقها تطبيقاً بالغ السوء، فقال رضوان: ولكنك لابد أن توضح ذلك فى النهاية بصريح العبارة حتى لا يختلط الأمر على الجمهور فيتصور أنك تؤيد هذا الضرب من الاشتراكية! فقال سمير: وهذا هو ما فعله عنانى فى آخر المسرحية فعلاً! فقال رضوان: أين ؟ فرد سمير بسرعة: لابد أن صفحة وقعت! والتفت إلى بسرعة وقال لى هل تذكر ما جاء فى تلك الصفحة يا عنانى ؟ وأدركت ما يرمى إليه فقلت بسرعة: نعم! فقال إذن اكتبها فوراً من الذاكرة! وأخرجت قلماً من جيبى والتقطت ورقة من المكتب وبسرعة البرق كتبت صفحة 'الإيضاح' التى أستتكر فيها مساوى الفهم والتطبيق! وعندها ابتسم رضوان بسمة عريضة، وقال لمدام فاطمة أن تحضر خاتم الرقابة لإجراء اللازم، ولكنها قالت إنها تخصص سينما، وإن شيعة لديه الخاتم ، وفعلاً تم المطلوب وتمت كتابة خطاب موافقة الرقابة. وخرجنا بعد ساعات من التوتر وأنا أشعر بزهو انتصار نادراً!

ولكن لجنة المسرح (فرقة المسرح الحديث) لم تأخذ برأى الرقابة ، وأحال محمود عزمى (تحت ضغط جمال الشيخ وغيره) نص المسرحية إلى الوزير للبت فى صلاحيتها للعرض . ولم يكن لى من سبيل إلى الوصول إلى الوزير ، وبينما أنا فى خضم هذه الحيرة وصلنى استدعاء من الدكتور محمود الشنيطى - رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب - للمساعدة فى ترجمة شيء ما ، وعندما دخلت المكتب قابلنى ضاحك السنّ ، وأعطانى الخطاب المطلوب ترجمته ، وعجبت من هذا الطلب ، فهو خطاب عادى والدكتور محمود يجيد الانجليزية ، ولكننى فعلت ما طلبه ، وما كدت أفعل حتى اقترب منى وجلس وجعل يقول فى شبه همس : 'إيه حكاية ميت حلاوة ؟' وفهمت على الفور أن ذلك هو الهدف الحقيقى للزيارة ، فاعتدلت فى مجلسى وحاولت استجماع جميع نقاط الدفاع عن النص وتنظيمها قبل عرضها - فهذه محاكمة ولا شك ! ولكننى قبل أن أتمكن من الردّ على ما توقعته من هجوم فوجئت به ينهض ويحضر ملفاً من درج مكتبه ويضعه بيننا على المنضدة قائلاً : "فيه كام حاجة كده عايزة نظرو.." وانتظرت أن يعرض تلك الأشياء ، وبدأ يتصفح المسرحية المنسوخة فى المسرح على الإستسل - أى

نسخة الإخراج لا النسخة التي كنت قدمتها للرقابة - ولم أستطع مقاومة التطلع إلى الخطوط
انتى وضعها تحت بعض العبارات ، ومضت ثوان مفعمة بالتوتر الشديد ، ويبدأ لى الانتظار
دهراً طويلاً ، أنقذنى منه رنين جرس التليفون . وما كان أشد دهشتى حين سمعته يقول :
”أيوه أيوه فاهم ! ما هو معاى هنا ! يعنى انت مستعد تخرجها ؟ طيب طيب ..“ وضحك
ضحكة كبيرة وهو يقول لى بعد أن وضع السماعة ”ده كمال يس !“ وحمدت الأقدار على
التدخل فى الوقت المناسب . واستمر قائلاً ”براءة يا عم .. ممكن تبدأوا التجارب !“

كنت لا شك أشعر براحة عميقة ولكن حب الاستطلاع دفعنى إلى سؤاله عن ”الأمياء“
التي ”فيها نظر“ ، فقال ”يعنى .. حاجات زى ’الوحدة الفكرية‘ .. والرمزية اللي ما لهاش
لازمة .. ماله الحب والفرام والحاجات الحلوة .. ؟ ليه الرمزية بس ؟“ وألقى نظرة سريعة
على النسخة الموضوعة على المكتب ثم قال ”أنا عملت لك قائمة مؤقتة .. لكن ده مش تدخل
ولا حاجة .. يعنى المخرج يمكن يطلب منك تعديل كلمة هنا وكلمة هناك .. وانت عارف
الأحوال !“ قال ذلك برقة لم أعهد لها فيه ، ونهض ليعلن انتهاء المقابلة .

وخرجت سعيداً ، فالدكتور محمود الشنيطى هو رسمياً نائب وزير الثقافة ، والوزير يثق
فيه ثقة مطلقة ، ومعنى الموافقة أن الطريق أصبح معبداً لإخراج المسرحية ، ولكن خاب ظنى
كما سوف أشرح فيما بعد . يكفى أن أقول هنا إن صيف عام ١٩٧٨ كان يحمل المزيد من
المفاجآت ، وكان أولها فى مايو حين جاءنى استدعاء من منزل الرئيس السادات ، فذهبت
متوقفاً أن أسأل عن بعض أمور قسم اللغة الانجليزية حيث تدرس بنات السيد الرئيس ، ولكن
السيدة جيهان السادات استقبلتني فى الصالون استقبلاً شبيه رسمى ، وجاءت الفتيات فسَلَّمْنَ
وخرَجْنَ ، ثم فاتحتنى السيدة الأولى فيما عشاها تدرسه للماجستير فى الأدب المقارن ، وفى
مجال الشعر على وجه الخصوص ، قائلة إنها سمعت أننى متخصص فى الشعر الرومانسى
الانجليزى ، وأننى ترجمت بعضه (وقد عرفت فيما بعد أن مصدر المعلومات كان مجدى وهبة
رحمه الله) . وحدثها باستفاضة عن المجالات المتاحة من وجهة نظر الأدب المقارن حين يكون
المدخل هو الأدب العربى لا الأدب الانجليزى ، ومكثت ساعة أو بعض ساعة وانصرفت .

كانت المقابلة ودية إلى أقصى حد ، وكانت تتناقض تماماً مع مقابلات كبار موظفى
الدولة، فتفاءلت ، وكنت أتوقع السفر إلى لوساكا ، عاصمة زامبيا ، فى اليوم التالى ، فأعددت

حقيبتى وودعت الأسرة ، ولحقت بفريق الترجمة فى المطار حيث ركبنا طائرة مصر للطيران إلى نيروبي، حيث يجب تغيير الطائرة، وكان فريق الترجمة يتكون منى، ومن أن مارى جريس، وسميرة عبد السيد، وفتاة فى العشرينيات من وزارة الخارجية (للآلة الكاتبة العربية) اسمها لىلى عبد الحليم، وأخرى تعمل فى الميريديان (للآلة الكاتبة الفرنسية) اسمها إيثيت اسكندر . وكان باقى أعضاء الفريق قد اتجهوا قبلنا إلى لوساكا وهم : كمال عزت ، الذى سافر مباشرة من روما ، وعبد الرحيم شلقامى (الآلة الكاتبة العربية) الذى سافر مباشرة من آديس أبابا حيث يعمل بصفة دائمة ، وشوقى الكيلانى الذى كان فى مؤتمر آخر . سافر منه إلى لوساكا . كان ذلك يوم السبت ، وكانت الطائرة تطلع بعد منتصف الليل ، ووصلنا فجر الأحد إلى نيروبي ، فى نحو الخامسة صباحاً . وتساءلنا عن الطائرة التى سوف نركبها إلى لوساكا ، وكانت تابعة لشركة طيران إفريقيا الشرقية ، ولكننا لم نجد إنساناً نسأله ، إذ كانت عطلة الأحد بادية فى كل شىء ، فالمكاتب مغلقة . وبعض الأشخاص من أبناء إفريقيا نائمون هنا وهناك، ولم نجد بدءاً من إيقاظ أحد،هم ، فاصطحبنا إلى مكتب الموظف النبطشى (النوبتجى) وكان يغالب النعاس ويجرجع القهوة ، وحادثناه بالانجليزية فلم يبدُ عليه الفهم ، فحاولنا الفرنسية ولم تكن النتيجة أفضل ، وكدنا أن نياس حين دخلت فتاة نشيطة حادثتنا بالانجليزية فقلنا فُرجتْ! وعندما شَرَحَتْ لها سميرة عبد السيد ما نحن فيه من حيرة ضحكت وقالت : آسفة! شركة طيران إفريقيا الشرقية أفلست ! لا توجد طائرات ! وتسمرنا لحظات فى أماكننا، إذ تصورنا جميعاً أنها لا يمكن أن تكون جادة ، ولكن الأمور كانت قد تعقدت فعلاً لأن الأحد عطلة مقدسة، والسكون يخيم على المطار ، ولا أحد هناك أو يمكن أن يظهر قبل الضحى!

وتذكرت أن لى صديقاً هو توم هيتون الانجليزى الذى كان يعمل فى محطة الإذاعة البريطانية فى نيروبي ، وكنا ما زلنا نتراسل وفى مفكرتى رقم التليفون ، فتركت الفريق فى القاعة المقفلة التى بدأت تغزوها أضواء سماء ملبدة بالغيوم ، وذهبت إلى كابينة التليفون وطلبت العامل فوافق على إجراء المكالمة مقابل دولار واحد فنقدته إياه وخاطبت توم فأيقظته من النوم وشرحت له الموقف فقال لى : ”لا تقلق ! سوف أكون لديك حالا !“ وبعد انتظار طال فأمعن فى الطول لمحت توم هيتون داخلاً ومعه شخص فارغ الطول كأنه الجنى الذى خرج من القمقم ، وعرفنى توم به قائلاً هذا هو مدير المطار ! وعرفت فيما بعد أنه كما نقول هنا ’ناظر المحطة‘ ، المهم أنه شرح لى أن إفلاس الشركة معناه أن تتولى مصر للطيران إنزالنا

فى فندق حتى يتسنى إيجاد مكان لنا على طائرة إفريقية أخرى من الشركات المتعاقدة مع مصر للطيران، وكان ذلك 'الحل الرسمى' معناه ضياع يوم على الأقل ، وأما الحل بغير الرسمى الذى اقترحته آن مارى جريس فهو أن نشتري لنا تذاكر على أى طائرة متجهة إلى لوساكا ثم نطالب بالثمن فيما بعد ! وقالت سميرة عبد السيد : نطالب المنظمة به ؟ أم مصر للطيران ؟ فقلت إننا فى ورطة وإذا كان ثمن التذكرة زهيداً فلا يهم، وبدأنا نرصد ما لدينا من نقود سائلة فوجدنا ما يكفى أربعة أشخاص ولا يكفى خمسة، مما جعل هذا الحل مستبعداً ، وهكذا لم يبق سوى الحل الرسمى، واقترح توم هيتون أن نتصل بمصر للطيران فوراً، وتولى هو الاتصال، وخرج مع 'ناظر المحطة' لإجراء اللازم، بعد أن وعدنا بالرد علينا بعد قليل.

وفى نحو الواحدة ظهراً جاءنا من يخبرنا أن هناك طائرة خاصة ستقوم فى الخامسة من نيروبي إلى لوساكا ، وأن مندوب مصر للطيران سوف يأتى لالتهاء من الإجراءات ، وأنا مدعوون للغداء على حساب الشركة فى بوفيه المطار ، وعاد توم هيتون مع زوجته چاكى ، وجلسنا نتسامر حتى نحو الثالثة ، ثم انصرفا ، وكان التعب قد بلغ بى مبلغه ، فنفوت قليلاً وفتحت عينى على صراخ سميرة عبد السيد ، إذ كانت الطائرة قد وصلت وكان الناس يتدافعون إليها ويتزاحمون بالمناكب ، وكان الزحام أشد مما تحتمله السيدات ، وكان لابد أن نتقدم بـ 'يعاً' وأنا "كالقاهرة" فنشق طريقاً وسط الحشود نحو الباب - وأنا أذافع الحشد الصاخب صائحاً صارخاً ، وفعلنا ذلك مما تطلب قدرًا كبيراً من الجهد البدنى حتى وصلنا إلى الطائرة ، وهناك طُلب إلينا أن نتعرف على حقائبنا حتى توضع فى الطائرة ، وساد الهرج والمرج واشتد الصياح والصراخ ، إذ إن أحدهم شاهد غلاماً يختطف حقيبة ظنها الراكب من متاعه وينطلق بها إلى حيث يعلم الله ! ولكننا نجحنا جميعاً فى العثور على المتاع وتأكدنا من تحميله على الطائرة وانطلقنا إلى لوساكا.

أما ما حدث فى لوساكا فروايته قد تستغرق صفحات طويلة ، ولقد أفردت لحادثة المطار هاتين الصفحتين لأنها حادثة تكررت كثيراً على مدى السنوات العشرين الماضية ، وأكاد أقول فى كل مؤتمر أعمل فيه فى إفريقيا ، ولكننى سأكتفى بما حدث فى الليلة الختامية للمؤتمر ، إذ كان ينبغى كتابة التقرير بالعربية والانجليزية والفرنسية ، ولجنة التنسيق لتحرير إفريقيا كانت اللجنة الأساسية لمنظمة الوحدة الإفريقية التى تتولى متابعة نشاط حركات التحرير فى شتى البلدان الإفريقية ، وقد أتاح لى العمل بالترجمة فى مؤتمراتها أن أزور

بلداناً إفريقية كثيرة ، وكان ما حدث فى الليلة الختامية لا يختلف هنا عما شهدته فى بلدان أخرى كثيرة .

كان المترجم الفورى كمال عزت يترجم من الفرنسية إلى العربية فى الكابينة ، وسامية خلاف تترجم من العربية إلى الفرنسية ، وأن مارى جريس من الانجليزية إلى الفرنسية وبالعكس، وسميرة عبد السيد من العربية إلى الانجليزية ، وشوقى الكيلانى من الانجليزية إلى العربية ، وأنا المترجم التحريرى الوحيد فى الفريق ! وكان المفروض أن يتولى الإفريقيون إعداد النص المطبوع الأصيل بالانجليزية والفرنسية وأن يترجمه أحدنا (وكنتم أنا ذلك الشخص) من إحدى اللغتين إلى العربية . وكان المفترض أن يكون النص قد اكتمل قبل بداية الجلسة الختامية - كما هو الحال فى شتى المؤتمرات العربية والعالمية - وكان علينا أن نستقل الطائرة عائدين من لوساكا إلى نيروبي فالقاهرة فى الساعة صباحاً ، وهكذا كان المفترض أن تكون الجلسة 'جلسة شكلية' (a formality) أو جلسة ختامية رسمية لا تتأخر عن الثامنة أو التاسعة مساءً، ولكن الذى حدث هو أننا بعد أن انتهينا من التقرير بالانجليزية والعربية ، (ولقد شاركت مترجماً إفريقيا نابهاً اسمه 'قوصى' فى صياغته بالانجليزية) ، وبعد أن وافق عليه السفراء ، بدأ الوزراء فى الجلسة العامة يعترضون على فقرات منه ويقترحون إبدالها بفقرات جديدة ، وكانت الفقرات الجديدة تملأ على كاتب الجلسة أثناء الاجتماع ، فإذا كانت بالفرنسية ترجمها كمال عزت وأعطى النص إلى إيڤيث اسكندر وإذا كانت بالانجليزية ترجمتها أنا ، وعبد الرحيم شلقامى جالس إلى الآلة الكاتبة ينسخها بهمة ونشاط ، ومرت ساعات المساء ودخل الليل ، وبدأ على أعضاء السكرتارية الإفريقى التعب ، وبدأ النعاس يتسلل إلى عيونهم (مثلما تسلل إلى عيون كثير من المندوبين فى القاعة) ، ولم أعرف سر ذلك إلا حين وجدت صناديق الجعة الإفريقية مكدسة بجوار مكاتبهم ، وانتصف الليل والجلسة صاخبة ، والإفريقيون ينامون الواحد بعد الآخر ، وكانت إيڤيث اسكندر تكتب ما يأتى بها كمال عزت ، وشلقامى يكتب ما أمليه عليه ، وتوغل الليل حتى الهزيع الثانى فلم يبق يقظاً إلا نحن المصريين ، ولكننا لم نستسلم حتى انتهينا من التقرير فى الخامسة صباحاً .

وعندما عدت إلى القاهرة كان أول ما سألت عنه هو ما حدث للمسرحية ، وكان الرد هو أن الأستاذ محمد لمى رئيس هيئة المسرح ، وهو ضابط سابق بالجيش ، قد رفض تقديمها على المسرح ، وعندما زرناه أنا وسمير سرحان فى المكتب بشارع عبد الخالق ثروت قال لنا

بلهجة عسكرية ”لقد أمرت بوقف التعامل مع هذه المسرحية الشيوعية ا“ وعندما شرح له سمير أن المسرحية تنتهى بتصحيح الصورة وذكر مساوئ عدم الفهم الصحيح للاشتراكية وسوء التطبيق، قال بلهجة استنكار وصوت مدو : ”يعنى تيجى فى الآخر وتقول كلمتين بعد ما يكون الناس اتحوّلوا ؟“ وخرجت منكس الرأس، فاقترح سمير أن أنشر المسرحية . ولكننى عرفت صعوبة ذلك آنئذ، فقررت أن أعيدها إلى الدرج وأنتظر ما تأتى به المقادير!

وفى أواخر عام ١٩٧٨ تبسّمت الدنيا بعض الشيء !



فى أغسطس ١٩٧٨ طرّق الباب طارق فى السادسة صباحًا ، وجاءت إلى نهاد تخبرنى بأنه - فيما يبدو - ’عسكرى‘ ولو كان يرتدى الزى المدنى ، فقفزت من الفراش قفزًا وكنا فى رمضان ، وكنا نسهر مثل جميع أهل القاهرة آنذاك حتى الفجر ، ثم لا نهض حتى الضحى ، وإن كنت أنا وما زلت أستيقظ قبل إشراق الشمس ، مهما بلغ السهر ، وأهرعت إلى الباب فوجدت شابًا يتكلم بلهجة عسكرية ولم يزد على أن قال : ”موعدك الساعة الواحدة ظهرًا“ وانصرف . ونظرت إلى نهاد فى دهشة ولم أكن أقل منها دهشة ، وقلت فى نفسى ”لقد تأخر زائر الفجر هذه المرة ! والله زمان !“ ولم أخفِ قلقى من هذا الطارق ، وطمأننت نهاد وقلت لها سواء أكان هناك ما يسوء أم لا فلا بد من إجراء تحقيق لأن عهد المعتقلات ولّى إلى الأبد ، وسواء أكان الذى أبلغ السلطات هو أحد زبانية رشدى أم لمعى أفندى فسوف أثبت براءتى . وقالت إنها ستذهب لوالدها ، وسوف تتوقع منى اتصالاً تليفونيًا قبل الإفطار إذا سار كل شئ على ما يرام ، وألا فسوف تعرف أنتى ما زلت رهن التحقيق ، وليست كتابة المسرحية بالجريمة النكراء ، فانا لم أنشرها بعد ، ولم يثبت أن بها معارضة للنظام ، مع أن النظام يسمح رسميًا بالمعارضة ، وعلى أى حال فكلها ساعات معدودة ، ولكم سبق لنا الانتظار !

وفى الواحدة تمامًا دق الجرس فخرجت ، وكانت نهاد تخفى قلقها ، وذكرت أن ليليان زوجة لطفى الخولى كانت تعد له حقيبة فى مثل هذه الحالات ، ولكننا كنا متفائلين ، وانطلقت بى السيارة - وكانت سيارة مدنية عادية - وما كان أشد دهشتى حين دخلت السيارة منزل

رئيس الجمهورية فى الجيزة) ووجدت ترحيباً من الرائد عبد العظيم 'مشرف المنزل' الذى ساقنى إلى الصالون ، وهناك جاءت السيدة جيهان السادات ورحبت بى ثم انتقلنا إلى غرفة مكتبها ، وبدأنا مناقشة مشروع رسالة الماجستير ، واندمجنا فى الحوار ، وتشعب الحديث وتلّون ، فبهرنى ما تتمتع به من صبر وقدرة على التفكير المتأنى ، ولما كنا فى رمضان فلم يكن يقاطعنا من اعتدناهم فيما بعد من حاملى صوانى عصير الليمون والقهوة ، واستمرت المناقشة حتى الرابعة ، فطلبتُ أن أتصل بزوجتى فى شبرا بالتليفون ففهمتُ من ذلك أننى أريد الرحيل فقامت وأوصت السائق بتوصيلى إلى شبرا ولكننى فضلت أن أذهب إلى المنزل فى المهندسين ثم أذهب إلى أصهارى فى شبرا بسيارتى الخاصة .

كانت تلك بسمه حانية من القدر فى أحلك لحظات حياتى، فلا شك أن معرفة السيدة الأولى والإشراف على دراستها الأكاديمية ولو من الباطن يمكن أن ينجيني من أمثال الرقباء الذين يطالبون برقبتي، وذهبت إلى شبرا وهمست لزوجتى بسر الاستدعاء الصيفى، وعندما انتهى رمضان وجاء العيد، أحسنا بأن لدينا ما نضرح به حقاً، فتلميذتى هذه المرة ذات موقع مرموق فى الدولة، وكنت فى مسيس الحاجة إلى مثل هذه التلميذة المجتهدة، خصوصاً بعد أن أنستُ فى أسئلتها وخلال المناقشة مدى جدية مطلبها، ومدى حذبها على العلم والعلماء. ولم أعرف سر استدعائى فى ذلك الوقت تحديداً إلا عندما ذاعت أنباء سفر الرئيس إلى الولايات المتحدة لإجراء المفاوضات حول جلاء إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة، والتي بدأت فى أوائل سبتمبر ١٩٧٨ وانتهت بتوقيع اتفاقيتى كامب دافيد فى ١٨ من ذلك الشهر بوساطة الرئيس جيمى كارتر. وعندما عاد الوفد المصرى، استدعيتُ مرة أخرى وتكررت اللقاءات.

كنت فى تلك الآونة قد يئست أو كدت من 'الإفراج' عن مسرحيتى ميت حلاوة وكان حلمى القديم بإعادة إصدار مجلة المسرح ما زال يراودنى ، ففاتحت سميع سرحان فى الموضوع، ولكن جو وزارة الثقافة كان متجهماً ، وكان من الواضح أن تغييراً ما لابد أن يقع دون أن ندرى كيف ، فاقترح سميع إنشاء مجلة خاصة - أى مجلة تابعة للقطاع الخاص ، وكانت اللوائح تنص على أن إصدار أى مجلة خاصة يجب أن يكون تحت عباءة جمعية مسجلة ومعترف بها ، فتفتق ذهنه الخلاق عن إنشاء نادٍ للمسرح يصدر مجلة بعنوان نادى المسرح ، ومن ثم بدأنا العمل ، وكانت قضية سعد الدين وهبة وسميحة أيوب قد حسمت لصالحهما وعاد كل منهما إلى منصبه السابق ، فاجتمعنا ذات يوم فى أكتوبر فى غرفة الأستاذة سميحة

فى المسرح القومى (الأزبكية) واقترحنا تشكيل النادى برئاستها ، فهى علم من أعلام المسرح ، وكان مجلس إدارة النادى يضم سمير سرحان وفوزى فهمى وجمال سلامة (وهو أخو مرفت سلامة الناقدة والمذيعة التليفزيونية وزوجة فوزى) والفنانة محسنة توفيق ، ومن الشباب أسامة أبو طالب (الدكتور) وشخص كنت أراه لأول مرة اسمه مرسى نويشى (اتضح لى فيما بعد أنه أفاق كبير) .

كانت مغامرة إصدار المجلة ممتعة ، إذ عقدنا أول اجتماع لهيئة التحرير التى كان على رأسها سمير ، وتضمنى مع فوزى نائبين له ، وتضمن أسامة سكرتيراً للتحرير ، وذلك وفقاً للأقدميات الجامعية ، وبدأ سمير العمل فاتجهنا إلى دار روز اليوسف حيث قابلنا مندوب إعلانات هذ ذا ذهن وقاد يدعى أنور حجازى واتفقنا معه على الحصول على إعلانات من بعض الشركات . وكان أهمها شركة مصر للطيران ، بحيث تغطى تكاليف العدد الأول والغريب أن حجازى المذكور كان كفيفاً ، وبعد ذلك عقدنا 'اجتماع تحرير' (نحن الأربعة) فى فندق ميريديان (الجديد) واتفقنا على مواد العدد ، وحددنا يناير موعداً لصدوره ، وكنت أتأمل حينذاك اختلاط مفاهيم المسرح فى مصر والتفرقة بين العرض المسرحى وبين أدب المسرح (الدراما) حين وقعت حادثة الانتحار الجماعى لطائفة 'معبد الشعب' الأمريكية ، وخلصتها أن جماعة دينية متطرفة يرأسها شخص يدعى جيم جونز ، واسمه الكامل جيمس وارن جونز، وكان يقول إنه كاهن ، اتخذت من غيانا فى أمريكا الجنوبية مقاماً لها ، وكانت تضم الشباب بصفة أساسية ، وكانوا يتزوجون بحرية فيما بينهم ، ولديهم أطفال من مختلف الأعمار ، وكان ذلك المتطرف قد أقنعهم بترك ممتلكاتهم من "عرض الدنيا الزائل" والتفرغ للعبادة تحت مظلة تعاليمه (التي لم يكشف عنها النقاب أبداً) وعندما قام أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى واسمه "ليو رايان" بزيارة أمريكا الجنوبية للتحقيق فيما قيل من أن بعضهم كان محتجزاً رغم أنه ، قتله بعض أعضاء الجماعة يوم ٢٠ نوفمبر ثم انتحر الجميع بتناول السم، وكان عددهم ٩٠٩ (تسعمائة وتسعة) بنسائهم وأطفالهم بعد أن دعاهم القسيس الزائف إلى الرحيل معه إلى العالم الآخر وأطلق الرصاص على رأسه .

وقرأت تحقيقاً فى مجلة أمريكية آنذاك تقول إن جونز المذكور كان متحدثاً بارعاً وممثلاً موهوباً ، وإن طقوس الجماعة كانت مسرحية فى جوهرها ، بعد أن عثر المحققون فى الحادثة على كتيبات تركز على الطقوس والشعائر التى تتضمن حركات وأقوالاً وموسيقى يشهدا

الجميع ويشاركون في أدائها ، وكان العمل المسرحي أو 'فنون الأداء' - كما نسميها اليوم - من صلب ممارسات العبادة لديهم ، فاتخذت من هذه الحادثة نقطة انطلاق للتفرقة بين المسرح أو فنون الأداء وبين الدراما ، وكتب فوزى دراسة عن المسرح الروسى ، وكتب سمير دراسة عن مسرح السبعينيات فى أمريكا ، وكتب أسامة دراسة لمفهومه عن البطل التراجيدى من وجهة نظر الإسلام .

واكتملت المادة فى ديسمبر - وكانت من بينها دراسة رائعة للمدارس المسرحية الحديثة كتبتها نهاد صليحة زوجتى (طورتها فيما بعد وطبعتها مستقلة بعنوان المدارس المسرحية المعاصرة) وذهبنا إلى دار نشر مغمورة اسمها 'دار الهنا' فى شارع متفرع من شارع الصحافة وربما كانت مطبعة وحسب ، فجمعت المادة بالتىبو (اللينوتيب) وصُحِّحت ، ثم طُبِعَ الغلاف الملون ، وبه ثلاثة إعلانات ، وصدرت مجلة نادى المسرح فى أول ١٩٧٩ ، وكان سعر النسخة ٢٥ قرشاً . واصطحبني سمير غداة صدور العدد الأول إلى أماكن التوزيع فوجدنا أن عدد المباع لم يزد على سبعين نسخة ، فقررنا القيام بالدعاية اللازمة ومحاولة الحصول على المزيد من الإعلانات وتعريف أهل المسرح بالمجلة الوليدة .

وفى أواخر ١٩٧٨ أنشأت جريدة الأهرام صفحة خاصة بالثقافة ، واختلف المسئولون بالجريدة حول من يتولى الإشراف عليها هل توفيق الحكيم أم ثروت أباظة ، وكان لكل منهما أنصاره ، فتوفيق الحكيم عَلمَ لا يَنَازَعُ فى مكانته ولكنه هَرِمَ مَهْدَمٌ ولا يستطيع ممارسة العمل الصحفى ، وثروت أباظة كاتب كبير وله نفوذه وأنصاره ، ومن ثم استقر رأى على أن يتولى أحد الصحفيين المحترفين تنفيذ الصفحة حتى يحسم الخلاف ، ووقع الاختيار على فاروق جويادة ، الشاعر ، فهو شاب وصحفى محترف ، ومن ثم بدأت الصفحة فى الظهور ، وبدأت تملأ الفراغ الذى أحدثه اختفاء المجلات الأدبية ، ونُشرت فيها مقالات لكبار الكتاب ، وسرعان ما بدأ سمير سرحان ينشر فيها مقالات متنوعة ، وظهر لى أول مقال طويل بالعربية منذ عودتى يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٨ ، وفى أواخر ذلك العام أيضاً دعينا أنا وزوجتى نهاد إلى حفل زفاف جمال السادات فى منزل الجيزة ، كما دعى إليه كثير من أساتذة كلية الآداب، ووجدت فى الحفل الكثيرين من المعارف الآخرين ، ورحبت بنا السيدة الأولى خير ترحيب وفق تقاليد أم العريس المضرية ، ولما كانت قد سجلت لدرجة الماجستير بإشراف سهير القلماوى وكنت الوحيد (باستثناء رشاد رشدى) من قسم اللغة الانجليزية الذى دعى إلى حفل

الزفاف فقد بدأت الشائعات عن مشاركتي في الإشراف من الباطن ، وإن كان دورى مقصوراً في تلك المرحلة على لقاءات دورية لشرح نصوص شلى ، وكان مجدى وهبة هو الذى يراجع ما تكتبه 'الطالبة' مع سهير القلماوى ، ولكن النشر فى الأهرام كان الترويج الحقيقى لعام ١٩٧٨ .



كان حلم تقديم المسرحية على المسرح ما فتئ يراودنى ، وإن كان قد أصبح الآن بعيد المنال، لسبب آخر لا علاقة له بالرقابة، وهو اختفاء ممثلى المسرح فى استوديوهات اليونان والخليج العربى لتصوير المسلسلات. واقتراح على أحمد زكى المخرج أن أقدم نصاً لشيكسبير إذ لن تعترض الرقابة عليه، بل ويمكن تصويره تليفزيونياً، واقتراح مسرحية زوجات ممرحات* (واسمها الأصيل زوجتان ممرحتان من ضاحية وندسور) بسبب شخصية فولسطاق الكوميديّة، كما اقترح تمصير النص أى تحويله إلى نص مصرى عربى بمعنى أن تصبح الشخصيات مصرية تتحدث اللغة العربية المصرية لا الفصحى التى هى لغة كتابة لا لغة حديث، وقال إنه يتصور أن يصبح اسم البطل فنطاس باشا مثلاً؛ وراقنتى الفكرة، فعكفت على النص أترجمه إلى تلك اللغة التى يطلق عليها وصف العامية وإن كانت 'عامية المثقفين' - كما يسميها السعيد بدوى - أو 'العامية الجزلة' كما يسميها محمد مندور. وكانت التجربة طريفة وبالغة الثراء، فلغة النص الكوميدى لدى شيكسبير 'عامية' فى معظمها، والمضاهاة بين لغتى الحديث هنا وهناك شاقة وعسيرة ، خصوصاً عند إعادة صياغة 'الموقف' الدرامى التى قد تستلزم ما يوازى علمياً إعادة الكتابة بمعنى إعادة التأليف! وفى هذه العملية يختلط النقل بالإبداع فى علم الترجمة الحديثة (Translatology) إذ لا يُعقل أن تظل الكلمات كما هى حين تغيير الشخصيات عند التحول من بيئة إلى بيئة، و'فنطاس باشا'، وهو هنا من زعماء المماليك، لن يتحدث اللغة التى يتحدثها فارس من عصر النهضة، وإن كان تراث العصور الوسطى يجمع بينهما، وكان أمامى خياران : إما أن أصبّ شخصية 'فولسطاق' فى شخصية 'فنطاس باشا' فتخرج الشخصية المحلية العربية غير صادقة لبيئتها وتراثها، وإما أن أعطى

الحرية للشخصية الجديدة فى أن تتحرك وفقاً لمقتضياتها الخاصة ، وقد فضّلت الخيار الأول - على ما به من مثالب فنية - لأننى كنت ما زلت كاتباً مسرحياً 'جديداً' ، ولأن الخيار الثانى كان معناه 'اقتباس' المسرحية الأصلية أو استلهاها فى كتابة نص جديد وهذا هو ما يحدث فى الواقع فى كل ترجمة ، وإن كنت لم أدرك ذلك آنذاك ، ولم تكن لدى جرأة نعمان عاشور فى ترجمة عطيل - وهو ندر تراجيدى شيكسبيرى - إلى اللغة العربية المصرية (العامية).

وبدأت المشاكل بالعنوان . فكلمة merry تعنى المرح فعلاً، ولكنها هنا تعنى 'الجدعنة' ، على نحو ما نرى فى المصطلح الانجليزى The more, the merrier أى 'البركة فى العدد' أو فى مصطلح the merry men of England أى 'جدعان الانجليز' أو ذوو الشهامة فكلمة merry من الكلمات الانجليزية التراثية ، وإطلاقها على الزوجتين تحمل إلى جانب المرح معانى تمتزج فيها صلابة النفس بالاعتزاز بالشرف ، ولكن المسرحية كانت قد عرفت بهذا العنوان بالعربية (زوجات وندسور المرحات) ولم تكن هناك فائدة من تحرى الدقة العلمية فى ترجمة هى فى جوهرها إعادة صياغة . وصادفتنى بعد ذلك صعوبات كثيرة عالجتها فى الكثير من كتبى عن الترجمة بالانجليزية والعربية ، منها الوزن والقافية ، إذ أحياناً ما يكمن فى هذين العاملين سر النص بحيث يتجاوز معناه معنى الألفاظ ، وهنا كان على أن أحوّل كل أرجوزة إلى مثل لها أو مقابل عربى ينقل قوة الوزن والقافية ، فعندما يحاول 'فولسطف' مراودة زوجة السيد 'فورد' (الذى أسميته ورداً فى التمصير) عن نفسها ويرسل لها خطاباً يحاول فيه إثبات شاعريته ، وما هو بشاعر ، يخرج لنا أبياتاً سخيفة نضحك منها ، وذلك أساساً بسبب اعتسافه طريق الوزن والقافية ، فهو يوقع الخطاب قائلاً :

Thine own true knight

By day or night

Or any kind of light !

وقد ترجمتها على النحو التالى - حفاظاً على روح الفكاهة :

فارسك المختار

بالليل والنهار

وسائر الأنوار !

ولم أجد ما يبرر محاولة نقل المعنى المنشور كأن أقول ، فارسك المخلص الأمين ، مثلاً ، بل ضحيت بذلك فى سبيل بحر الرجز والقافية ، فالكاتب ما كان ليكتب السطر الأخير لو كان شاعراً يحسب حساباً لكل لفظة ، وقس على ذلك ما جاء فى النص من أغان وأراجيز .

وانتهيت من الترجمة بسرعة ، وأعددت نسخة على الآلة الكاتبة ، وقرأت النص على زوجتى نهاد صليحة أولاً ثم على سمير سرحان وزوجته نهاد جاد فاقترح الجميع تقديمه إلى المسرح الكوميدي ، وكان يرأس الفرقة ممثل ومخرج ذو شعبية كبيرة هو السيد راضى . وزرت السيد راضى فى منزله بالمهندسين ، وعرضت عليه الفكرة وتركت له نسخة من المسرحية ، وسرعان ما حدد موعداً لبدء التجارب المسرحية (البروفات) فى مسرح الحكيم القديم ، وكان مقره مبنى مسرح محمد فريد الذى ضاع الآن من أيدي وزارة الثقافة ، وعندما ذهبت لحضور البروفة الأولى، مررت بتجربة لا أعتقد أنها تكررت فى حياتي المسرحية بعد ذلك .

اجتمعت الفرقة، وبدأ السيد راضى بتقريع الممثل محمود القلعاوى لكثرة تخلفه عن العمل فى مسرح الدولة وانشغاله بمسرح القطاع الخاص والمسلسلات ، وألقى ما يشبه الخطبة عن ضرورة الالتزام بالواجب الفنى لمسرح الدولة، ثم بدأت الممثلون يقرأون الأدوار ، فاكتشفت أن السيد راضى لم يقرأ النص قبل تلك اللحظة ، وكان الممثلون يعترضون أحياناً على بعض العبارات فيقول كلاماً يثبت أنه لا يعرف ما سيحدث، وعندما انتهى الفصل الأول (أو الجزء الأول) بوضع فنتاس باشا فى سلة الفسيل ضحك ضحكاً شديداً وقال لى: 'حلوه دى ده حجة باوف' (وقد أدركت أن كلمة 'بلوف' قد تكون تحويراً للإنجليزية bluff ولكن معناها اختلف، فهى لا تعنى 'الخدعة' بل تعنى حركة مسرحية بارعة تقوم على الخداع). وكانت التجربة المسرحية (البروفة) الأولى فاشلة بكل المقاييس فالممثلون كانوا يقرأون النص لأول مرة ، وكان الشخص الذى أسندت إليه البطولة (واسمه أبو زيد) سخياً بتعليقاته ضئيلاً بفضه ، فكان يكثر من ضرورة وضع إفيه (من الفرنسية effet بمعنى فكاهة) هنا ، والحديث عما يضمن هنا سوكسيه (من الفرنسية succès بمعنى التصفيق) وكان ثقل ظله دافعاً على الانقباض العظيم .

وبعد البروفة انتحى بى السيد راضى جانباً وأفهمنى أنه يريد منصباً مرموقاً لقاء إخراج هذه المسرحية ، وقد حُيِّلَ إليه آننى أستطيع مساعدته فى ذلك ، بسبب الشائعات ، ويبدو أنه كان يريد أن يصبح رئيساً لهيئة المسرح ، ولقد تحقق له ما أراد بعد نيف وعشرين سنة ، فى

عام ١٩٩٢ ، وأذكر عندما طُرد كرم مطاوع من رئاسة هيئة المسرح بسبب خلافات سوف أعود إليها في حينها ، وعُيّن السيد راضى رئيساً للهيئة ، أن قال لى حامد شاكر المدير الإدارى لمسرح الأزيكية إن الهيئة بهذا التبديل تشبه من يطلق الزوجة ست البيت ليتزوج الخادمة ! ولكن الذى حدث هو أن السيد راضى نجح فى إدارة الهيئة حين تولاهما وساعدته الظروف فى تقديم موسم مسرحى ناجح ، ولكن تجربتى الأولى معه كانت محزنة ، فالممثلون مبتدئون ، لا يستطيعون قراءة الكلام المطبوع ، والحس الفكاهى لديهم شبه معدوم ، ولا يتصورون أن الجمهور سوف يضحك إلا على الفكاهات اللفظية أو ما نسميه 'بالتهريج' بالعامية ، ربما من صفة 'القرعاء' حين توصف النكتة بأنها قرعة (بالعامية) .

وأعدت المسرحية إلى درج مكتبى ، ولم أتصل بعد ذلك بالسيد راضى ولم يتصل هو بى، وذات مساء فى صيف ١٩٧٩ ، ونحن نجلس أنا وسمير ونهاد جاد ونهاد صليحة فى حديقة المسرح العائم بجوار كوبرى الجامعة ، وصل حمدي غيث - الممثل والمخرج الشهير - وفتح موضوع المسلسلات ، وجعل يدافع عن اندفاع الفنانين إلى الخارج للتصوير ، قائلاً إنها ظاهرة صحية ، وإن المسرح بصورته القديمة أصبح وهمًا ، وأن زمان إخراج المسرحيات الكبيرة قد انقضى ، وعلى الجميع أن يسايروا التيار ، واحتدم النقاش وكنت قد عدت لتوى من أول مؤتمر دولى يعقد فى أوروبا ، وهو مؤتمر التنمية الريفية والإصلاح الزراعى فى منظمة الأغذية والزراعة (روما) وكان معى مترجمان هما عمرو أحمد وعمرو وسعيد مطر ، وقد أوحى لى وجودهما معى وما قصّاه على من قصص بعدة أفكار تدور حول جدلية النفس - إن صح هذا التعبير - كما تعرفت لأول مرة على الأستاذ أسعد حليم ، المترجم العظيم ، وعلى غيره من العاملين الدائمين أو المؤقتين بالمنظمة مثل سمير عفيفى - الذى أكثر من الإشارة إليه فى كتبى عن الترجمة - وعلى حنفى سليمان وعبد الرزاق إبراهيم ، وأحمد فؤاد بليغ ، ومحمود يونس (الذى عملت معه فيما بعد فى المنظمة العالمية للأرصاد الجوية فى جنيف) وغيرهم .

أما جدلية النفس فأقصد بها التناقض الكامن فى نفس كل إنسان بين عالمه الخاص بأحلامه ورؤاه وهمومه وبين عالمه العام وهو الدور الاجتماعى الذى يضعه لنفسه ويؤديه مرتدياً قناعاً أو عدة أقنعة، وزادتى قراءتى لكتابات كارل جوستاف يونج (Jung) عالم النفس النمساوى الشهير، إيماناً بهذه الجدلية الباطنة، وتصورت أننى لو أخرجت العالم الخاص من نفس الإنسان وألبسته ثوباً آدمياً (شخصية أخرى) لمواجهة العالم العام أو القناع

الاجتماعي فلا بد أن يحدث صدام من ثون ما، ورأيت أن ذلك ما يفعله كبار كتاب الدراما منذ أقدم العصور، ولنا أن نتصور مثلاً أن 'ناجو' في مسرحية عطيل يمثل جانب المخاوف والغيرة الكامن في نفس عطيل، وأن شيكسبير يخرجنا لنا في هذه الصورة المجسدة حتى نراه رأى العين، ويظل عطيل أمامنا - حتى في أحاديثه الفردية (المناجاة) ممثلاً للجانب الواعي فقط من شخصيته، ومعنى هذا أن ياحو يمثل ما لا يعيه من عدم الثقة في حب ديدمونة له بسبب لونه أو بسبب تقدمه في السن مثلاً. وإذن فقد يكون 'الخاص' هو اللاوعى ويكون العام هو 'الوعى' فإذا كانت نتيجة الصدام دامية خرجت لنا المأساة، وإن أمكن التصالح خرجت ملهاة!

وأعدت النظر في بعض مسرحيات شيكسبير فوجدت أن الوعى واللاوعى قد يتبادلان الأدوار، بمعنى أن الشخصية التي تمثل اللاوعى قد تقترب كثيراً من الوعى فتصبح ممثلة له والعكس بالعكس، ومن هذا المنظور فإن البطل ونقيضه (foil) قد يكونان وجهين لعملة واحدة، وأمكننى من هذه الزاوية أن أتصور مواقف يُرغم فيها البطل إرغاماً على مواجهة اللاوعى لديه، مجسداً في شخصية أخرى ومن ثم شرعت في إعادة كتابة مسرحيتي القصيرة السجين والسجان حيث التبادل واضح بين الدورين، ثم كتابة مسرحية أخرى هي الصديقان - كانت أول وآخر مسرحية تنشر لى في مجلة المصور القاهرية بعد أن أرسلها سمير سرحان دون أن يستشيرنى إلى صبرى أبو المجد رئيس التحرير الذى قرأها فأعجبه ونشرها في عديد من التوالين. ولم ألبث أن كتبت مسرحيتين أخريين من نفس المنظور هما البحيرة حيث تجسد اللاوعى في امرأة، والصديقتان، وفيها تتبادل الشخصيتان دور الوعى واللاوعى، وكانت هناك شركة الإنتاج التلفزيونى العربى، مستشارها الفنان كمال الطويل، ولديها لجنة قراءة من كبار النقاد، فاقترح سمير تقديم بعض هذه المسرحيات إليها، كما قدمت نهاد صليحة مسرحيتها الأولى المؤلفة في ضوء القمر (وكلها من فصل واحد ولا يزيد عدد شخصياتها عن ثلاثة) إليها، وقام سمير العصفورى بإخراج البحيرة وفي ضوء القمر في تونس وصورهما التلية زيون وأذاعهما.

وفى خضم انشغالى بهذه المسرحيات انقصيرة كان سمير مشغولاً بكتابة نص جديد هو امرأة العزيز، وكانت الصورة التي تلح على ذهنه فيها (بعد شخصية الحاكم بأمر الله في ست الملك) هي شخصية الرجل الذى يسعى للمجد فيدوس في سبيل ذلك أعز أصدقائه وأقرب الناس إليه، ولكنه كان يستعبد فكرة إغواء امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، فاستوحاها

فى تصوير غواية زوجة الباشا لشاب تبناه ورياه ، ولكن الرقابة فطنت للتشابه وأصر الرقيب على حذف الكثير من المسرحية بل وتغيير عنوانها إلى ررض الفرج . وكان سمير قد كتب مسرحية أخرى قصيرة من فصل واحد للتليفزيون أخرجها كرم مطاوع وصورتها فى اليونان . فتوثقت علاقة سمير بكرم وكان من الواضح أنه هو الذى سوف يخرج ررض الفرج . ولما كان سمير يدرك كل الإدراك أن النجم (نجم الشبابت) أى الممثل ذائع الصيت هو القادر على اجتذاب الجماهير ، فقد اقترح أن يقوم فريد شوقى بهذا الدور على المسرح . فضلاً تلافى الجميع فى منزل سمير بروكسى ، وسهرنا نناقش المسرحية وأبدى فريد شوقى إعجابه الشديد بالدور ، وانصرفنا ظانين أن المسألة قد حسمت ، كما اقترح كرم مطاوع أن يلعب أحمد زكى (الممثل) دور الشاب ، وتعددت لقاءاتنا معه ، ولكن أجور هيئة المسرح المتواضعة لم تقنع أيهما بالاشتراك فى المسرحية .

وكنا آنذاك فى خضم معركة لم نحسب لها حساباً وهى معركة وزارة الثقافة نفسها ، إذ كان الوزير منصور حسن - داعية الخصخصة - قد اقترح إلغاء الوزارة وإبدالها بمجلس يمثل قطاعات الثقافة المختلفة ، وهاجمنا تلك الفكرة فى العدد الثانى من مجلة المسرح . كما هاجمها كثيرون ممن ساءهم تردى الأحوال الثقافية فى المسرح وفى غيره . فكان صلاح عبد الصبور الذى عين رئيساً للهيئة العامة للكتاب خلفاً للدكتور محمود الشنيطى (الذى تقاعد ببلوغ السن القانونية) يخاف على مستقبل النشر فى مصر ، قائلاً إن الهيئة هى الوحيدة القادرة على نشر الموسوعات والأعمال العلمية الجادة التى لا تستهدف الربح ، ومنها موسوعة الدكتور ثروت عكاشة عن الفن التشكيلى وترجماته لأوفيد وغيره ، وكان الخوف كل الخوف من زوال هيئة المسرح - الملاذ الأخير لهذا الفن العظيم - ومن زوال هيئة الآثار والثقافة الجماهيرية وما إليها من هيئات لا يمكن تعويضها لا من القطاع الخاص ولا بمجلس الثقافة الذى حل محل المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية . ولكن رشاد رشدى أرسل مقالاً نشر فى صفحة الثقافة الوليدة فى الأهرام يقول فيه إن أكاديمية الفنون يمكن أن تحل محل وزارة الثقافة، فرد عليه سمير سرحان بمقال يقول فيه إن الأكاديمية هيئة تعليمية ونطاقها مقصور على فنون معينة ولا يشمل سائر أنشطة وزارة الثقافة .

وقابلت صلاح عبد الصبور ذات يوم عن طريق المصادفة البحثه (وكل منا فى سيارته الفيات ١٢٨ فى زحمة مرور أمام كوبرى الجلاء - قبل بناء النفق) وسلمته نص ترجمتى

الانجليزى لمسرحيته مسافر ليل وكانت معى فى السيارة بعد كتابتها على الآلة الكاتبة ، ثم مضت كل سيارة لحال سبيلها ، ومضت أيام قبل أن نتلقى أنا وسمير وفوزى فهمى دعوة لحضور اجتماع يعقده منصور حسن - وزير الإعلام والثقافة وشئون رئاسة الجمهورية - لمناقشة إلغاء الوزارة ! وكان الاجتماع يضم معظم المثقفين العاملين فى هذا المجال ، أو هذه المجالات ، وشاهدت إبراهيم نافع الذى كان ينتظر تأكيد تعيينه رئيساً لتحرير الأهرام يتابع الحوار باهتمام ، وكان حواراً ساخناً تسوده العصبية ، إذ كان المجتمعون ينادون بما يشبه الإجماع بضرورة الحفاظ على الهيئات الثقافية ، فالتحول من الاشتراكية (رغم أن الدستور ينص عليها) إلى الرأسمالية لا يعنى إلغاء إشراف الدولة ومساعدتها للعمل الثقافى ، وقال أحدهم إن أمريكا ليست فيها وزارة للثقافة ورد آخر بأننا لسنا أمريكا ، وقال ثالث إن بريطانيا بها مجلس للفنون وهو ما نريد من المجلس الأعلى للثقافة أن يكونه ، فقلت له إن بها وزيرة للثقافة والفنون اسمها جوديث هارت ، فقال ثروت أباطة ”يعنى لابد من وجود وزير !“ وأخيراً قال منصور حسن ”وهو كذلك ، سيبقى الوزير“ وبعد الاجتماع العاصف جاءنى صلاح عبد الصبور متلهلاً وقال إنه قرأ الترجمة وإنها أعجبتة كثيراً وضحك قائلاً إنه يبحث لها عن ناشر ! وضحكت معه ، وخرجنا جميعاً بعد أن وعد الوزير بإعداد صيغة لتشكيل المجلس الأعلى للثقافة بحيث لا تتعارض مع هيئات الوزارة القائمة ومع الإبقاء على منصب الوزير واختصاصاته .



ولم نكن فى ذلك كله بمنأى عن الأحداث المتسارعة من حولنا عربياً ودولياً ، فقد كان ختام عام ١٩٧٨ ختاماً أيضاً لحقبة كاملة من تاريخ المنطقة ، لم يكن السعى فيها للسلام ينفصل عن غيره من القضايا الحيوية ، خصوصاً قضية الشعب العربى الفلسطينى ، وكانت الدول العربية تخشى أن يؤدى توقيع المعاهدة المرتقبة للسلام إلى فصل قضية استرداد الأرض المصرية المغتصبة عن القضية الفلسطينية ، على الرغم من إصرار السادات على الربط بين القضيتين وخصوصاً إقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس ، وتجلى ذلك عند إعلان

فوز السادات ومناحم بيجين بجائزة نوبل للسلام ، وإعلان ذلك فى أوائل ديسمبر ١٩٧٨ ، وكانت الثورة على أشدها فى إيران حيث استمرت المظاهرات طيلة ذلك الشهر ضد الشاه ، مما جعله يفادر البلاد ويأتى إلى مصر فى آخر يناير ١٩٧٩ ، كما توفى الرئيس عوارى بومدين فى أواخر ديسمبر ٧٨ ، فبدأ عهد جديد فى الجزائر ما زلنا نشهد آثاره ، وما إن وصل آية الله الخومينى إلى إيران فى فبراير ١٩٧٩ حتى ظن الجميع أن عهداً جديداً مشرقاً قد بدأ ، وكانت كل هذه المشاغل موضع اهتمام المثقفين على اختلاف مشاربهم .

وأذكر أننا كنا ذات يوم فى زيارة للفنانة سميحة أيوب فى منزلها ، وكان لديها مجموعة من الفنانين والمثقفين أذكر منهم محمد عودة وفيليب جلاب وفريد شوقى وعزت العلالي وسمير صبحى (من الأهرام) وزوجته إخلاص (الثقافة الجماهيرية) وسمير سرحان ونهاد جاد وأنا ونهاد صليحة ، وغيرنا من أعضاء نادى المسرح بمناسبة صدور العدد الثالث من المجلة ، ولن أنسى النقاش العنيف الذى دار حول تلك القضايا جميعاً ، وأدهشنى التماؤل الشديد بالثورة الإيرانية ، وكانت حرب أخرى تدور فى إفريقيا إذ غزت القوات التزانية (التي يدعمها الغرب) أراضي أوغندا واستطاعت الاستيلاء على العاصمة كمبالا فى أواخر مارس ١٩٧٩ ، واضطر عيسى أمين إلى الفرار منها ، بعد أن تكبد الجيشان خسائر فادحة ، وقد نوقش ذلك كله فى حفل سميحة أيوب ، وإن كانت بؤرة المناقشة هى توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ٢٦ مارس ، واجتماع الدول العربية فى بغداد يوم ٣١ مارس ١٩٧٩ لإعلان مقاطعة مصر ، وبذلك تحققت مخاوف الكثيرين من وقوع غربة ثقافية للكثيرين من أبناء مصر الذين يعتبرون مصر قلب الأمة العربية النابض .

وقال فيليب جلاب إن هذه كارثة ، وانطلق يتحدث عن مغبة تقطيع الوشائج الثقافية بين مصر والعالم العربى ، بينما كان محمد عودة يعرب عن جذله لطرد شاه إيران وإنهاء الحكم الملكى الدكتاتورى وبداية عصر جديد ، وكنا نتبادل الآراء حول هذا وذلك حين سمعنا ضجيجاً فى الغرفة المجاورة للصالة ، وإذا به فريد شوقى ينتقد رشدى أباطة ويصرخ قائلاً إنه ليس فنناً ، وجمل يردد "أرونى دوراً واحداً يدل على عبقرية فى الأداء ؟" وكان عزت العلالي يهدئ من ثائرته ويطيب خاطره ويقول له أنتما أحباب ، وما بينكما من ود لا يقطعه 'التنافس' ، وما إن سمع فريد شوقى كلمة 'التنافس' حتى عاد لثورته ، وأنكر أن رشدى

أباطلة لديه ما ينافسه به ، وتدخل الحاضرون وهذا الموقف بعد عناء شديد ، وسينا فى غمرة ذلك كله أن نحتفل بالعدد الثالث والأخير من المجلة !

ومع تباشير الصيف ، ومع دهشتنا لانتخاب مارجريت ثاتشر رئيسة لوزراء بريطانيا، فى أوائل مايو ١٩٧٩ ، جاءنى عرض للعمل فى روما بمنظمة الأغذية والزراعة (بالترجمة والمراجعة) لمدة شهرين! وقبلت فوراً وما أن انتهت الامتحانات حتى شددت الرحال إلى روما، وكان ذلك فى أوائل يوليو، حيث بدأت سنوات الترحال إلى أوروبا فى الصيف، والتي استمرت حتى هذه الأيام ، وإن حلت عواصم أخرى محل روما ، ولن أنسى فرحتى حين تركت حقيبتى فى الفندق وخرجت أنشق عبير المساء وكان ذلك يوم الأحد أول يوليو ١٩٧٩، وظللت أسير فى شارع تراستيفيرى حتى النهر، ووقفت أنظر نهر التايبر (Tivere = Tiber) بعدما قرأت عنه فى صباى المبكر فى مسرحية أنطونيو وكليوباترا لشيكسبير، وحفظت ترجمة لويس عوض للسطور التى ورد فيها ذلك الاسم ، قبل أكثر من عشرين عاماً

Let Rome in Tiber melt and the wide arch

Of the ranged empire fall ! Here is my space.

ألا فلتذب روما فى نهر التايبر ! وليتهاو صرح الامبراطورية الشامخ ! إن مكانى هنا !

كانت أشجار الأرز الأوروبية تنتظم فى صفوف على جانبي النهر ، والناس يسىرون فرادى وجماعات كأنهم يحتفلون بجمال الصيف ، ومررت فى آخر الشارع بمنزل دانتي (Casa Dante) وقد أصبح مكاناً أثرياً يشهد بعبقريه شاعر إيطاليا القديم ، وظللت أسير حتى غريت الشمس فعدت ونمت وقد نسيت العالم والثقافة وكل شيء !

وشغلت نفسى طوال الصيف بالترجمة نهاراً ، وقراءة المطبوعات المتخصصة فى المساء ، واكتساب المعرفة فى أثناء ذلك بمصطلحات العلوم الزراعية التى هى علوم الحياة ، إذ اكتشفت أن معرفتى باللغة الانجليزية - على طول ما أنفقته فى تعلمها - تفتقر إلى الإحاطة بمصطلحات هذه المعارف الحيوية ، من بيولوجيا وكيمياء وفيزياء ، ولكل منها فروعها المتصلة بالزراعة من قريب أو بعيد ، وكان العلماء المصريون من أوائل من عربوا مصطلحاتها وأشاعوها فأصبحت عربية راسخة ، وأصبحت معرفتها لازمة لمن يريد أن يتابع مسيرة العلم

فى القرن العشرىن وتطوره من يوم لىوم ، خصوصاً ونحن بلد زراعى ، ولدىنا تراث معرفى خصب حافل فى هذا المجال ، ولكن العلم الحديث قد استحدث الكثير ولا مناص من الإلمام به . واكتشفت أيضاً أن المترجم الذى لا يخوض تلك العلوم المتخصصة سوف يظل عاجزاً عن فهم الكثير مما يقرأ ، حتى فى الصحف الأجنبية والمجلات السيارة ، والترجمة فى المؤتمرات السياسية يكفىها العلم بمصطلحات السياسة والاقتصاد ، فلها رطانة خاصة (jargon) أى عبارات ثابتة تتكرر دائماً ولا تكاد تزيد من حصيلة المترجم ، والترجمة الأدبية لها أصولها التى تبيح التحرر من الحرفية فى الإشارة إلى دقائق الموضوع ، وأما الترجمة العلمية فهى فن مختلف ، وغايتها هى الدقة والوضوح وإحكام نقل المعنى مهما بدا عسيراً أو عصياً المأخذ . ومن ثم أعددت كراساً لى أدون فيه ما يصادفنى من مصطلحات حتى أحسست فى آخر الصيف أننى قد اجتزت دورة تدريبية مبدئية فى الترجمة العلمية ، وعرفت فى غضون ذلك كيف تنتقل تلك المصطلحات إلى اللغة اليومية ، وكيف تشكل ما يسمى باللغة العامة فى الحديث وفى الكتابة .

لقد كانت 'دورة تدريبية' مكثفة حقاً ، فكان سمير عفيفى رئيس القسم يكلفنا بالعمل أحياناً فى عطلة نهاية الأسبوع ، ولما كنت أعجز أحياناً عن استجلاء معنى مصطلح من المصطلحات فقد بدأت التردد على الزملاء من العاملين فى القسم العربى ، وكانوا يمثلون بلداناً عربية مختلفة ، فكان من بينهم المصرى مثل سمير عفيفى وحنفى سليمان وعبد الرزاق إبراهيم ويسرى سلطان ، والسورى مثل لؤى جمعة ومحمد صقر . واللبنانى مثل حبيب يزيك ، والعراقى (الكردى) زهير عبد الملك ، والجزائرى مثل الأزرق بن علّو ، والسودانى مثل الفاتح أبو سمرة ، والفلسطينى مثل عدنان عنبّتاوى ، وانضم فيما بعد مصرى ظل حتى سن التقاعد وهو إبراهيم طه معاذ ، والمصرى (صديق دار السلام) إبراهيم الخضرى الذى استقال هو والمصرى عمرو صالح ، بعد عدة سنوات ، والمصرية ناهد الجمل التى استقالت أيضاً بعد عدة سنوات (وهى والدّة هبة صالح التى تعمل فى هيئة الإذاعة البريطانية حالياً) . وكان العمل فى هذا القسم نموذجاً للتوحيد العربى للمصطلحات العلمية ، وهو هدف لم تتجح جامعة الدول العربية فى تحقيقه ، فكان من المحال على قارئ نص من النصوص أن يستدل على 'القطر العربى' الذى ينتمى إليه المترجم ، فالكل يكتب لغة واحدة هى العربية المعاصرة الموحدة . أو ما نسميه Modern Standard Arabic والكل يستعمل المصطلحات نفسها ، وكان سمير

عفيى رئيس القسم قد بذل جهوداً مضنية فى هذا السبيل ، فكان يجتمع بالمتخصصين فى العلوم الزراعية من شتى البلدان العربية ويستقى منهم ما يتفقون عليه من مصطلحات ، والكثيرون منهم يحضرون مؤتمرات المنظمة فى روما ، بل ويعمل بعضهم فيها (فى شتى الأقسام) أو يعمل ممثلاً لها فى بلدان أخرى ، وبعد ذلك تبدأ مرحلة إشاعة المصطلح المتفق عليه فى مطبوعات المنظمة ، حتى إذا استقر ولاقى القبول فى البلدان العربية أدرج فى معجم مصطلحات خاص بالفرع الذى ينتمى إليه ، وهكذا اعتدنا مصطلح الألياف التخليقية (synthetic fibres) بدلاً من الصناعية تحاشياً للخلط بينها وبين (industrial) والخشب الرقائقى (plywood) الذى نسميه 'أبلكاش' بالعامية ، وقس على ذلك مئات المصطلحات التى تعرضت لها فى كتبى عن الترجمة .

ومن مزايا توحيد المصطلحات أن أصبح العلماء يلتزمون بما اتفقوا عليه نشداناً للتفاهم الكامل وللتفكير والبحث العلمى المستقل باللغة العربية ، ولذلك نبغ من علمائنا العرب فى الزراعة من ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأوروبية بيسر وسهولة ، إذ لا غموض ولا التباس ، وأذكر أننى عملت مع الأستاذ أسعد حليم فى الصيف التالى فى ترجمة موضوع عن الأسماك ، وكانت المشاكل أكبر مما نستطيع التغلب عليه وحدنا ، فتصدى رئيس القسم لجميع المصطلحات الجديدة ، وجعل يعقد اللقاءات المتوالية مع خبراء مصائد الأسماك من البلدان العربية ، إما فى روما أو خارجها ، حتى استطعنا فى آخر الصيف تحقيق مضاهاة شبه كاملة بين مصطلحات اللغتين ، وكان المعجم الصغير الذى صدر فيما بعد ثمرة لهذا الجهد الدائب .

وكان من مصادر مصطلحاتنا كتب اللغة القديمة ، إذ ترك العرب تراثاً حافلاً من المصطلحات العلمية ولو أنه مبثوث دون نظام فى كتب اللغة ، ومعظم الفضل فى اكتشافه يرجع إلى عرب شمال إفريقيا حتى أقصى الغرب ، إذ إنهم حاولوا فى إبان موجة التعريب بعد الاستقلال عن فرنسا إيجاد مرادفات لكثير من مصطلحات العلوم الحديثة ، وقد نجد أن بعض مصطلحاتهم الجديدة طريفة ، أو قد نضحك منها فى لغة السياسة لأننا لم نعتدها فى المشرق ، مثل قول أهل تونس 'بالحسنى' بدلاً من 'سلمياً' (الحل السلمى أو التسوية السلمية = بالحسنى) ولكن بعض مصطلحاتهم العلمية أدق ، مثل التفرقة بين الفرس (plant-ing) والفلاحة (agriculture) والزراعة (farming) وكذلك تفرقتهم بين كلمتين تشتركان فى الكثير وتختلفان فى القليل وهما management و administration فهم يترجمون

الأولى بالتدبير (وما أجملها) والثانية بالإدارة ، ونحن لا نجد سوى الكلمة العربية الأخيرة ترجمة للكلمتين الأجنبية ، وأحياناً ما نضيف بعض الصفات للتمييز بين معنى الأولى والثانية ، ولكننا لن نستطيع نقل جمال كلمة 'التدبير' ترجمة للأولى خصوصاً ونحن نقرأ ما طرأ عليها من تطور فى الانجليزية المعاصرة . ولقد تذكرت فضل أهل المغرب العربى علينا حين قرأت كتاباً للدكتور محمود عرفة محمود ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، عن العرب فى الجاهلية فوجدت معظم أسماء الآلات الزراعية التقليدية التى كنت أبحث عن مقابلات لها بالعربية دون جدوى !

وعندما عدت إلى مصر فى سبتمبر كنت عازماً على توسيع نطاق معارف الطلاب لدينا باللغة الانجليزية العلمية ، ولكن الجيل القديم من الأساتذة لم يكن يهتم بالترجمة اهتمامى بها ، وكان المبحث الجديد الذى يطلق عليه اسم 'اللغويات' أو علم الألسنة (كما يقول العقاد) يجتاح جامعاتنا فلا يكاد ينجو أحد من الإصابة به ، وكانت الدكتورة فاطمة موسى قد سافرت إلى المملكة العربية السعودية فى إغارة وتركت رئاسة القهيم للغوى ضليع هو الدكتور سعد جمال الدين ، وكان يطمح فى تكوين قاعدة عريضة من اللغويين المتخصصين ، ولم يكن بين الكبار من يساند دعوتى إلى الاهتمام بالعربية الاهتمام الواجب .

وشُغلت بصدور نص مسرحيتى ميت حلاوة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عام ١٩٧٩ ، وكان سعر النسخة ٣٥ قرشاً ، وقد كتب لها سمير سرحان مقدمة طويلة جعلت فى آخر الكتاب تذييلاً للنص ، وكان الأمل يتضاءل فى أن ترى النور على خشبة المسرح ، فقدمت المسرحيات القصيرة الأربع إلى صلاح عبد الصبور (رئيس الهيئة) فوافق على نشرها فى سلسلة المسرح العربى (وظهرت فى العام التالى بعنوان السجين والسجان ومسرحيات أخرى). وما كدنا نبداً العام الدراسى (١٩٧٩ - ١٩٨٠) حتى تردد فى الأوساط الثقافية نبأ اعتزام الاحتفال بعيد ميلاد طه حسين ، وقرر الدكتور حسين نصار - عميد الكلية - إقامة مؤتمر علمى ومهرجان فنى بالكلية بهذه المناسبة ، ووقع الاختيار علينا أنا وسمير سرحان لكتابة نص مسرحى عن حياة طه حسين يقدمه طلاب الكلية ، واختار سمير المخرج فهمى الخولى لإخراج العرض .

وعكفنا أنا وسمير على قراءة طه حسين وما كتب عنه ليلاً ونهاراً ، ثم وضعنا الخطوط الرئيسية للعرض المسرحى ، وقسمنا العمل فيما بيننا بحيث أركز أنا على الممارك الأدبية مثل معركة كتاب فى الشعر الجاهلى وقضية النحل ، ويركز هو على الممارك الثقافية والسياسية ،

كما انفرد بكتابة بعض مشاهد حياته فى القرية وزواجه من سوزان . وكان الجو آنذاك مشحوناً بنشاط الجماعات الدينية التى جعلت همّها إعادة المرأة إلى المنزل ، وتحريم كل شيء عليها ، وكان ظهور هذه الجماعات وانتشارها سرّاً غامضاً ، وما زلت عاجزاً عن رصد بدايتها، وقد كتبت عن ذلك فى مقدمتى الانجليزية لترجمة كتاب أحمد بهجت مذكرات صائم ، وما زلت أذكر يوماً فى عام ١٩٦٩ حضرنا فيه أنا ونهاد زوجتى حفلاً أحياء عبد الحليم حافظ فى لندن ، وغنى فيه أغنية عن القدس تحدث فيها عن الله وعن الإيمان ، فسمعت أحد الجالسين من العرب إلى جوارى يقول ”هلاً عرفتموا الله يا مصريين ؟“ (أى هل عدتم الآن إلى الإيمان بعد هزيمة ١٩٦٧ ؟) .

واتفقنا أنا وسمير على أن يكون المشهد الأول حياً (ربما أكثر من اللازم) بأن يبدأ العرض بمشهد من مسرحية أوديب التى ترجمها طه حسين ، فينبى أحد الطلاب ، الذى كان يشارك بالتمثيل فى العرض ولكنه يجلس بين المتفرجين فى الصالة ، فيتقدم من خشبة المسرح ويقول للممثلين : فلتذهب المرأة إلى المنزل فهى حرام فى حرام ! وهنا يتصدى له طه حسين فيقنعه بالمنطق بخطر رأيه ، ومن ثمّ تبدأ أحداث المسرحية . وبعد ليلة العرض الأولى ، وكانت تحضرها السيدة جيهان السادات ، طلبنا منها أن ينتقل العرض من مسرح الأزيكية (حيث الاحتفال) إلى الطليعة ويعرض على الجماهير أسبوعين . ووافقت . وأذكر أننى ذهبت (بعد انتقال العرض) إلى منزل الدكتور لويس عوض واصطحبته بالسيارة إلى مسرح الطليعة حتى يراه ، وسرّاً سروراً كبيراً ودُهش وأنا اصططحبه فى نهاية المسرحية إلى المنزل من أننا استطعنا فى ذلك الجو الفنى الخانق أن نقدم هذا العرض التسجيلى الجميل ، ثم ضحك وقال : انتو عاملين سوزان عاشقة رومانسية ؟ دى كانت une femme dragon (قالها بالفرنسية - أى امرأة كالتين) ثم قال إنها كانت تشير إلى زوجها بلقب الباشا ، فكان حين يتصل به بالتليفون مثلاً تقول له le pacha n'est pas là (الباشا غير موجود !)

وأذكر ذات يوم عندما بدأ العرض ، وانبرى الطالب الذى يمثل دور المتطرف للممثلين ، أن صدقت إحدى المتفرجات أنه فعلاً من الجمهور وصرخت خائفة على نفسها من الجماعات الدينية ونهضت تجرى حتى أقنعناها بأنه تمثيل فى تمثيل ! وعندما شاهدت فريدة النقاش - صديقتى القديمة - ذلك العرض قالت ”كويس خالص .. بس ليه بقى ’مصر للمصريين‘ ؟“ وسكتُ، فالواضح أنها تعرف أن ذلك جزء من تاريخ طه حسين ، ولكنها كانت تخشى - مُحَقَّةً - العزلة العربية التى بدأت بعد توقيع معاهدة السلام .

وفى صباح يوم من أيام السبت زارتني اعتدال عثمان - الكاتبة المشهورة وتلميذتي السابقة - فى الجامعة ، وكانت تعمل فى هيئة الكتاب ، وكان صلاح عبد الصبور يحبها ويحترمها فعهدها بالإشراف على تجارب طباعة مسرحية مسافر ليل فى ترجمتى الانجليزية ، وراجعت معى فى الكلية بعض النقاط الخاصة بالتدليل ، وكنا نطبع آنذاك على ورق 'البرومايد' قبل الانتقال إلى الكمبيوتر والكَلْك ، وكان سمير سرحان قد كتب لها مقدمة بالانجليزية ، فراجعت 'التجربة' (البروفة) كلها وسعدت بأن المسرحية على وشك الصدور وقد تُرجمت بعد ذلك من الانجليزية إلى عدة لغات أوروبية ، كما أعيد نشر النص الكامل فى أمريكا فى مشروع 'بروتا' الذى تشرف عليه سلمى الخضراء وروجبر الآن .

وشغلت بعد ذلك بمراجعة بروهات النص الذى حققته الشاعر وردزورث ، وكتبت له مقدمة طويلة بالانجليزية ، وأسمايت الكتاب "جدلية الذاكرة" وفيه أطبق فكرة الجدلية الهيكلية على السيرة الذاتية التى كتبها الشاعر فى صورتها الأخرى ، وشاهدت فى هيئة الكتاب ، أثناء التصحيح والمراجعة ، الدكتور ثروت عكاشة لأول مرة بعد عودتى من الخارج وكان يشرف على إعداد مجلد جديد من مجلدات تاريخ الفن التشكيلى .

٦

كنت فى عام ١٩٧٩ قد أتممت الأربعين ، وأحسست أن العمر يفلت من يدي دون تحقيق شئ ، فالسنوات العشر التى قضيتها فى إنجلترا سنوات تحصيل واستيعاب لثقافة غربية لم يعد أحد يريد لها ، وكان أشد ما يقلقنى هو عادة القصد فى التعبير ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أسلوب التفكير الذى تعلمته فى أثناء الدراسة ، وأحياناً ما كانت الفكرة تأتى بالانجليزية فأتريجمها ، ومن شأن ذلك أن يجعل كلامى أشبه بأسلوب الترجمة (translationese) وهو أسلوب قبيح ، وإذا كنت قد نشرت ترجمة بالانجليزية تحمل اسمى (كتاب مصطفى محمود) ومسرحية لصلاح عبد الصبور على وشك الصدور (هى مسافر ليل) وأخرى لا تحمل اسمى (البحث عن الذات) وكتبت دراسة بالانجليزية عن الشاعر وردزورث هى مفارقة ماثيو أرنولد (او Arnoldian Paradox) فى مجلة الكلية ، ودراسة بالانجليزية للمخطوط الذى حققته

على وشك الصدور ، فإننى لم أترجم إلى العربية إلا نصوصاً ثلاثة هي العزلة (مسرحية من تأليف هارولد بنتر، والساعة الناطقة (مسرحية قصيرة من تأليف توم ستوبارد) والبيت (مسرحية من تأليف دافيد ستورى) بل إن الأخيرة كانت بالعامية ! كما كانت ميت حلاوة والمسرحيات الأربع (السجين والسجان وغيرها) بل والإعداد الشيكسبيرى لزوجات مرحات كلها بالعامية ! وكان استعراض حصيلة هذه السنوات مخيباً للآمال ، إذ تعلمت من كتابة نص العمر قضية عن طه حسين مع سمير سرحان أن النجاح فى مجتمع عربى لن يكون إلا بالعربية . وأن اللغة العربية التى تشريت حبها فى طفولتى تعاتبنى مرّ العتاب ، إذ إننى ، على اطمئنائى إلى قدرتى على الكتابة بالعربية ، وهو ما أكدته كتاباتى المتوالية فى الأهرام على امتداد عام ١٩٧٩ ، كنت أتردد حين أفاجأ أثناء الكتابة بكلمة عربية لم استعملها منذ سنوات عديدة ، تبرز كأنها من أعماق اللاوعى فأعجب لها وأدهش منها وأتوقف فى حيرة أتساءل إن كانت صحيحة ، ولذلك كنت أكثر من الاختلاف إلى قسم اللغة العربية لأطرح أسئلتى عن الكلمات أو العبارات أو المسائل النحوية على الدكتور يوسف خليف ، العلامة والشاعر المرفه والإنسان الفذ ، ولم يكن يضيق بى مهما تعددت أسئلتى ، وأحسست أن الغياب عن اللغة طيلة هذه الفترة أفقدنى الثقة فى صحة ما أكتب ، وأورثنى الخوف من الاتهام بالتفرضج ، أو ما يتهم به دارسو الآداب الأجنبية من ضعف فى اللغة القومية .

وكان من عادتنا فى تلك الأيام أن نتردد أحياناً على مطعم فى وسط البلد ، فى شارع متفرع من شارع طلعت حرب اسمه 'ركن الكباب' فنتناول العشاء بعد عمل اليوم الطويل الشاق ، وكان أربعتنا - سمير سرحان ونهاد جاد ، وأنا ونهاد صليحة - النواة الدائمة ، كما كان من بين الصحبة أيضاً محمد جلال الروائى ، وعائدة عبد العزيز الممثلة (وزوجها أحمد عبد الحليم عندما يزور مصر) وكنت فى هذه الجلسات أستمع ولا أكثر من الكلام ، كما كنا نلتقى كثيراً فى منزل سمير سرحان فى روكسى ، وكان الحديث يتشعب ويتفرع ، وإن كان يدور فى معظمه حول الفن والأدب ، وسمير سرحان كريم مضياف ، يحب الناس ، سريع البديهة ، قادر على تحويل دفة الحديث إذا تجهمت نبراته إلى ما يسرّى ويخفف ، أو يسرّ ويلطف ، فخياله خصب لا نهاية لخصبه .

وذات يوم كنا نسير أنا ونهاد زوجتى فى وسط البلد حين شاهدنا ديواناً جديداً لصلاح عبد الصبور عنوانه الإبحار فى الذاكرة فاشتريناه وانتهى بنا السير إلى مقهى 'لاباس'

القديم الذى شهد بدايات حبنا فى الستينيات ، وجلسنا نتصفحه ، فوجدنا أن قصائده تكاد تترجم نفسها دون مشقة ، وامتد بنا الوقت ونحن نطلب القهوة بعد القهوة ، حتى انتهينا من ترجمة بعض ما فيه ، وعندما عدنا إلى المنزل عكفت عليه فأنجزت جانباً كبيراً منه ، وكنا فى عطلة رأس السنة الميلادية ، فكتبت نهاد - متطوعة - بعض القصائد المترجمة على الآلة الكاتبة ، وأحببت أن تكون تلك نواة لمجموعة شعرية كاملة .

ولم تلبث المصادفة أن لعبت دورها ، إذ كان الشاعر الأمريكى ستانلى كونيتز Kunitz فى زيارة لمصر ، فاستضافه صلاح عبد الصبور فى منزله ، ودعانى للمشاركة فى حفل الاستقبال المحدود ، واصطحبت معى القصائد المترجمة ، وقرأتها على الحاضرين ، وكانوا مزيجاً من الأجانب والمصريين ، فسُرُّوا سروراً عظيماً ، وكان صلاح عبد الصبور أكثرهم سروراً بما شعر به من 'حرية' فى النقل (على ما حفلت به الترجمة الانجليزية من الأساليب البريطانية التى علق عليها الشاعر الأمريكى) وعندما رددت الزيارة دعوت الدكتورة أنجيل بطرس والدكتور جرجس الرشيدى (أستاذى القديم وزوج الدكتورة أنجيل) والدكتور مصطفى سويف والدكتورة فاطمة موسى (زوجته) وسمير سرحان طبعاً ونهاد جاد - وعلى رأس المدعوين صلاح عبد الصبور وسميحة غالب (زوجته) . ولم يكن الحفل المحدود فى منزلنا ذا طابع أكاديمى - كما توحى أسماء المدعوين - بل كان ذا طابع أدبى خالص ، وإن لم يخل من مناقشات أكاديمية عند قراءة عبد الصبور لأشعاره وقراءتى لترجماتها .

وساقت المصادفة إلىّ فى مطلع العام الدراسى ٧٩ - ١٩٨٠ الدكتور مختار التهامى ، الذى أصبح عميداً لكلية الإعلام ، وكان مدرساً للغة الانجليزية فى مدرستا (الأورمان النموذجية) عام ٥٤ - ١٩٥٥ حين حصل على الدكتوراه وكان صديقاً للدكتور سعد جمال الدين (رئيس قسمنا) فجاء يطلب منه بعض المتخصصين فى الترجمة ، وأستاذاً لتدريس مادة الفكر العالمى المعاصر بحيث يركز فيها على المسرح بدلاً من التركيز على الأفكار التى كانت الجامعة تنظر إليها بشك وارتياب - أى الفلسفات المعاصرة وتجلياتها الاجتماعية والسياسية ، إذ كان رئيس الجامعة الدكتور حسن حمدى غير سعيد بما سمعه عما يدرّس فى إطار تلك المادة ، وكان الذى يدرسها قبلى هو الدكتور حسن حنفى (من قسم الفلسفة لدينا) فألقى انتدابه وجئ بالدكتور عزت قرنى (من قسم الفلسفة بجامعة عين شمس) ولم يكن حظه بأفضل من سلفه ، فأنتهى رأى إلى تعذيل اللائحة ، وذلك يقتضى إجراءات مطوّلة ، فقال له الدكتور مختار

“أنا أتيتك بمن يدرس المادة مقتصرًا على المسرح دون سواء” - ولكن الدكتور مختار كلفني بتدريس الترجمة أيضًا وتدريس الدراما لطلاب شعبة الإذاعة والتلفزيون ، فكان لي في ذلك العام ما يشبه الجدول الدراسي الكامل باللغة العربية ، وهو ما عوضني عن البعد عن الأكاديمية .

وفي خضم انشغالي بالتدريس في نسمناء وفي كلية الإعلام ذكرني سمير سرحان بأن موعد ترقيةي يحين في عام ١٩٨٠ ، وكان قد حصل هو على الأستاذية عام ١٩٧٩ ، وحصل عليها من قبله عبد العزيز حمودة ، وفهمت أن مقصده هو أن أبذل جهدًا أكبر في الأبحاث الأكاديمية ، ووعده بذلك لكنه أضاف: إن عليّ أن أجمع ما نشرته من ترجمات مع مقدماتها (العربية والانجليزية) فهي مما يحسب لأساتذة اللغة عند الترقى ، وأن أضعها في كتب مستقلة حتى تجد اللجنة العلمية مادة تقرأها وتحكم عليها . وفعلاً كتبت دراسة عن الشعراء العرب المعاصرين بالانجليزية أرصد فيها عن طريق المقارنة مع الشعراء الانجليز جوانبهم الرومانسية ومظاهر الحداثة لديهم ، ولم أنته منها إلا في منتصف عام ١٩٨٠ ، إذ تطلبت ترجمة بعض المعاصرين (إلى جانب صلاح عبد الصبور) مثل أحمد عبد المعطي حجازي وفاروق شوشة ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق جويده ووفاء وجدي وصلاح جاهين وملك عبد العزيز وأمل دنقل ونجيب سرور ونصار عبد الله وغيرهم وأصبحت في يدي مادة تصلح لكتاب (لم ينشر إلا بعد خمس سنوات أو ست) ، وجمع المقالات التي كنت نشرتها في مجلة فنون ومجلة المسرح والسينما ومجلة نادي المسرح التي توقفت عن الصدور بعد اكتشاف تلاعب مرسى النويشى في الحسابات وتخريبه للميزانية ، ووضعها معًا في كتاب اسميته فن الكوميديا ، كما جمعت المسرحيات التي ترجمتها إلى العربية مع مقدماتها ونشرتها في كتاب مستقل بعنوان ثلاثة نصوص من المسرح الانجليزي ، وصدر الكتابان في عام ١٩٨٠ .

وفي مطلع العام الدراسي ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، وكنت قد عدت لتوى من روما بعد قضاء الصيف مع نهاد زوجتي وابنتي سارة ، ما بين العمل والتسرية ، جاءتني إحدى طالباتي السابقات من كلية الإعلام (اسمها شويكار) ، وكانت قد التحقت بالعمل في الإذاعة في قسم البرامج الموجهة تطلب ترجمات للشعر العربي لإذاعتها (مع مقدمات) . ورحبت بالفكرة وأعددت لها مجموعة من القصائد للشعراء الذين ذكرت أسماءهم مع مقدمات موجزة ، وتوالت إذاعتها في شتاء عام ١٩٨٠ ، وتوالت الرسائل من أمريكا وكندا وأستراليا والهند

(وهى ابلدان انتى يستمع أهلها إلى تلك الإذاعات الموجهة) تثنى على البرنامج مما دفع عبد الحكيم فهم ، رئيس القسم ، (وكان من زملاء دراستى فى الجامعة) إلى طلب رفع أجرى من جنيته ونصف فى الدقيقة إلى جنيهين ، ووافق مدير العقود محمود مصطفى ، فيما يشبه المعجزة، إذ كان معروفًا عنه الحرص على المال العام .

كنت فرحًا بالتقدير الأدبى أولاً ، إذ انفرجت ضائقتى المالية بعد العمل فى منظمة الأمم المتحدة المذكورة ، وكانت التزاماتى فى الكلية تقتصر على التدريس ، فلم يكن لى حق الإشراف على الرسائل أو مناقشتها ، وكان نشاطى الأدبى يكاد ينحصر فى الترجمة ، بعد أن توارى حلم تقديم مسرحياتى على المسرح أو تراجع ، وكان فى الترجمة عوض أى عوض ، وخصوصًا ترجمة الشعر ، فالشعر لغة عالمية ، ونبضه هو نبض الإنسان نفسه ، وموسيقاه تطرب قبل أن تتطق معانيه ، وكنت أومن وما زلت بأن الشعر لا يترجم إلا شعرًا ، ولكن الشعر نشاط فردى شبه خاص ، والمسرح نشاط جماعى جماهيرى يعتمد على التواصل الحى مع البشر ، وكنت وما زلت أتردد بين هذا وذاك ، حتى حين كتبت بعد عدة سنوات أولى مسرحياتى الشعرية ، فالهوة التى تفصلهما كبيرة ، والشعر الغنائى (lyrical) أى الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر بصوته مباشرة دون أن يتخفى وراء قناع أو أقنعة ، بعيد كل البعد عن لغة المسرح حيث تتحرك الشخصيات وتتحدث فيما بينها وإلى الجمهور حتى ما تكاد ترى المؤلف أو تسمع له حسًا ، ولكن الشعر صعب وطويل سلّمه ، وترجمته أيسر من نظمه !

وفى عام ١٩٨٠ وافق صلاح عبد الصبور على إصدار مجلة تابعة لهيئة الكتاب تعنى بالنقد ومدارسه الحديثة، وعُيّن عز الدين إسماعيل رئيسًا لتحريرها، وذهلت عندما شاهدت العدد الأول إذ كان مجلدًا ضخماً يضم أشتاتاً من مدارس النقد الحديثة والقديمة، ويحتفل احتفالاً عجيباً بالبنوية، وهى المدرسة التى كانت شمسها قد غريت قبل عشر سنوات على الأقل، وكان المتوقع ممن يكتب فيها أن يطيل فيسهب، ويكرر فيطنب، فكانت الدراسات مطولة حافلة بالأسماء الأجنبية التى تخيف القارئ، ولكنها كانت تمثل ولا شك صحوة أدبية مرموقة، وكانت تعتبر - من أحد جوانبها - ردًا على المقاطعة العربية ، كما قال حسن!

” حسن ! أين كنت أيها العفريت ؟“ صحت فى رنة فرح صادقة عندما صادفته ذات يوم عند باب مبنى الإذاعة والتليفزيون ، وضحك ضحكته الصافية وقال لى ”هنا ما ينفعش !“ تعال معى !“ واصطحبني إلى داخل المبنى ، واتجهنا يسارًا إلى مصعد الإذاعة ، وقال لى :

”عندى إذن صرف سريع .. وبعدين نتكلم لـ“ وانتهى من تحصيل المبلغ الذى كان كبيراً ، ثم عرجنا على المكتب المسحفى فى الدور المسحور ، وسلم على بعض أصدقائه فيه ، ثم جلسنا فطلب لى القهوة وشرع يحكى لى أنه تحوّل إلى الكتابة الإبداعية والنقد ، ولكنه لا ينشر فى الصحف المصرية بل فى الصحف العربية الأخرى خارج مصر ! وسألته عن المبلغ الذى ناله من الإذاعة المصرية منذ لحظات فقال ” ده عمل مشترك ! وسوف أحكى لك لـ“

كان موجز ما حكاه حسن على امتداد ما يقرب من ساعة كاملة هو أن البلدان العربية الفنية بالبترول انتهزت فرصة تجميد العلاقات مع مصر (وإن كان ذلك شكلياً فقط) وانطلقت تصدر صحفاً ومجلات جديدة ، وهى ترحب كل الترحيب بكتابات المصريين ، وترحب ترحيباً أشد بمن ينتقد الأحوال فى مصر ، سواء أكانت أحوال الثقافة أم أحوال السياسة ، وسرعان ما فطن المصريون إلى ذلك فانقضوا انقضاض الطيور الجارحة على الموائد الحافلة ، وقال إنه يفضل أن يكتب عن أحوال السينما والمسرح ، حتى لا يفضب السلطات فى مصر إذا كتب عن موضوعات ذات أبعاد سياسية ، وأكد لى أنهم يرحبون بكل من يكتب ، فإذا كان اسمك مسبقاً بلقب الدكتور ضمنت مكاناً ثابتاً ! وسألته عن شأن الإبداع فقال إن المصريين يتسمون بسعة الحيلة ، فأنشأ بعضهم شركات أو وكالات مشتركة للإنتاج الإذاعى والتليفزيونى ، ومزية هذا اللون من الإبداع هو أنه لا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد ، وأضاف شارحاً مقصده ”لقد انتهيت من كتابة سباعية عن صعصعة محبى الموءودات فى الجاهلية ... وتقاضيت عنها ذلك المبلغ الهائل لـ“ وسألته : ولكنك أخذت المال من الإذاعة المصرية ، فقال حسن ” المقاطعة ليست رسمية كما تعرف ، والعرب يهددون بقطع العلاقات إذا وقّعت مصر معاهدة السلام فى إبريل ١٩٨٢ بعد جلاء إسرائيل عن سيناء ، وهذا مستبعد طبعاً لـ“ فقلت له ”تقصد قطع العلاقات ؟“ فقال بسرعة - ”كل شئ يسير على ما يرام لـ“ فسألته إن كان ما زال يمارس التمثيل فأجابه بلهجة من يستنكر السؤال ”فى كل مسلسل وكل سهرة لـ“ ولما رأى دهشتى وعجبى أضاف قائلاً : ”أجمل شئ فى الإنتاج الجديد هو الذقون ! الإذاعات والتليفزيونات العربية تريد أن تملأ ساعات إرسال والمستشارون يرون أن السلامة فى التاريخ ! وخصوصاً لو كان تاريخاً معروفاً ولا خلاف عليه .. وهكذا اتجه الجميع إلى التاريخ المجيد بحجة ظريفة غاية الظرف .. وهى إذكاء الروح القومية وأمجاد العرب الخوالى ! وكل واحد لبس لحية مستعارة وعباية ربما إلى ذلك .. وصوّر يا جدع لـ“ فقلت له ولكن أليس فى هذا

سياسة ؟ أليس فيه انتقاد غير مباشر لمصر ؟ وضحك قائلاً ” وهل تتكرت مصر للماضى العريق ؟ إننا رسمياً نسير فى نفس الطريق ونقول إن استرداد أرضنا المحتلة انتصار يحى أمجاد الماضى لا بل إننا نؤكد هذا الاتجاه التاريخى وندعمه ، فنحن لا نتخلى أبداً عن التاريخ ولا عن العرب والعروبة ! وأنا أكتب الآن مسلسلاً عن عمر بن عبد العزيز - وأرجو ألا يسبقنى إليه أحد ، فهو مطلوب فى إذاعة قَطَر !“ ورأى دهشتى الشديدة ، فأخرج من حقيبته عقداً بمبلغ كبير قائلاً ” إنك تضيع وقتك فى الجامعة !“ وأكدت له أننى سعيد بعملى وأننى لا أحتاج إلى مثل هذه المبالغ فضحك وقال ” أنت حر !“ ثم نهضنا واتجهنا خارجين ، ولاحظت أننا على وشك أن نفترق دون تبادل الأخبار ’الشخصية‘ فعنّ لى أن أسأله عن الأسرة ، والآن أنتُ إليه بعد فترة صمت كأنما لألقى السؤال فإذا به يبادرنى بالرد قبل أن أسأله ” أنا رجعت حراً من جديد !“ وتوقفت عن السير فوقفت . وبعد ثوان أضاف : شعلة الحب انطفأت وكان لابد من الانفصال ! وسألته عن الطفل فقال ” لقد أنجبت بنتا ونحن على اتصال من وقت لآخر !“ ولما رأى عيوسى وتجهمى ، قال لى وكنا قد خرجنا من المبنى ونقف على السلم الخارجى ” كانت غلطة .. وكل منا يعرف ذلك .. ولن تتكرر !“ وأعطانى بطاقة فيها اسمه وعنوانه وأرقام التليفونات ، وألح علىّ قبل أن نفترق أن أتصل به للتنكير فى مشروع فنى كبير!

كنت ولا أزال شديد الإعجاب بقدرة حسن على تطويع نفسه للظروف المتغيرة ، وكنت ولا أزال أحسده على هدوء أعصابه وقدرته على التحكم فى مشاعره ، وكان ينتدب للتدريس فى الأكاديمية أحياناً فيبهر الطلاب بمعارفه الواسعة ، وإذا ضمته ندوة ثقافية لم يكن أعلى الحاضرين صوتاً بل أثبتهم جنأاً وقدرة على الرد المفعم بالمقتضب ، ولكنه كان مولعاً بالمواقف الدرامية فى الحياة اليومية ، وقد قال لى بعد ذلك إنه لا يكذب أبداً فإذا تحتم الكذب لجأ إلى الصمت وتذرع بالصبر ، وخصوصاً فى علاقاته مع الجنس الآخر ، وهى التى تشعبت وذاعت أنباؤها . وفى سبتمبر ١٩٨٠ ، ومع نشوب الحرب العراقية الإيرانية ، سمعت أنه سافر إلى العراق منتدباً للعمل فى إحدى جامعاتها ، أما زوجته فقد جمعتى الظروف بها بعد ذلك عدة مرات .

وفى أكتوبر ١٩٨٠ كنت فى مكتب الدكتور حسين نصار (العميد) حين قابلت الدكتورة

فاطمة موسى ولامتنى على عدم التقدم للترقية !

كثرت لقاءاتى كما قلت مع صلاح عبد الصبور ، وعندما صدرت ترجمتى لمسافر ليل فى عام ١٩٨٠ ازداد اقترابنا ، ولكنها لم تصدر عن الهيئة العامة للكتاب بل عن إدارة العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة الثقافة ، وأما كتابى بالانجليزية عن جدلية الذاكرة Dialectic of Memory فقد صدر عن الهيئة فى عام ١٩٨١ ، بعد ميت حلاوة ومجموعة السجين والنسجان (١٩٧٩ و ١٩٨٠ على الترتيب) ومن ثم توثقت علاقاتى بالعاملين فى الهيئة أيضاً ، وعرفت من بينهم الشاعر سعد درويش الذى تخرج فى قسم اللغة الانجليزية ، وكان فى أواخر الخمسينيات من عمره ، وبالفنان سعد عبد الوهاب (الرسام لا المُفَنِّى) ، وبمجموعة العاملين فى إدارة النشر ، وعلى رأسهم لمعى المطيعى الكاتب المشهور ، وفى شتاء عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ كنا نتبادل الزيارات العائلية مع أسرة صلاح عبد الصبور ، وكان سمير سرحان ونهاد جاد كثيراً ما يزوراننا فى المنزل ، وإن كانت زيارتنا أنا ونهاد لهما أكثر وكان كوبرى ٦ أكتوبر (الكوبرى الجديد) قد اختصر زمن المسافة بيننا وبين روكسى إلى أقل من النصف ، وذات ليلة من ليالى الشتاء تردد فى الأوساط الثقافية أن وزارة الثقافة بصدد إقامة احتفال بذكرى الزعيم الوطنى محمد فريد ، وعُقد اجتماع فى الوزارة اقترح فيه عبد الصبور تقديم عمل مسرحى غنائى أو موسيقى لإحياء تلك الذكرى ، وكان وكيل الوزارة المسئول آنذاك هو فؤاد العربى (ابن زكى العربى باشا) واقترح أن يكتب النص سمير سرحان ومحمد عنانى بعد نجاح المسرحية عن طه حسين ، وأن يتولى إخراجها سمير العصفورى ، وسرعان ما بدأنا العمل ، فأحضرنا كل ما كُتب عن محمد فريد من دار الكتب (استعارتها لنا سهير مديرة مكتب صلاح عبد الصبور) واشترت أنا مذكرات محمد فريد ودرست المقدمة التى كتبها الدكتور رؤوف عباس أسناد التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة ، كما كان يتردد فى الأوساط الثقافية أن مصر تنتوى إرسال وفد ثقافى إلى أمريكا فى مارس ١٩٨١ للظواف ببعض جامعاتها بفرض التعريف بأحوال مصر الحديثة ، وكأنما كانت تلك مبادرة للتصالح مع العالم قبيل الدخول فى عملية السلام الحقيقية بالجلء الكامل للقوات الإسرائيلية عن الأراضي المصرية بعد عام تقريباً .

وعكفنا - أنا وسمير - على العمل ، فأنتهينا من النص بسرعة ، وبدأ العصفورى تجاربه المسرحية ، وكنا نحضرها حتى نلبى بعض طلباته ، وكتب الأغاني شاعر يدعى أحمد شفيق . كان يعمل ممثلاً (موظفًا) فى فرقة المسرح الحديث ، وانشغلنا فى ذلك الشتاء بهذا العمل المسرحى الضخم ، إذ حشد العصفورى له نخبة من كبار الممثلين إلى جانب المجموعات (الكورس) والمغنيات أذكر منهن زينب يونس وإيمان الطوخى وسهير طه حسين ، وكان البطل هو محمد السبع - الممثل الشهير والقدير ، وقد دهشت لرؤية إيمان الطوخى تغنى إذ كانت إحدى طالباتى فى كلية الإعلام ، وكانت مجدة مجتهدة . وعندما زار المسرح الممثل العظيم محمد الطوخى ليطمئن على ابنته ويشهد جانبًا من البروفة طلب منه العصفورى إلقاء بعض سطور من النص فبهر الحاضرين بصوته الرخيم ، وإذا بمحمد السبع يحتج ويهدد بالانسحاب! وربما لا يعرف الكثيرون أن الممثلين يدخرون جهد الأداء (إذا كانوا كبارًا) حتى يبدأ العرض ، وكان محمد السبع واثقًا من نفسه فلم يبذل جهدًا فى الأداء ريثما ترتفع الستار، وكان سمير العصفورى قلقًا كشأنه دائمًا يريد أن يسمع فيطرب ويطمئن ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد محمد السبع يدخر جهدًا فى الأداء حتى يرضى العصفورى - ويبعد شبح منافسة محمد الطوخى !

وكان العصفورى يستعين بمعظم أفراد فرقة مسرح الطليعة مثل زايد، فؤاد ومحمد فريد وعادل خلف وأحمد عقل وأحمد راتب وعهدى صادق وغيرهم لأنه كان يريد أن ينسب الإنتاج لفرقة مسرحه، وقد ظل متربعا على عرشه سنوات طويلة باستثناء فترات محدودة - حتى أصابه الاكتئاب من حال المسرح المصرى فتركه ! وكان ما يسميه العصفورى بالعمل أو المختبر (اللابوراتوار) هو فى الحقيقة تطوير النص أثناء البروفات بما يلائم مسرجه النفسى ، وهو مبدع خلاق ، فاقترح ذات مساء إضافة شخصية العمدة المصرى لتجسيد بعض القيم الأصيلة فى مصر، والغريب أنه كان محقًا فى وجهة نظره ، فقارئ النص قد لا يكتشف الحاجة إلى تلك الشخصية ولكن التجارب المسرحية كشفت عنها ، فسهرنا أنا وسمير وأعدنا كتابة المشهد، وفى ليلة التجربة النهائية حضر فؤاد العرابى بصفته الرسمية فى الوزارة وصلاح عبد الصبور بصفته نائب وزير الثقافة وكانا يمثلان 'الرقابة' وصدرت موافقتهما .

وعرضت المسرحية وأذيعت مباشرة على الهواء فى الإذاعة والتلفزيون ، وحضر العرض الرئيس السادات ، وبعد العرض وتحية الجمهور ، جرينا أنا وسمير لمقابلة الرئيس فمعنا رجال الأمن فإذا بجيهان الصغيرة (نانا) تهرع إلينا وتأخذنا إليه وتقول له ها هما من كتبنا

النص فأثى السادات على العمل وقال "دراما جميلة ومؤثرة" وكان سمير سرحان فى أثناء الاستراحة قد خاطب المسئولين فى وزارة الثقافة فى حضور السيد الرئيس حتى يوافقوا على صرف تكاليف العرض ، لأن أحدهم واسمه جمال حمزة ، وكيل الوزارة للشئون المالية والإدارية، كان يؤمن بأن يعمل العاملون بلا مقابل ، وإذا قبل الاستثناء من ذلك وقرر دفع مبلغ ما فلا بد أن يذيق المبدع الأمرين قبل أن يعطيه حقه .

وبعد أسبوعين تأكد خبر رحلة مصر اليوم ، إلى أمريكا وأنه برنامج ترعاه قرينة الرئيس، وكنت فى منزل صلاح عبد الصبور وكان يوسف إدريس قد انتابته أول أزمة قلبية ، فجعل يحكى لنا ما أحسه وكيف واجهها ، وفاتحت صلاحًا فى أمر سفرنا أنا وسمير ، فقال يا ريت ! لكن الوفد اكتمل ! ولما كنا على علاقة طيبة بالوزير فقد خاطبناه فوعد خيرًا ، وقبيل السفر بأيام تشفعت لنا السيدة الأولى فانضممنا إلى الوفد وكان يتكون من سهير القلماوى ومرسى سعد الدين ولويس عوض وفرخندة حسن ومحمد شعلان وأستاذ فى العلوم لا أذكر اسمه وصلاح عبد الصبور وسعد الدين إبراهيم وسمير سرحان وأنا . وسافرنا إلى نيويورك حيث قضينا الليلة ، ولم يكن قد حجز لنا أحد غرفة فى أى مكان فاتصل سمير سرحان تليفونيا بمحمد حقى المستشار الإعلامى الذى تدخل فى اللحظة المناسبة حتى نقيم فى الفندق نفسه فى بروكلين وهو فندق 'هيات' بشارع ٤٢ !

وفى الصباح زارتنا الدكتورة منى نجيب ميخائيل الأستاذة فى قسم اللغة العربية بجامعة نيويورك - وزميلة سمير فى الدراسة بقسم اللغة الانجليزية - ومعها زميلة لها اسمها أيتن هيكل (من أسرة هيكل باشا) وكان النشاط يتكون من زيارة للجامعة وعقد ندوات شاركنا جميعًا فيها ، وبعد الظهر ألقى لويس عوض محاضرة ينمى فيها تدهور الأدب العربى فى مصر، ويقول إن هناك اثنين فقط يعتبران معقد الأمل (هما جمال الفيضانى ويوسف القعيد) ولكن طائرين لا يعنيان مقدم الربيع ! (وهو مثل انجليزى شهير) . وفى المساء بدأت ندوة الشعر فتحدث صلاح عبد الصبور ثم طلب منى إلقاء قصائده بالانجليزية ففعلت وهلل له الحاضرون من أمريكيين وعرب .

وانتقلنا إلى واشنطن بعد ذلك ، وتكرر السيناريو فى مؤسسة سميثونيان ، ثم سافرنا أنا وسمير وصلاح مع الأستاذ جورج عطية (رئيس القسم العربى) فى سيارته إلى جامعة بنسلفانيا فى مدينة فيلادلفيا ، حيث اجتمعنا مع المستشرق روجر ألان وبشباب عربى يدعى

عدنان حيدر ، ثم أقيمت بعضاً من شعر صلاح فقال روجر ألان ”إنك رابع مصري أعرفه يعرف الانجليزية“ وكان من الطبيعي أن أشعر بالسعادة لوضعي في قائمة تضم محمد مصطفى بدوي ولويس عوض ومجدي وهبة ، وأخذ روجر نصوص القصائد مني ونشرها في مجلة الجامعة Nimrod في الخريف التالي ، ودعانا إلى منزله حيث قابلنا زاهي حواس (الدكتور) الذي كان يدرس الآثار المصرية في تلك الجامعة ، وسهرنا ما شاء الله لنا أن نسهر ثم عدنا إلى واشنطن .

. وانتقلنا إلى الجنوب - إلى جامعة تكساس في مدينة أوستن - وتكرر السيناريو ، وقابلنا الأستاذة فدوى ملطي دوجلاس وشاعر أمريكي اسمه جون دافيد لم يصدق أن الشعر الذي قرأته كتب أصلاً بالعربية ، ومن تكساس طرنا إلى لوس أنجليس وزرنا هوليوود وسرنا في شوارع بيفرلي هيلز ، واقترح لويس عوض ذات مساء أن نذهب إلى مرقص ، فماذا نخاف ؟ وذهبنا معه أنا وسمير سرحان ، وكان الضجيج رهيباً والموسيقى تصك الأذان صكاً ، وكان أحد المغنين قد أطلق لحيته وبدأ في ثياب رثة ، فقال لويس عوض ”إنه يشبه كارل ماركس ! وهذا يدل على تمرد دفين على قيم المجتمع !“ وانصرفنا مبكرين ، وفي اليوم التالي قابلنا عفاف لطفى السيد ودعيتا إلى الغداء في مطعم الجامعة . وكانت الأيام تمر سراعاً والأمريكيون يحتفون بنا في كل مكان . وبعد عودتنا إلى مصر كتب لويس عوض مقالاً طويلاً في الأهرام يصف أحداث ’المهرجان‘ ، وقدم فاروق شوشة أمسية ثقافية جمعتني مع صلاح عبد الصبور حيث ذكر تعليق أستاذ أمريكي على ترجمتي قائلاً (Enani's English puts ours to shame) أي إن مستوى لغة الترجمة يجعلنا نخجل من مستوانا ، وقال لي شوشة ذات يوم إنه ما زال يحتفظ بشريط ذلك البرنامج ولم يمسه .

وكان حلمي في تقديم مسرحية ميت حلاوة الذي شحبت ألوانه ما فتئ يراودني. وكان الجو الثقافي مصر غير واضح المعالم، فالمعارضة التي سمح لها السادات بإنشاء صحف وتكوين أحزاب تنقسم إلى يمين ضعيف ويسار قوي، وكان اليمين يتهم اليسار بأنهم فلول المنتفعين بعهد عبد الناصر، واليسار يتهم اليمين بأنه متفسخ انهازي بل ولا أخلاقي، وكنت أقرأ كتابات هؤلاء وهؤلاء، وأرى أن الموقف قد بدأت تظهر فيه اتجاهات سلفية مدمرة، ظهرت أول ما ظهرت في صورة الجماعات الدينية، وكان التقسيم القديم إلى يمين ويسار يبدو غير واقعي، فمجموعة أصدقائنا المقربين تعتبر أقرب إلى اليسار منها إلى اليمين، ولم أكن أشاهد

أحدًا يمكن وصفه بأنه من اليمين الصادق ، ولكنني كنت أرى في 'ياسر' الطالب بقسم اللغة الانجليزية ما يمكن تسميته 'بالخطاب السلفي' الجديد، الذي كان ساعده يشتد يوماً بعد يوم، وكان يتوسل بالدين، أو بالظواهر المرتبطة بالدين مثل إطلاق اللحية وتربية 'الزبيبة' على الجبهة ، وإمساك السبحة، والحوقة والبسمة بمناسبة وغير مناسبة، وكان ياسر داعية إعادة المرأة إلى المنزل، وقد أخذ يردد الآيات الوحيدة التي حفظها من القرآن عن الحجاب والاستقرار في البيوت، وكان لدينا في الحي مسجد صغير (زاوية) يؤمها الكثيرون ممن يستمعون إلى أمير الجماعة 'عزت' (رحمه الله) وهو من كنت تسمع في خطبه نبرات اليسار واضحة جلية، في إطار سلفي يتناقض كل التناقض مع تلك النبرات، وكان يجمع في أحاديثه بين ما لا يمكن الجمع بينه من تحرر وحبس، وانطلاق وانغلاق، وكان سامعوه من الشباب يلتقطون من أحاديثه ما يروق لهم فيجعلونه سُنَّةً لمستقبل غامض ينذر بأخطر المواقف.

و ذات يوم كنت ذاهبًا إلى الجامعة في الصباح الباكر ، إذ كانت دروسي تبدأ في الثامنة ، حين أشار إليّ شخص ذو لحية قصيرة (عرفت فيما بعد أن اسمه فوزي) ، فتوقفت وسألته ما يريد فطلب مني توصيله إلى الجامعة حيث يعمل في الإدارة ، ولاحظت عينية الحمراء فسألته ما الخبر فقال إنه لم ينم طول الليل إذ سهر في الزاوية المذكورة حتى الصباح في 'سبيل الله' ، وعندما سألته عن 'سبيل الله' قال إنه كان يقرأ الأوراد ويردد التعاويذ طول الليل ، وقلت له "ولكنك لن تستطيع التركيز في عملك بالجامعة .. وربما غفوت أثناءه !" فقال بسرعة "ما عند الله خير وأبقى !" وكان حوارنا طيلة الطريق يسير على هذا النحو ، وفهمت منه عندما وصلنا أنه إذا غفا أثناء العمل فسوف يكون ذلك نعمة وفضلاً من الله وبركة ، لأنه لن يشاهد النساء في العمل ، ولن يشاهد المجتمع الكافر !

هل يستطيع مثل هذا الشاب أن يستجيب لما كتبه في ميت حلاوة ؟ وما موقفه من الفن عموماً ؟ وما آراؤه في السياسة والاقتصاد ؟ تراه يحسب على اليسار أم اليمين ؟ وماذا عساه أن يقرأ إذا قرأ شيئاً ؟ كان المائدون من الإغارة في البلدان العربية الشقيقة يحضرون معهم لوازمهم من المعدات الحديثة ، وبعض الأفكار الثابتة التي تقهر الفكر اليميني واليساري معاً وأهمها 'التواكل' - فغاية الإنسان في نظر 'مصطفى المهندس' صديقي هي الزواج والتكاثر، إذ قضى معي ساعتين في الجامعة (وكان يحاول إلحاق ابنه بإحدى الكليات المصرية بعد أن سُدَّت منافذ الجامعة في وجه أبنائه حيث كان يعمل) في شرح أسباب 'وكستنا' (نكستا ؟)

وأهمها أننا تركنا الله وأبدلناه بالإنسان، ولكن الذين 'توكلوا' على الله كوفئوا في الدنيا دون مجهود، وسوف يضاعف الله لهم الأجر في الآخرة. وقال لى مصطفى إن بناته عابدات قانتات مُحَصَّنَات، وسوف يرزقهن الله بأزواج 'من السماء' يحققون لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ما الذى حدث لمصطفى المهندس ؟ (وهو ليس قريباً لفؤاد المهندس) لقد قضى فى بلد عربى شقيق خمس عشرة سنة ، ورجع فى حياته إلى مطلع القرن العشرين فى مصر ، حيث أصبح رب البيت المطاع ، وانتفضت ذاته وهو يأمر وينهى بين أفراد أسرته ، ويسمح لنفسه بأى قدر من الحرية يريده ، وكان ناجحاً فى عمله ، بل هو إدارى فذ نال درجته الجامعية فى المحاسبة ثم انتقل إلى الإدارة فنجح ، ولكنه لم يكن يستشعر الزهو الحقيقى إلا حين يمارس سلطته فى البيت ، فرؤساؤه فى العمل يحرمونه من كل سلطة . وعندما كنا نتذكر أيام لهونا فى الجامعة فى الخمسينيات كان يلين وترق نبراته ويعود فى حضورى مراحقاً بل طفلاً بريئاً ، ولكننا إذا وجهنا دفة الحديث إلى المجتمع أصبح كالصخر قسوة وفضاظة ! ترى هل يستطيع أن يتجاوب مع ما كتبه فى ميت حلالة ؟

وفى الصيف ناقشنا الموضوع - أنا وسمير سرحان - فاقترح أن نبدأ بإعادة مجلة المسرح ، فهى المجلة القادرة على نشر الثقافة المسرحية ، وإعادة تهيئة الجو لتقبل الأعمال المسرحية الجادة . وتقدمنا بالطلب إلى وزارة الثقافة ، و ووفق عليه ، فى مايو ١٩٨١ (وصدر العدد الأول فى يوليو ١٩٨١) ، وكانت انتصاراً باهراً ، وكان سمير هو رئيس التحرير وكنت نائبه ، وكان أمير سلامة هو مدير التحرير . أما مجلة نادى المسرح فقد أصبحت من ذكريات الماضى البعيد . وكنت سافرت أثناء إعداد المجلة إلى العراق - لأول وآخر مرة - للعمل مراجعاً للترجمة بمؤتمر تعقده منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكنا فى يوم ٧ يونيو ، وكان يوم الأحد ، نجلس فى قاعة الترجمة بمبنى مجلس قيادة الثورة ، حين سمعنا صفارة الإنذار فحسبناها غارة إيرانية وشاهدنا من الشباك المدافع المضادة للطائرات تطلق طلقات كثيرة سريعة ، ولم يكن المساء قد حلّ بعد ، فلم نخف ولم نترك القاعة ، بل وقفنا نرقب المدافع التى لم تكن تبعد كثيراً عنا ، وكان معى حسين العليمى - المترجم - فقال لى : لا يمكن أن يضرب الإيرانيون منظمة المؤتمر الإسلامى .. فهم أعضاء فيها ! ودخل الغرفة الدكتور عبد الوهاب المسيرى ، وكان يعمل معنا بالترجمة ، فقال : أراهنكم أنها إسرائيل ! وضحكنا . كيف تأتى الطائرات الإسرائيلية من فوق سوريا أو الأردن دون اعتراض لضرب بغداد ؟ وماذا

يفيدها من ضرب منظمة المؤتمر الإسلامي ؟ وبتنا الليلة دون أن نعرف الحقيقة ، ولم نعرف سوى فى الصباح التالى أنها كانت طائرات إسرائيلية وأنها دمرت المفاعل النووى العراقى تمامًا ! وقال لنا زميل عراقى إن الإسرائيليين دمروا المنشآت السطحية فقط ولم يصلوا إلى المفاعل الذى كان خبيئاً تحت الأرض . ولكننا عندما عدنا إلى مصر سمعنا موسى ديان يقول (يوم ٢٤) إنهم ”دمروا كل شئ“ ، وإن لديهم ما أسماه ’المقدرة‘ أو القدرة النووية (nucle-ar capability) وحدهم فى المنطقة (وقد توفى ديان فى أكتوبر من ذلك العام) .

وبعد صدور مجلة المسرح سافرت إلى روما للعمل بالترجمة والمراجعة فى الأمم المتحدة، ولحققت بى نهاد زوجتى وسارة ابنتى، ثم لحقت بنا عزة وسناء وبرتى أخوات نهاد، وقضين معى عدة أسابيع ، وفى يوم الأربعاء ١٩ أغسطس، دخلت المكتب فى الصباح لأجد المترجم أحمد فؤاد بلبع متجهماً مع زوجته نجلاء - وعلمت منهما أن صلاح عبد الصبور قد توفى فى اليوم السابق.



كانت وفاة صلاح عبد الصبور ضربة موجعة لى على المستويين الأدبى والنفسى ، وعرفت أنها ستكون كذلك لنهاد فلم أقل لها إلا بعد يومين أو ثلاثة ، وسافرت الأسرة قبلى إلى مصر ، وبقيت فى روما وكنت أواظب على شراء الصحف المصرية حتى جاء يوم قرأت فيه عن انقضاء السادات على معارضيه ، وقرأت قائمة أسماء المفضوب عليهم وأنا ارتجف خوفاً من أن يكون اسمى بينهم ، ولكن ”ربنا ستر“ وقطعت العمل بالترجمة وعدت إلى مصر لأرى الذعر فى وجوه الكثيرين و”عدم الفهم“ فى وجوه العامة ، وقمت بزيارة السيدة جيهان السادات بعد أن حَصَلْتُ على الماجستير وكانت تفكر فى موضوع للدكتوراه وتريد أن تستشيرنى ، وتحدثنا فى كل شئ ما عدا السياسة . ولكن الزيارة بثَّتْ بعض الاطمئنان فى نفسى ، وقال لى سمير سرحان ونحن خارجان من مسرح الطليعة ذات يوم بعد إحدى تجارب مسرحيتى زوجات مرحات إن منصور حسن وعد بتعيينه أميناً عاماً للمجلس الأعلى للثقافة .

كان محمود الألفى هو الذى يقوم بإخراج المسرحية ، ولم يأت بممثلين من خارج فرقة الطليعة إلا بنادية عزت ، ولكنه كان يعمل بجِد ونشاط ، فكَلَّف جمال سلامة بكتابة الموسيقى

وتلحين الأغاني التي كنت كتبتها بالفصحى وبالعامية طبعاً ، فأبدع وأبهر ، وتوقفت التجارب المسرحية في مطلع أكتوبر بسبب سفر بعض الممثلين ، وفي يوم ٦ أكتوبر اغتال المتطرفون رئيس الجمهورية ، فأحسست أن عهداً كاملاً قد انقضى ، لأن الزعامة في بلادنا ما زالت تقوم على شخصية الزعيم دون غيره .

ولا أستطيع أن أحدد الوقت الذي زالت الجفوة فيه بيننا وبين رشاد رشدى ، ولكنها زالت فجأة مثلما بدأت ، وإن كانت قد خلفت ندوباً ما لبثت أن تلاشت على مر الزمان ، وكنت مشغولاً إذ ذاك بمحاولة تقديم ميت حلاوة على خشبة مسرح السلام ، وهو مسرح أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا بشارع القصر العينى ، وكان محمود الحدينى قد عُيِّن مديراً عاماً للفرقة ، فاستبشرت به خيراً خصوصاً بعد أن قرأ النص المطبوع واقترح إعادة كتابة الفصل الثالث برمته ، واستبدال لفظ اختفاء الجمال بلفظ اختفاء الأغنام لأنه - كما قال - لا مفر من تفسير ذلك اللفظ بأنه يشير إلى المصريين ، والجمال حيوان "محترم" وله تاريخه الطويل في حياة العرب ، وهو نموذج الصبر والتحمل إلى آخر ما قال ، وحاولت أن أبين أنه لا توجد رمزية ولكنه قال إن المتفرجين قد اعتادوها ولا مناص من التفسير ! وصدعت بالأمر وأعدت كتابة الفصل الثالث في أواخر أكتوبر ، وفجأة جاءنا أمر من رئيس هيئة المسرح بإيقاف العمل ، وكان الاعتراض يقول إن لجنة القراءة المركزية لم تُجْزَها ، ولم أعترض ، إذ كنت مشغولاً بمسرحية زوجات مرحات ، التي بدأ عرضها في أول نوفمبر ولاقى نجاحاً جماهيرياً منقطع النظير ، فاستمر العرض شهرين ، وزارنا أيامها المخرج الأمريكى الكبير جوزيف پاپ الذى تخصص فى إخراج شيكسبير ، وكانت تعرض له آنذاك خمس مسرحيات فى وقت واحد فى شتى أنحاء الولايات المتحدة ، فدعوته لمشاهدة العرض ، الذى قسمه محمود الألفى إلى جزئين ، وبعد انتهاء الجزء الأول قال لى إن لديكم ممثلين عباقرة ، وكانت سعادته غامرة ، على الرغم من عدم معرفته باللغة العربية !

وعندما بدأ النقاد يكتبون عن العرض هالتهم "الروح الشعبية" المصرية فيه ، فالفكرة السائدة عن شيكسبير هي أنه كاتب مأس متجهم ، يتحدث "الفصحى" التراثية ، وهى الفكرة التى أشاعتها ترجمات الشاعر خليل مطران ، ولم يكن يريد أحد أن يطلع على ملهاوات شيكسبير أو يتجاوب مع روح الفكاهة التى تنافس روح الهزليات لديه ، وكان أقسى هجوم هو هجوم الناقد محمد رفاعي فى مجلة صباح الخير بعنوان 'مقتل كاتب مسرحى !'

وسمحت لى نهاد جاد - زوجة سمير سرحان ومديرة تحرير المجلة - بالرد عليه فى العدد التالى بمقال عنوانه 'مقتل النقد المسرحى' ، ولكن نقادًا آخرين قبلوا ما قدمته مثل السيدة آمال بكير التى جعلت عنوان مقالها فى الأهرام "شيكسبير فى قالب كوميدى" .

وفى أواخر نوفمبر عقدت لجنة القراءة جلسة خاصة لمناقشة ميت حلاوة ، ولما كنت عضوًا فى تلك اللجنة فقد كنت حاضراً ، ولكن القانون لا يسمح للمؤلف بالحضور إلا فى حالة الخلاف ، فخرجت من الغرفة ، وكان الاجتماع فى المساء فى مقر هيئة المسرح فى شارع عبد الخالق ثروت . وجلست أنتظر الحكم ، وبعد نحو ساعة ، استدعيت للدفاع ، إذ كان عبد الفتاح البارودى أعلى الحاضرين صوتاً ، وكان يصر على رفض المسرحية لأن بها تعريضاً للرئيس السادات ! وقلت له متحدياً أن يشير إلى أى عبارة تفيد ذلك فقال إنك تجعل أعضاء 'الجمعية' يهتفون قائلين "فليسقط الخائن !" وذلك ما لا أرضاه على الزعيم الراحل ! وقلت له كيف تفسر 'الخائن' بأنه الرئيس ؟ إذا كان ذلك رأيك فعبر عنه كتابةً حتى أرفعه إلى الوزير ! فهاج وماج وقال إنك أصبحت مثل الشيوعيين ! وانفض الاجتماع دون حسم ، فبدأنا الخروج، فعرض علينا المخرج أحمد زكى أن نزوره فى منزله لاستكمال السهرة ، وكان معنا الدكتور أحمد مرسى والدكتور عبد العزيز حمودة (الذى كان مناصراً للمسرحية) . وجلسنا نتسامر بعض الوقت فى منزل أحمد زكى وزوجته فريال الانجليزية (ولها اسم آخر هو جبرالدين أو جبرى) واقترح الدكتور مرسى فى آخر المساء أن نتجاهل عبد الفتاح البارودى وأن تصدر اللجنة قرارها بالأغلبية لا بالإجماع .

وانتهى العام وقد قرر محمود الحدينى تقديم النص مهما يكن ، فاقترح رشاد عثمان (المخرج) إسناد الدور إلى نوال أبو الفتوح فذهبنا إلى منزلها فى المهندسين وأعطيناها نسخة ، وبعد يومين أعربت عن موافقتها ، وجاءتنا إلى المنزل مع رشاد عثمان ، ولكن جلال الشرقاوى، وهو أستاذ جلال توفيق الذى أُسْنِدَتْ إليه مهمة الإخراج لم يكن مؤيداً لذلك الاقتراح، واقترح الأخير إسناد الدور إلى عايدة عبد العزيز، وهى صديقة قديمة، فكلماها وقرأت النص ، وقضينا أمسية جميلة فى منزل جلال توفيق بالمعجزة مع الممثل القدير محمد توفيق ، وكان اسمه من بين الأسماء المقترحة ، ولكن لم ينقض أسبوع حتى تلقى محمود الحدينى خطاب اعتذار من عايدة عبد العزيز تقول فيه إنها لا تقبل المشاركة فى مسرحية شيوعية (ولا يزال الحدينى يحتفظ بذلك الخطاب) . واقترح الحدينى الاستعانة بالممثلة

(.....) وفعلاً جاءت مع أحمد بدير وبدأنا بروفة الترابيزة (أى قراءة النص دون 'حركة') ولكنها طالبت بضمف الأجر المقرر للدور فوعدناها بمخاطبة الحدينى فى ذلك الشأن .

وذات يوم كنت خارجاً من مبنى التليفزيون حين قابلت إحدى تلميذاتى السابقات فى قسم اللغة الانجليزية فرحبت بها ورحبت بى ثم أردفت "أنا زعلانة منك لـ" "خير ؟" "كيف تستمين فى مسرحيتك بزوجة زوجى ؟" ولم أكن أعلم أن الممثلة المشهورة قد تزوجت مديماً (رحمه الله) هو زوج تلميذتى ، ومرّت الأيام وصادفت الممثلة المشهورة وتجاهلت الموضوع تماماً ! وعندما تكررت هذه القصص فى الوسط المسرحى لم أعد أدهش لما يقوله لى 'حسن' ، خصوصاً عندما عرفت أن لهذه الممثلة ابنة من زوج سابق هى حالياً أستاذة فى الجامعة !

وبعد التعثر فى اختيار الممثلين ، استقر الأمر على سميرة محسن (الدكتورة) ، ومعها سمير حسنى وعبد الحفيظ التطاوى ، ومحمد الشويحى (رحمهما الله) وانتظمت التجارب المسرحية ، وبدأ العرض يوم الخميس ٢٨ يناير ١٩٨٢ ، بعد أن توقف عرض زوجات مرحات فى آخر العام السابق . وبدأ الجمهور يتردد على المسرح الذى كان جديداً إلى حد ما ، وتوالى المقالات النقدية فى الصحف بعد إقبال الجمهور ، وكان الأسبوع الأول قد شهد ازدهاماً غير متوقع وربما كان ذلك بسبب 'أقاويل' الوسط الفنى ، ولكن الذروة كانت يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٨٢ إذ حضرت مجموعة القادة الثقافيين (الرواد) من قصر ثقافة مصر الجديدة ، فاضطر محمود الحدينى أن يفتح لهم الباب بعد أن كانت الصالة قد امتلأت عن آخرها ، وأسعدنى هذا الإقبال الذى كان خير دعاية للمسرحية ، وبدأت المقالات النقدية تتخذ شكلاً معادياً ، فكتب فؤاد دواره مقالاً نارياً فى الكواكب يهاجم المسرحية ، فرددت عليه بمقال فى العدد التالى ، وكان حسن إمام عمر هو رئيس التحرير الذى سرّ سروراً بالغاً باندلاع 'المعركة' ، وجاء فيليب جلاب صديقى ليشاهد المسرحية فأزعجه ما اعتبره انتقاداً للشيوعية أو الاشتراكية ، وبدلاً من أن يكتب هو أتى بزینب منتصر (من روز اليوسف وهى أخت الفنانة سهير المرشدى) وجلس معها فى الصف الأول يشرح لها خبايا النص وخفاياه ، فكتبت مقالاً لا يقل التهاباً عن مقال دواره، ولكن مقال آمال بكير فى الأهرام كان متعاطفاً ، وكذلك كانت مقالات غيرها فى المصور وآخر ساعة والأخبار والجمهورية .

وفى يوم السبت التالى ليوم الجمعة المذكور جاءنى سمير سرحان وقال إنه يريدنى لأمر هام فتركنا المسرح وخرجنا إلى شارع جانبى متفرع من شارع القصر العينى وقال لى : "إيه

رأيك .. لقد عرض على الوزير (محمد عبد الحميد رضوان) وظيفة رئيس الثقافة الجماهيرية فى صباح اليوم ١" وأشرت عليه بأن يقبل دون تردد ، وسرنا طويلاً ونحن نقلّب الأمر على وجوهه ثم انتهينا إلى أن ما أشرت به عليه هو الصواب ، وما ضرر التجوال فى ربوع مصر بين القرى والداكر ٥ وفعلأ ذهب إليه فى صباح الأحد ١٤ فبراير وتسلم صورة القرار الوزارى بانتدابه للعمل بعض الوقت من جامعة القاهرة رئيساً لهيئة الثقافة الجماهيرية (التي أصبحت حالياً هيئة قصور الثقافة) .

كان ذلك معناه إلقاء مسئوليات جديدة على عاتقه ، ولكن سمير سرحان لا يخشى المسؤولية بل يرحب بها ، وسرعان ما درس الأحوال فى ربيع ذلك العام ، وما إن حل إبريل حتى كان قد قرر بث النشاط فى فرق الأقاليم المسرحية عن طريق تكوين فرق دائمة فى قصور الثقافة وفى بيوت الثقافة من أبناء الأقاليم نفسها ، حتى يجد الشباب فى النشاط المسرحى الذى لا يقتصر على الإخراج والتمثيل بل يتضمن سائر الفنون المسرحية (من موسيقى وفن تشكىلى وتآليف) ما ينمى قدراتهم الإبداعية ويشغلهم عن الاتجاه السلفى الذى بدأ يتسرب بل ويضرب بجذوره فى عقولهم ، ولم يلبث أن قرر تنفيذ مشروع ثقافى موجه إلى الشباب بعنوان مكتبة الشاب ، وكلف عدداً من أساتذة الجامعة بكتابة كتب مبسطة لتعريف الشباب بأهم المجالات العلمية والأدبية والفنية ، واستجاب على الفور عدد لا بأس به من الأساتذة أذكر منهم على الدين هلال (وزير الشباب الحالى وكان أستاذاً فعميداً لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية) والدكتور محمد محمود الجوهري ، أستاذ الاجتماع والدكتور أحمد مرسى أستاذ الأدب الشعبى وغيرهم ، فعادت الروح إلى الهيئة .

ولم تمض أيام على بداية عمله فى الثقافة الجماهيرية حتى اتصل بى تليفونياً فى منزل راوية أباطة الممثلة فى فرقة الطليعة ، وكانت قد دعتنا إلى العشاء مع سمير العصفورى بعد عرض الماتينية لميت حلاوة ، وكان يوماً مطيراً ، ولكن المسرح كان غاصاً بالمتفرجين ، وكان سمير سرحان من المدعوين ولكنه اتصل للاعتذار ولإبلاغى أن كرم مطاوع قرر البدء فى إخراج مسرحية روض الفرج وأنه يتدارس النص حالياً معه ، وأن التجارب المسرحية ستبدأ فى اليوم التالى وهو يوم السبت ٢٠ فبراير ١ واختار كرم مطاوع زوجته سهير المرشدى للقيام بالبطولة ، إلى جانب حسن عبد الحميد ، وأمين الهنيدى وسمير حسنى (بطل ميت حلاوة) وعبد الحفيظ التطاوى (الذى كان يعمل فى ميت حلاوة أيضاً) وفعلأ بدأت 'بروفات الترابيزة' ولم تستمر سوى أسبوع واحد انتقل بعدها كرم مطاوع إلى الحركة .

وافتتحت المسرحية فى إبريل ١٩٨٢ وحضر حفل الافتتاح الوزير محمد عبد الحميد رضوان ولفيف من كبار الشخصيات مثل الدكتور يوسف شوقي (الموسيقار) وبعض الكُتّاب والنقاد ، وكانت المفاجأة التى لم نحسب لها حساباً ، وهى تصوير اغتيال الضابط الانجليزى على المسرح بصورة أعادت إلى الحاضرين ذكرى اغتيال السادات ، وكان كرم قد كلف الشاعر سيد حجاب بكتابة بعض الأغانى التى سُجّلت لمصاحبة بعض فقرات العرض ، وكانت الأغنية هنا تتضمن تعريضاً مستتراً بالحكم ، والنص الأصيل يحدد هذا الحكم بأنه حكم الملك فاروق الطاغية ، ولكن الصورة المسرحية جردت النص من التحديد الزمنى وأوحت للمتفرج بأنه قد يكون حكم الطاغية فى أى زمان ومكان ، مما أحزن الوزير ، وأغضب المسؤولين الذين صُدموا لمراى الضابط وهو يصاب بطلقات المسدس ويهوى على الأرض ! وترددت الأقاويل - كما هى العادة - وكثرت الهمسات والتلميحات ، وازداد إقبال الجمهور ، ولكن النقاد كانوا منقسمين بين مؤيد ومعارض ، واقترح تغيير المشهد أو تخفيف حدة التشابه بين الحادثة التاريخية أيام الاحتلال والحادثة التى كانت لا تزال حية فى الأذهان ، ولكن كرم مطاوع رفض تعديل أى شىء .

ولم يمض أسبوعان على افتتاح العرض حتى وقع ما لم يدر بخلد أحد إذ شبت النيران فى غرف الملابس بالمسرح ، ولم يستطع أحد مكافحتها فأتت على خشبة المسرح نفسها ، ولم يكن أى منا حاضراً فى تلك الليلة المشئومة ، وعندما سمع سمير بالخبر أسرع يستطلع الأمر فلم يجد سوى الحطام والرماد ، فقال - على ما فى حلقه من غصة - لقد سطعت المسرحية كالشهاب الذى انطفأ ! وهزنتى تلك النهاية الحزينة ، وقال البعض إن بعض 'عملاء' السادات هم الذين أشعلوا النار عمداً ، وقال آخرون إن أجهزة الأمن وراء الحريق ، وقال العقلاء إن المسرح لا توجد به وسائل أمن من الحريق ، وإن شدة الحرارة فى ذلك اليوم الخماسينى قد ساعدت على انتشار النار ، وإن بقيت المسألة لغزاً محيراً حتى اليوم .

وعلى الرغم من كل ما حدث ، لم يفقد سمير سرحان إيمانه بالمسرح باعتباره فن الفنون، وسار فى طريقه فى الثقافة الجماهيرية ، يعقد الاجتماعات فى القاهرة ، أو يسافر يوماً بعد يوم إلى الأقاليم للاتفاق على إنشاء الفرق الثابتة ، وقد صحبته ذات يوم إلى دمياط حيث تكونت فرقته الخاصة ، وقال لى فى طريق العودة "لقد نجحنا نجاحاً يعتبر بداية لا نهاية.. فما زلنا فى الأربعين وإذا عشنا فسوف نحقق المزيد" .

وتشجعت بعد النجاح الذى لاقتة ميت حلاوة على تقديم نص كنت كتبتة قبل عام وألقيت به يأساً فى الدرج ، وكنت استوحيتة من 'ياسر' تلميذى الذى يقول بأن الحجاب هو جوهر الإسلام (فهو فى رأيه مثل إعلان الشهادتين) ومن 'فوزى' الذى كان يقضى الليل 'فى سبيل الله' يقرأ التعاويذ ، ومن غيرهما ممن اقتريت منهم ، بل ومن أحد زملائى فى المدرسة الثانوية فى رشيد بعد أن قابلته فى العاصمة وقد 'تدروش' وقارب 'الانجذاب' . وأعدت كتابة النص فى الصيف ، بعد أن انتهيت من ترجمة الكتابين الأولين من الفردوس المفقود ، وكنت قد رُقِّيتُ أستاذًا مساعدًا فى مايو ١٩٨١ ، فهدأ بالى بعض الشيء وتفرغت للترجمة والتأليف .

وقدمت نص المجاذيب إلى مسرح الطليعة ، وكان يرأسه محمود الألفى بعد انتقال سمير العصفورى إلى المسرح القومى ، وتركت المسرحية تواجه أقدارها وسافرت إلى روما ، وقد اكتشفت أن الترجمة أصبحت أكثر من مورد رزق لى ، فهى للكاتب ممارسة 'كتابة مزدوجة' أى استيعاب فكر وإعادة صوغه بما يماثله أو يقابله أو يوازيه دون أن يكون مطابقاً له كل الانطباق ، فالاستيعاب كتابة معكوسة لأنه تدريب للوعى - كما يقول أصحاب النظرية الحديثة - على التكيف مع وعى آخر وتطويعه وفقاً لخبرات المترجم وتكوينه النفسى والثقافى، وتعتبر إعادة الصوغ (إلى حد ما) كتابة جديدة لجمهور جديد ! وفى ذلك الجهد المزدوج تتجلى قدرة المترجم على التفاعل ، والتفاعل - تعريفاً - نشاط مزدوج لأنه أخذ وعطاء فى الوقت نفسه ! ولذلك قبلت ترجمة كتاب موسيقى قدماء المصريين للدكتور محمود الحفنى (والد الدكتورة رتيبة) إلى الانجليزية فى أثناء مقامى فى روما ، إلى جانب عمل الأمم المتحدة ! وكان الدكتور عز الدين إسماعيل قد كلفنى بترجمته بعد أن أصبح رئيساً لهيئة الكتاب .

وتوفرت فى روما أيضاً على الانتهاء من كتابة حواشى الفردوس المفقود ومراجعة النص مراجعة دقيقة ، فكنت أقضى وقتى بالعمل صباحاً فى الترجمة العلمية ، ومساءً فى قراءة الكتب التى اشتريتها من مكتبة الأمم المتحدة (أو اصطحبيتها معى من مصر) وانتقاء الفقرات التى سوف أقتبسها للمقدمة ، ثم أترجمها ، أو أخص بعض آراء النقاد ، حتى تكونت لدى مادة كافية ، فنسختها على الآلة الكاتبة ، واطمأن قلبى إلى صورة النص المترجم بمقدمته وحواشيه ، فتركته حتى أعود إلى مصر .

كنت قد تخطيت الأربعين ، كما قلت ، وبدأت ألبس نظارة طبية للقراءة (طول النظر) وبدأت أعانى من ضغط الدم المرتفع ، وهو ما أثر بعض الشيء على القلب فكان ما يسمى 'بالدقة الناقصة' (missed beat) ولكن ذلك كله لم يؤثر فى خطة عملى ، وكانت أحلامى قبل وفاة صلاح عبد الصبور أن أصدر مجلة انجليزية فصلية تعرض للأدب العربى المترجم ، واخترت لها اسماً وافق عليه الشاعر الراحل وهو Cairo Literary Review ، ولكن أحداث العام (أو الحول الذى حال) وأدت أحلامى فى هذا المجال ، ولم يعد أمامى إلا أن أسبق العمر فأترجم شيئاً مهماً يبقى للأجيال ، ولما كنت قد جرعت الكفاية من كؤوس العذاب فى المسرح، فقد قدمت طلباً للعمل بجامعة الإمارات ، ورفضنى رئيس القسم الدكتور محسن أبو سعدة ، وهو مصرى متخصص فى اللغويات ، فتصحنى سمير بتقديم طلب إلى جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية ، ففعلت ، وكان همى أن أبتعد بعض الوقت عن صدام الممثلين وصراعاتهم وأقاصيصهم ، والتفرغ للتأليف والترجمة . وكنت سعيداً بأننى أترجم الآن أو بأننى عدت إلى الترجمة العربية.

وكانت تجربة ترجمة الفردوس المفقود متعة فريدة ، لأنها أتاحت لى أن أنهل من ثروات اللغة العربية التى كانت تبدو بعيدة المنال قبل سنوات معدودة ، وهى كامنة فى أعماق النفس ، وكان على رأسها ما حفظته طفلاً من القرآن الكريم فى الكتاب وما لقننيه والدى من أشعار العرب صبيّاً ، وما توارى منذ اليفوق فى مجاهل النفس ثم آن أوان استعادته القوة والعنفوان ، وكان سببلى فى ذلك أن أعيد قراءة بعض ما قرأت فى سنّى حياتى الأولى ، حتى أوقف ما هجع وأنبّه ما غفل ، وما أن انتهيت من الترجمة حتى عرضتها على الدكتور مجدى وهبة ، فقرأها هو وكامل المهندس ، وأعادها مع الإشارة إلى ما يحتاج إلى هوامش لإيضاحه (وقد انتهيت من ذلك فى روما) ، وتركها لى فى الكلية مع ورقة يثنى فيها على الجهد ويتحدث عن "قلم ممتع عذب" ، فقدمتها بعد عودتى فى سبتمبر إلى الدكتور عز الدين إسماعيل ، فأمر بنشرها على الفور فى سلسلة جديدة أسماها 'الإبداع العالمى' .

وكانت نهاد زوجتى قد حصلت على بعثة لدراسة الدكتوراه فى إنجلترا ، وانتهت من الإجراءات اللازمة ، بعد أن رشحها المعهد العالى للنقد الفنى للبعثة ، وكان العميد هو الدكتور سعد المنصوري ، وكان سبتمبر أيضاً شهر الكوارث العربية ، إذ انقضت إسرائيل على مخيمات الفلسطينيين فى لبنان ، واندلعت معارك طاحنة أدت إلى إجلالهم منها ، كما هياً مناخم

بيجين وإريل شارون الفرصة لحزب الكتائب اللبناني للانقضاض على الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا ، فوقعت المذبحة التي جعلتنا جميعاً نضيق بالدنيا وما فيها .

وجاءنى فى سبتمبر نبأ من جامعة الملك عبد العزيز فى جدة بالمملكة العربية السعودية يفيد قبولى للتدريس بها ، فبدأت العمل للانتهاء من إجراءات السفر ، وسافرت نهاد زوجتى مع سارة ابنتى إلى انجلترا يوم الأحد ٣ أكتوبر ١٩٨٢ ، وكان مقرراً أن تبدأ دراستها فى اليوم التالى ، وشغلت أنا بعد ذلك باستخراج تصريح العمل واستخراج جواز سفر جديد وما إلى ذلك ، ورأيت أن الإعارة فرصة سانحة - كما قلت - للابتعاد عن جو العمل المضنى فى مصر فى الجامعة وفى المسرح وإنجاز بعض مشروعاتى الأدبية ، والترجمة ، والحياة فى أرض مباركة.

وتحملت هذه المرة متاعب التعامل مع موظفى الحكومة راضياً ، وكنت أتردد على المسرح من وقت لآخر لأستطلع أنباء المجازيب فأدركت أن أمامها شوطاً طويلاً ، وكان رئيس القسم الدكتور سعد جمال قد رفض طلبى للإعارة إلى الأمم المتحدة ، ولم يعد أمامى سوى الإعارة إلى جامعة عربية ، وكان ماهر شفيق فريد قد عاد من انجلترا قبل عامين وسجل للدكتوراه بإشراف الدكتور مجدى وهبة ، ونوقشت رسالته آنذاك ، ففرحت لذلك كل الفرحة ، كما كان عبد العزيز حمودة قد عُيِّنَ وكيلاً لكلية الآداب بعد انتخاب الدكتور الجوهري عميداً فابتسمت الحياة ، وزاد من بسماتها تقديم مسرحيته الرهائن فى المسرح الحديث الذى شهد عرض ميت حلاوة فى مطلع العام وإعادة عرضها فى يوليو أثناء وجودى فى روما .

وبرحيلى إلى المملكة العربية السعودية بدأ فصل مستقل من حياتى .

الفصل الثالث



وصلت إلى مطار جدة يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ١٩٨٢ فوجدت في انتظاري شبير شنوى وعزة صليحة زوجته ، وفي اليوم نفسه زارنى عادل سرحان ، أخو سمير ، مع زوجته فاطمة ، وعلمت أنه يعمل مديراً لمكتب العميد ، وفي صباح اليوم التالى سلّمتُ نفسى للكلية ، وملأت استمارات كثيرة ، وعرفت جدول محاضراتى ومواعيد 'الدوام' أى الحضور فى الكلية كل يوم، وكانت من الثامنة صباحاً حتى الواحدة ظهراً ، ولكننا كنا نتفرق حالما ننتهى من صلاة الظهر ، وكان الروتين اليومى لى هو الكلية صباحاً ثم العودة للفداء والقيولة ظهراً ، فالسهر للقراءة والكتابة والترجمة .

وعدت إلى ما كنت أهملته من كتابة الخطابات والتلف على وصول ردودها ، فزوجتى وابنتى فى انجلترا وأصدقائى وأحبائى فى مصر ، ولم يلبث أن لحق بى فى السعودية أخى مصطفى فى نوفمبر عندما حصل على الدكتوراه فى إدارة الأعمال من كلية التجارة جامعة القاهرة ، وكان المشرف على رسالته هو الدكتور على السلمى الذى كان زميلاً لسمير سرحان فى جامعة إنديانا بالولايات المتحدة ، وعُيّن وزيراً لفترة من الوقت ، وجمعتنى الظروف به فى التسعينيات فى إطار برنامج التعليم المفتوح . ولكننى كنت عازفاً عن الحياة الاجتماعية بعد ضجيج القاهرة وفضلت التركيز على أعمالى الخاصة ، فلدى نصف نهار كامل فى كل يوم ،

ويومان (الخميس والجمعة) للعطلة الأسبوعية . وبعد الاستقرار وشراء سيارة جديدة ، فهي وسيلة المواصلات الأولى ، بدأت أنظم وقتي .

كان مصطفى محمود قد طلب مني ترجمة كتابه ”القرآن الكريم : تفسير عصري“ ولم يكن لدى من الوقت ما أخصصه لترجمة كتاب من هذا النوع ، فكنت أتلکأ وأراوغ ، وإذا بی أتلقي مكالمة تليفونية منه وأنا فی الكلية من مصر ، وكان صوته يعاتبني على ’الفرار‘ من مصر ! فوعده خيراً وكان ذلك أول كتاب أنتهى من ترجمته فی شتاء ٨٢ ، وأعطيت النص لناسخ باكستاني فی قسم اللغة الانجليزية اسمه ’بدر الدين‘ فنسخه دون أخطاء تذكر ، وفي عطلة يناير ١٩٨٢ سافرت إلى انجلترا لقضاء أسبوعين مع زوجتي نهاد وابنتی سارة .

كانت تلك ثانی مرة أزور فيها انجلترا بعد رحيلي النهائي عام ١٩٧٥ ، إذ مررنا بها وقضينا ليلة أنا وسمير سرحان فی طريق عودتنا من أمريكا عام ١٩٨١ ، ولكننا مكثنا فی لندن، أما هذه المرة فقد كنت أقيم مع أسرتي فی بلدة إكسموث Exmouth القريبة من جامعة إكستر Exeter حيث تدرس للدكتوراه ، وهي بلدة ساحلية يلطف نسيم البحر جوها ليلاً ، مما خفف بعض الشيء من برد يناير أو زمهريره ، وكانت تلك عطلة الجامعة أيضاً فكنا نخرج للنزهة أو نركب القطار إلى لندن لمشاهدة عرض مسرحي (مثل أيام زمان) أو نتردد على المكتبات لشراء بعض الكتب الجديدة .

كانت موجة النظرية النقدية الجديدة قد امتدت من القارة الأوروبية إلى انجلترا ، وبدأت مصطلحاتها تشيع فی اللغة الانجليزية البريطانية المحافظة ، فاشتریت عدداً من الكتب التي تتناولها تفصيلاً ، إلى جانب بعض الكتب عن الشعر ومجموعة كاملة من دواوين الشعراء الجدد ، وإن لم يكونوا شباباً ، وكانت نهاد تقص عليّ بعضاً مما تقرأ فی إطار دراستها لمسرحيات اللورد بايرون الشعرية ، فهي تحللها من منطلق مذهب الحداثة (modernism) والوجودية كذلك ! ودعانا الدكتور رشيد العناني لزيارته فی المنزل ، وكان قد حصل على الدكتوراه فی أدب نجيب محفوظ وعين محاضراً بقسم الدراسات الشرقية بجامعة إكستر ، وكان ولا يزال متزوجاً من وفاء فايز اسكندر (ابنة الدكتور فايز أستاذنا القديم) كما عرفنا بالدكتور محمود شعبان رئيس القسم ، وهو مصري حقق ذيوعاً وشهرة بكتابه بالانجليزية وعنوانه التاريخ الإسلامي : إعادة تفسير .

مر الأسبوعان كالأحلام وعدت إلى جدة برصيد لا بأس به من الكتب ، وعكفت في الفصل الدراسي الثاني على كتابة الكتاب الذي وعدت سمير سرحان بكتابته عن "الأدب وفنونه" لينشر في مكتبة الشاب من هيئة الثقافة الجماهيرية ، وكان منهجى في تأليفه طريفاً ، وما زلت أنصح به زملائي مما يعرفون الكثير ثم تقعد بهم الهمة عن الكتابة ، كنت أقول لنفسي بعد أن أنهض من القيلولة أو بعد صلاة العصر : أنت في امتحان يبدأ في الرابعة مثلاً ومدته ثلاث ساعات ، فاكتب ما تعرفه عن القصة القصيرة مثلاً ! وكان معنى هذا أن التزم بالجلوس إلى المكتب ثلاث ساعات ووضع النقاط الرئيسية لما تبقى في ذهني بعد ربع قرن من قراءة القصص وما كتب عنها من نقد ، فأوضح الفارق بين الحكاية والقصة القصيرة بشكلها الفني الحديث ، وأحدد عناصرها ، محاولاً التركيز في صلب الموضوع دون الدخول في سرد تاريخي لنشأتها وتطورها أو لآراء النقاد ودون إيراد أسماء أجنبية أو عربية . وعلى ضوء هذه النقاط الرئيسية أبدأ في الشرح مخاطباً الشباب الذين أتوجه إليهم بهذه المعلومات ، وقد يتطلب ذلك أكثر من ثلاث ساعات - يُسمح في خلالها بشرب القهوة أو الحركة أو حتى السير في الغرفة دقائق معدودة ، وهنا أقول لقد سمحنا لك بساعة أخرى وراحة لصلاة المغرب قبل تسليم ورقة الإجابة ! كنت 'ألعب دور' المعلم الذي يريد توصيل النقاط الأساسية للموضوع لا الباحث الذي يؤصل أو يدعو لنظرة أو نظرية جديدة ، فكتاب الشاب هو فرصة مخاطبة غير المتخصص ، ولا شيء يصد غير المتخصص عن القراءة مثل الأسماء الأجنبية والنظريات المتعارضة والمصطلحات الغامضة !

كانت تلك حيلة من حيل 'الصنعة' ، فوضع الهيكل مهم قبل ملئه بالتفاصيل ، أى إن للكاتب بعد ذلك أن يورد أمثلة على ما يقول وأن يدعم ما يذكره بآراء غيره أو باقتباسات من الكتب المتخصصة ، وذلك ما فعلته حين ترجمت قصة قصيرة تتبع المنهج الكلاسيكى الذى أوضحه هـ. أ. بيتس H. E. Bates في كتابه عن القصة القصيرة ، وحذا رشاد رشدى حذوه دون أن يحيد قيد أنملة ، وهى قصة 'شكراً يا مدام' للكاتب الأمريكى لانجستون هيوز ، كما ترجمت قصة تمثل المنهج النفسى والأسلوب الشعرى أو الشاعرى للبريطانية فيرجينيا وولف ، وهى قصة 'بيت مسكون' ، وحللت قصة 'زعبلاوى' لنجيب محفوظ للتدليل على لون القصة الرمزية . وبعد ذلك دعمت ما ذكرته عن ملامح القصة بآراء النقاد والباحثين . وكانت النتيجة أن أصبح الكتاب (الذى طبع عدة طبعات بعد ذلك) مقدمة ميسرة لغير المتخصص ، وكانت كل طبعة منه تتفد بعد أيام من صدورها .

وكانت تجربة التدريس فى بلد عربى شقيق باللغة الانجليزية ذات فوائد لم تتضح لى إلا بعد أن عدت إلى مصر ، إذ كان التركيز كل التركيز على اللغة فى ذاتها لا على الأدب الأجنبى الذى كان ولا يزال يعتبر وسيلة لتدريس اللغة ، وكان همى الأول هو أن أتيح للدارسين الفرصة حتى يسمعوها اللغة الانجليزية السليمة ويلتقطوا مصطلح اللغة (لا مصطلحات العلوم) فيمتادوا التفكير بتلك اللغة وكتابتها بأسلوب سليم بدلاً من الترجمة الحرفية من العربية ، وكانت مادة الترجمة إذن من المواد الأساسية ، لأن الطالب سوف يفكر بالعربية شئنا أم أبينا ، أو - فى أفضل الحالات - بمزيج من العربية المحلية والانجليزية المكتسبة فى مرحلة الدراسة الأولى ، وعلى الأستاذ أن ينبهه إلى 'المقابلات' الأجنبية للعبارات العربية التى يتوسل بها فى تفكيره ، وقد لا تزيد 'عبارة' من هذه العبارات عن كلمة واحدة ، وقد تطول فتصبح جملة كاملة . فالترجمة على مستوياتها الأولى تعنى المضاهاة بين ما نقوله فى بيئتنا المحلية بالعربية مهما يكن مستواها (سواء نطقنا به أم ظل حبيس الذهن) وبين ما يقوله أصحاب اللغة الانجليزية فى بريطانيا أو فى أمريكا .

وإذن فثم حاجة إلى التوسل بالترجمة فى تعليم اللغة ، كما يذهب إلى ذلك البروفيسور هيرفورد البريطانى ، ولا ضير إطلاقاً من استخدام اللغة العربية فى دروس تعليم اللغة الانجليزية فى سبيل المضاهاة بين اللغتين ، فالطالب يعرف على أبسط المستويات أن يترجم الكلمة العربية 'مرحباً' أو 'أهلاً وسهلاً' بمقابلها البريطانى 'hallo !' أو الأمريكى 'high' ، '!' وألا يستخدم فى ذلك تعبير 'you're welcome !' الذى يستعمل بالأمريكية (ودخل اللهجة البريطانية فى الآونة الأخيرة) للرد على كلمة شكراً فأصبح يقابل 'العفو !' أو البريطانية القديمة ('Don't mention it !') والطالب يعرف ذلك فى طفولته أو فى صباه، ويحتاج إلى توسيع نطاق معرفته بطرائق اللغة التى يكتسبها عن طريق المضاهاة الثقافية ، لا بين مفردات وتراكيب لغة الحديث اليومى فحسب بل بين مصطلح اللغة الأصيل فيوازى بين "هل يوحى لك ذلك بشئ؟" وبين (Does it give you any ideas ?) متجنباً فى ذلك ترجمة الفعل 'يوحى' والاسم منه الذى يحمل دلالات ثقافية عربية غير مقصودة بالانجليزية، كما يتعلم أن هناك مقابلات أخرى تشترك فى المعنى الأصلى وتتفاوت فى دلالاتها الثانوية ، فإذا كان درس الترجمة سوف يعلمه أن يقابل بين 'الأشغال الشاقة' وتعبير (hard labour) فيجب على المدرس أن يوضح للطالب أن هناك مقابلاً لذلك التعبير وهو (penal servitude) الذى يحمل دلالات ثانوية لا يوجد لها مقابل بالعربية !

وعندما كُلفت بتدريس الترجمة لطلاب الدراسات العليا وضعت هذه التجربة موضع التطبيق فراعنى الإقبال عليها ، وإن كان الطلاب يفضلون فك طلاسم اللغة الأمريكية الجديدة التى بدأت تسود اللغة الانجليزية فى أجهزة الإعلام الغربية بل وفى الكتب ، فقسمت المنهج إلى فصول تتصل بشتى مجالات المعرفة ، فشعر الطلاب بأهمية الترجمة لا باعتبارها نشاطاً لغوياً صرفاً بل باعتبارها مضاهاة ثقافية مستمرة ، فالتعبيرات التى تنتمى إلى الثقافة العربية قد لا يوجد لها مقابل فى الثقافة الانجليزية والعكس بالعكس ، وهو ما شجعنى على الاهتمام بالترجمة فى تعليم اللغة الانجليزية اهتمامى بها كوسيط ثقافى بل وفكرى ، وهو ما بدأت أفعله فى مصر عند عودتى .

وعكفت فى الفصل الدراسى الثانى على ترجمة مسرحية محاكمة رجل مجهول التى كتبها الدكتور عز الدين إسماعيل شعراً إلى الانجليزية ، وكنت آتى بما أترجمه منها فأجعله جزءاً من درس الترجمة ، وتدرجياً أشركت الطلاب معى فى البحث عن المقابلات الانجليزية للتعبير الاصطلاحي العربية ، وكان التجاوب يزيد عما توقعته ، فازداد عدد الطلاب الذين يدرسون الترجمة على هذا المستوى ، وذاعت جده المنهج الذى أتبعه ، وسُرَّ به الدكتور عادل إلياس رئيس القسم (وهو سعودى) سروراً عظيماً ، وعندما اكتملت المسرحية كتبت لها مقدمة وافية وأعطيتها للباكستانى 'بدر الدين' فنسخها على الآلة الكاتبة لقاء دراهم معدودة .

وكانت الخطابات لا تتوقف بينى وبين نهاد فى انجلترا وسمير فى مصر ، فعلمت من نهاد أنها سوف تعود إلى مصر لقضاء أشهر الصيف الثلاثة ، كما أطلعنى سمير على ما يدور فى الحقل الثقافى فى مصر إذ كان قد انتهى من الترجمة العامية لمسرحية حلم ليلة صيف وأن حسين جمعة المخرج يتولى إخراجها لمسرح الشباب ، وأن مسرحيتى المجاذيب تجرى لها التجارب المسرحية على قدم وساق ، وأنها سوف تعرض فى الصيف ، وقص على الحل الذى اهتدى إليه لمشكلة ترجمة وثائق 'جيبوتى' (وهى مشكلة ذات قصة تشغل حيّزاً كبيراً من خطابه . فما هى ؟

كان قد اتصل به فى الصيف أحد المسئولين فى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (UNDP) وأخبره أن لديه وثائق كثيرة عن مشروع يعتزم البرنامج تنفيذه فى جيبوتى ، وأن الموافقة جاءت من مكتب رئيس الجمهورية الجيبوتية ، وأنه إذا وافق فسوف يأتية مندوب منها

لتوقيع العقد ، ووافق سمير ، وجند كل المترجمين الذين يعرفهم للترجمة من الفرنسية ومن الانجليزية إلى العربية ، وقد وقع العقد وأصبحت لديه نسخة عليها شعار برنامج الأمم المتحدة ورئاسة جيبوتي ، واطمأن قلبه فجمل ينفق من حسابه الخاص على الترجمة ، بل إننى عملت معه أحياناً فى مراجعة بعض النصوص ، وكان 'محمد' (ابن عبد النور خليل سكرتير تحرير المصور) يده اليمنى فى هذا العمل ، وكان قد تخرج فى قسم اللغة الفرنسية ، فكان يذهب إلى المترجمين فيسلمهم الوثائق ويتسلم الترجمة ويذهب إلى مكتب نسخ يسمى 'الناسخ السريع' للانتهاء من إعداد الوثائق ، وكانت الأسعار المتفق عليها أدنى كثيراً من الأسعار الدولية ، ولكن سمير وافق لطرافة الموضوع والتحدى المتمثل فيه .

وعندما انتهت الترجمة وسلم جميع الوثائق إلى مكتب برنامج الأمم المتحدة ، وحن موعد تقاضى الأجر وجد المسؤولين يقولون له إن النقود قد حُوِّلت كلها إلى جيبوتي ، وإن عليه أن يطالب الحكومة الجيبوتية بدفع مستحقاته ، فاتصل بالسفارة فوعده خيراً وظلوا شهوراً يماطلون ، وهو حزين على ما أنفقه فى هذا المشروع وما دفعه للمترجمين من مبالغ وصلت إلى آلاف الجنيهات . وكان الحل الذى توصل إليه عبقرياً ، إذ اشترى تذكرة طائرة إلى جيبوتي ومعه صورة العقد باللفات الفرنسية والانجليزية والعربية ، واتجه إلى وزارة المواصلات المختصة بالإشراف على المشروع ، (فهو مشروع تموله الأمم المتحدة لإنشاء طرق) وطالبهم بحقوقه ! وبعد محاورات ومراوغات اتضح له أن المسؤول الكبير يريد أن يتقاضى 'حلاوة' دفع المستحقات ! فهدده سمير بأن يشكوه إلى رئيس الجمهورية وإلى الأمم المتحدة نفسها ، ولكن المسؤول أفهمه أن ذلك لن يجدى فتيلاً ، فلا أحد ينكر حقه ، ولكن الإجراءات اللازمة لإخراج أية أموال من خزانة الدولة بعد دخولها قد تستغرق شهوراً أو أعواماً - ولكنها (بعد 'الحلاوة') قد تستغرق أياماً أو ساعات معدودة ! كانت تجربة مريرة ، واضطر سمير إلى أن يتظاهر بالموافقة فقال له المسؤول إنه كان يتصور أو يخاف أن الأستاذ (le profes- seur ne comprends pas) أى لا يفهم وقال سمير لى فى الخطاب : "فأفهمته أن البروفسور كله مفهومية !" ولم يتركه سمير حتى أجبره على دفع حقوقه كاملة !

وذات يوم دخلت مكتب رئيس القسم ، وهو غرفة فيها مكاتب لأساتذة آخرين ، فوجدت فيها شاباً اسمه 'يوسف' قدمه الدكتور محمود حسين إلى باعتباره المشرف على البرامج الإذاعية الثقافية باللغة الانجليزية فى الإذاعة السعودية ، وإن لديه برنامجاً جديداً هو أمهات

الكتب العربية (Arabic Classics) وأنه يودنى أن أكتب له أحاديث أسبوعية ، أجر الحديث ١٥٠ ريالاً ! ووجدت الفرصة سانحة لأعيد قراءة أمهات الكتب العربية ، خصوصاً ما كنت درجت على حبه فى صباى ، والاطلاع على غيرها ، فذهبت فى مساء ذلك اليوم نفسه إلى مكتبة كبيرة واشترت عدداً من كتب التراث ، إلى جانب كتب أخرى هُيئ لى بعد أكثر من عشر سنوات أن أقدم مختارات منها (مع سمير سرحان) فى مكتبة الأسرة رافد مهرجان القراءة للجميع فى مصر ! وبدأت بآبن المقفع ، فعرضت لكتاب كليله ودمنة وترجمت منه قصة القرد والفيل (أى ذكر السلحفاة) وأتبعته برحلات آبن بطوطة ورسائل آخوان الصفا وبيدائع الزهور فى وقائع الدهور لآبن إياس ، وبالأغانى للأصفهانى (ثلاث حلقات) وهكذا حتى اكتملت ثمانى عشرة حلقة ، وكان الذى يتولى تسجيلها بالانجليزية مجموعة من الانجليزيات والأمريكيات المثقفات من زوجات الطيارين وأضرابهن ، ولم تكن المكافأة كبيرة ، ولكن ذكر اسمى أسبوعياً فى الإذاعة الانجليزية من راديو المملكة كان فيه تعويض عن الجهد ، وما زلت أحتفظ بتسجيلات هذه البرامج (وقد استمع إليها عند عودتى الدكتور سمير أمين مدرس اللغويات بالقسم وأخذ منها نسخاً إلى أمريكا) .

وانتهى العام الدراسى وعدت فى أواخر يونيو لأجد فى المطار نهاد زوجتى مع سميد منصور - صديقى القديم - الذى كان متزوجاً من الدكتورة نادية البنهاوى - ومعهما أخبار رائعة عن مسرحية المجاذيب ! لقد لحن الموسيقىار على سعد (زوج الممثلة فتحية طنطاوى) الأغانى التى كنت كتبتُها بالعامية فى غضون النص ، وتحدد موعد افتتاح العرض فى أول أغسطس ١٩٨٣ ، وكان سمير سرحان قد أقنع الوزير رضوان بإعداد مسرح صيفى فى حديقة الحرية بأرض المعارض ، وهو مسرح فى الهواء الطلق ، وبدأ عرض مسرحية حلم ليلة صيف فيه فى يوليو !

وسعدنا فى الصيف بافتتاح مسرحية سمير ، ولكن افتتاح المجاذيب تأخر حتى منتصف أغسطس ، وإذا بال جماهير تتزاحم بصورة لم أشهد لها مثيلاً ، وكان المسرح يزدحم كل ليلة ويأتى العمال بمقاعد إضافية ، ورفض محمود الألفى زيادة أسعار التذاكر ، فالهدف هو إسعاد الجمهور لا الربح المادى ، وكان الجميع فى قمة السعادة للأضواء والموسيقى التى أمست توحى بزفة عرس فى صيف القاهرة ١٩٨٣ ، وبدأ النقاد يتوافدون ، وكان أولهم حسن عبد الرسول ومعه أخته سعد (زميلتى القديمة فى قسم اللغة الانجليزية التى كانت تعمل فى

اليونسكو) وابنتها لبنى إسماعيل (التي كانت طالبة فى قسمنا وحصلت على الدكتوراه فيما بعد (٢٠٠٠) وبعد العرض قال لى حسن عبد الرسول إنه يدرك المعانى الخبيثة التى يزخر بها النص ، فالمجذوب الأكبر يقصد به السادات ، والمجاذيب هى الجماعات الدينية التى سمح لها بالعمل فقضت عليه ! وأنكرت ذلك بشدة مبيناً له أن تلك الشخصيات مستوحاة من الواقع الفعلى ولا توجد فى النص أية إحياءات سياسية وافترقنا !

وتركت 'العُرس' و'الزّفة' وعدت إلى السعودية ، وجعلت أترقب الصحف المصرية كل يوم وأتطلع إلى النقد المسرحى فلم أجد كلمة واحدة عن المسرحية ، وكان ذلك درساً قاسياً ، فكما قال نبيل بدران - المؤلف والناقد الراسخ - إن دور المؤلف ينتهى فى الغرب بكتابة النص، ولكنه يبدأ عندنا بتقديمه على المسرح ! فعلى المؤلف أن يرفع 'نصه' بمراعاة شيئين الأول هو التقليل من خروج الممثلين عن النص ، فهذه آفة مستأصلة فى الجميع ، إذ ما يكاد الأسبوع الأول ينقضى حتى يكون الممثل قد عرف أو تعرف على المناطق التى تحتل 'الإضافة' لإضحاك الجمهور وزيادة الوقت الذى يقضيه على المسرح ، والثانى هو متابعة النقد وإيضاح مقاصده ومراميّه ، والإلحاح عليهم بالكتابة ، ولكن المجاذيب عرضت شهرين أو أكثر فلم تحظ بشيء يكتب عنها إلا مقالة نقد مرير كتبها آمال بكير بعنوان 'معالجة فاترة لقضية ساخنة' ! وقرأت المقال وأنا فى جدة للعام الدراسى الثانى فحزنت حزناً عميقاً .



ولكن صيف عام ١٩٨٣ كان يحمل نبأ ساراً وهو حصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة دون أن أقدم إليها ، إذ فحصت اللجنة (لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) الأعمال المقدمة إليها فلم تجد فيها ما هو جدير بالجائزة ، فقررت تطبيقاً للقانون اقتراح عمل ما وفحصه ، واقترح الدكتور مجدى وهبه مقرر اللجنة فحص ترجمة الفردوس المفقود ففحصتها اللجنة وقررت بالإجماع منحها الجائزة وهى ألف جنيه وشهادة تقدير ، وكان ذلك دافعاً لى على الاستمرار ، فبدأت العمل فى الجزء الثانى حالما أفقت من صدمة الاستقبال

النقدى للمجازيب ، وجاءنا فى أكتوبر من يقول إن مشروع ترجمة معانى القرآن قد ووفق عليه، وإن اللجان التى سبق تشكيلها سوف تبدأ العمل على الفور .

وكان المشروع فى بدايته فى أيدى أساتذة كلية الهندسة باعتباره مشروعًا للترجمة بالحاسب الآلى ، وكلية الهندسة لديها قسم للحاسبات ، ولكن أساتذة الهندسة لم يستطيعوا بعد عام كامل إعداد برنامج حاسوبى ، ولم ينجح إلا اليابانيون فى عام ١٩٩٥ فى إعداد برنامج للترجمة العلمية يكاد يقوم كلية على المصطلحات دون الصياغة ، ومن ثم رأت رابطة العالم الإسلامى التى كانت تشارك جامعة الملك عبد العزيز فى المشروع ، بإشراف العام الفاضل دمث الخلق الدكتور عمر نصيف ، تحويله إلى كلية الآداب . وكان منهج الدكتور محمد محمود غالى ، أقدر وأكبر الأساتذة ، هو إعداد بيان كامل بالترجمات السابقة لمعانى القرآن ، وهى أكثر من ثلاثين ، ولا يوجد منها حاليًا إلا ١٩ ، فتقرر إعداد بطاقات تتضمن كل بطاقة الآية العربية ، وإلى جانبها الترجمات التسع عشرة ، ومكان خاص لوضع ترجمة مقترحة تأخذ من الترجمات السابقة حسناتها وتتجنب مثالبها ، وبعد أيام قضيناها فى اجتماعات مع أساتذة الهندسة ، وكان المبلغ المخصص للترجمة قد حُوّل إليهم فأنفقوه على الحواسيب ، وبعد اجتماعات مع بعض علماء التفسير الذين كانوا يقدمون لنا خلاصة آراء كبار المفسرين ، على نحو ما فعل الشيخ محمد على الصابونى ، بدأنا العمل .

كان العمل بالغ النظام والانتظام ، إذ وضع الدكتور غالى تشكيلًا يضم عدة لجان ، تتكون كل لجنة من ثلاثة ، ويكون اجتماعها يوميًا للاتفاق على ترجمة معنى آية أو أكثر ، وترفع مقترحاتها إلى لجنة عليا للنظر فيها ، وإقرارها أو تعديلها ، ولم تحدد لنا أجور ، بل ولم نطالب بأجور ، إذ كان الجميع مقبلين على دراسة كتاب الله ، وكانت لجنتى تتكون منى ومن باكستانى يدعى الدكتور سيد آل نبى ، ومن أستاذ من جنوب إفريقيا يدعى محمد فقير . وكنت أتولى أنا قراءة التفاسير التى يأتينا بها أستاذ التفسير ، وإلقاء الضوء على معانى الآية الظاهرة والباطنة ، والتنبيه إلى تأويلات الشيعة والصوفية ، ثم نشرع فى ترجمة المعنى ، محاذرين مشفقين من الخطأ أو الزلل ، فالمسؤولية عظيمة . وكانت هناك لجان أخرى أهمها لجنة الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولى ، ولجنة الدكتور على جمال الدين عزت ، ولجنة الدكتور محمود حسين ، وكان فى كل منها باكستانيون وغيرهم ، وكان الدكتور غالى يتابع العمل بدأب وإصرار .

كنا نجتمع فى المكتبة ، فأبدأ بشرح الآية لعضوى اللجنة بالانجليزية مما كان يفتح أبواباً للصياغة واختيار الكلمات ، وبعد ذلك ننظر فى الترجمات المنشورة للآية ، ونناقشها ترجمة من بعد ترجمة ، فتأكد لى ما كنت أحسه ، وما شهدته فى الهند ، وما أصبح يرتكز الآن على أسس علمية لا تقبل النقض ، وهو أن اللغة العربية لغة لا يدرك أسرارها إلا أبناءها ، وأن من أهم هذه الأسرار تغير معانى الكلمات بتغير موقعها فى النص أى وفقاً للسياق ، وهو ما يصدق على اللغات الأخرى ، ولكن ذلك يتخذ طابعاً خاصاً فى العربية بسبب وجود المستويات الزمنية الثلاثة للعربية وهى مستويات اللغة التراثية والفصحى المعاصرة و'العامية' أو العربية المحلية التى يتحدث بها أهل كل قطر من أقطار الوطن العربى ، وقد تأكد لى ذلك وأصبحت له قاعدته العلمية عندما قرأت كتاب الدكتور السعيد بدوى عن اللغة العربية ومستوياتها فى مصر الذى كان قد صدر قبل عشرة أعوام ولم أكن قرأته . فمعظم المترجمين يضعون - من باب احترام كتاب الله - لفظة واحدة لكل لفظة عربية ، وهذا هو منهج أربرى - المستشرق البريطانى الشهير - وبعضهم يفسر الكلمات التراثية فى ضوء الفصحى المعاصرة ، وهذا هو منهج بيكتول ، وبعضهم يضيف إلى الآية ألفاظاً بين أقواس ليحصر المعنى فى تفسير واحد قد يكون صوفياً ، وهو منهج يوسف على . ومن ثم بدأت فى تكوين منهجى الخاص الذى يحسب حساب تغير معنى الكلمة باختلاف زمانها ، وتشكلت فى ذهنى أفكار محددة مستمدة من واقع خبرتى المذكورة ، عرضتها فى عدة كتب بالعربية والانجليزية على امتداد التسعينيات وحتى عام ٢٠٠٠ .

كان أهم ما يتطلبه هذا العمل هو الصبر ، ويكفى أن أقول إننا لم ننجز فى ثلاثة أشهر إلا ترجمة معانى سورة واحدة من القرآن ، وشغلنا فى يناير ١٩٨٤ بالامتحانات والتفرق فى عطلة نصف العام ، وسفرى إلى إنجلترا لزيارة نهاد زوجتى وسارة ابنتى . كنت أشعر بالقوة لوجود النقود فى جيبى فاشتريت التذكرة وحولت بعض النقود إلى جنيهات استرلينية ، وانطلقت إلى لندن فقضيت الليلة فى فندق فى محطة بادنجتون ، وهى المحطة التى كنت أركب القطار منها إلى أوكسفورد أو إلى ردينج ، وفى الصباح الباكر ركب القطار إلى إكستر ومنها إلى إكسماوث فوصلت إلى منزل أسرتى فى الوقت الذى كنت حددته لهما فى خطابى الأخير ، وفى مساء اليوم نفسه وكان يبدأ آنذاك فى الرابعة (فالشمس تغرب فى نحو ذلك الوقت) سرنا على شاطئ النهر حتى مصبه فى البحر ، واشترينا مشروبات ساخنة فى مقهى

صغير ، وهناك قالت لى نهاد إنها تمضى قُدمًا فى كتابة الرسالة وتتوقع الانتهاء منها بحلول الصيف ! وكدت أطيّر فرحًا ، إذ سنعود إلى مصر ، وسيلتئم شمل الأسرة من جديد ، وفى الأيام التالية ترددنا على المكتبات وذهبنا إلى لندن وشاهدنا بعض المسرحيات ، وانقضت أيام العطلة وعدت إلى جدة وليس فى ذهنى سوى تلقى الإشارة المرتقبة من نهاد حتى نعود إلى مصر بعد تقديم الاستقالة !

وفى شهور الفصل الدراسى الثانى قطعنا مرحلة لا بأس بها فى ترجمة معانى القرآن ، فاكتمل لنا جزءان ، وأعلنت اعتزامى على الاستقالة فتقبل زملاء الخبر بالوجوم والتكذيب ، إذ يندر أن يقطع 'المعار' إعارته ويترك المال رمز القوة ووسيلتها ، ولكننى كنت أحمل ما أنجزته فى ترجمة الفردوس المفقود (أربعة كتب) وحصادًا وفيرًا من كتب التراث التى امتلأت بها ثلاث حقائب ، وذات يوم من أيام مايو ١٩٨٤ جاءنى خطاب من نهاد يؤكد أنها انتهت من الرسالة ، وأن مناقشتها وشيكة فأهرعت إلى مكتب العميد وقدمت استقالتي ! واستدعانى العميد الدكتور سليمان غنام - وكانت فيه شهامة البدو وصراحتهم - وقال لى "إحنا زعلناك فى شىء ؟" فأكدت له أن أسبابى عائلية محضة ، ولكنه رفض توقيع الاستقالة وقال لى سنناقشها فى الأسبوع المقبل . وأحسست أن ثمة جهودًا تبذل لإقناعى بالعدول عن الاستقالة ولكننى كنت قد صممت واستخرت الله ، وقال لى الدكتور عادل إلياس : أفلن تنتظر مكافأة ترجمة معانى القرآن ؟ وقلت له بثقة : إن كانت هناك مكافأة مادية فسوف تأتيني أينما أكن ، ولكن مكافأتى الحقيقية هى دراسة هذه الترجمات التسع عشرة وما تعلمته من التفسير ! (وتسلمت المكافأة نقدًا بعد عام كامل وأنا فى مصر) وجاءتنى مكالة تليفونية من روما فاتصلت بهم فقالوا هل يمكن أن تأتى فى الصيف شهرين ؟ ووافقت على الفور .

وفى أواخر يونيو ١٩٨٤ ، وكنا فى رمضان ، حزمت حقائبي التى كانت ثقيلة وتنذر بدفع غرامة لزيادة الوزن ، ولكننى لم أكن مستعدًا للتخلّى عن أى كتاب ، وفى المطار وقفت أحسّ كم ستكون الفرامة ، ولكن الموظف المسؤول رحب بى وقال لقد كنت من طلابك ! وقلت له إننى قطعت الإعارة فأبدي الأسف وقال : "ترجع لنا إن شاء الله !" ورفض أن يفرض على أى غرامة . وعند وصولى فتح 'كشاف' الجمرک الحقيبة الكبرى فرأى الكتب متراصة ، ولاحظ أن عدة مجلدات تحمل عنوان تفسير ابن كثير فقال لى "لديك نسخ متعددة من هذا الكتاب .. هل تتنازل لى عن إحداها ؟" فأجبتُه بأنها أجزاء لكتاب واحد ، إن شاء أخذها

كلها أو تركها كلها ، وفى المساء أعددت سيارتى الفيات (١٣٢) شبه الجديدة للعمل ، إذ كنت اشتريتها قبل السفر مباشرة ، وكنت قد بعث فى جدة سيارتى اليابانية إلى فاروق (أخى شبير زوج عزة) ، واتصلت تليفونيا بالأسرة ، أسرتى وأسرة نهاد ، ثم بسمير سرحان الذى أخبرنى أنه ترجم "على كيفك لـ" إلى العامية وهى مسرحية شيكسبير التى عادة ما يترجم عنوانها إلى "كما تهواه" وبالفصحى ، مع أنها كوميدىا فاقعة ، ولا تصلح لها إلا العامية ، وأنه أسماها زى ما تحب وأنه أسند إخراجها إلى حسين جمعة . وحادثت ماهر شفيق فريد ومررت عليه فى الصباح وخرجنا نسير فأخبرنى بوفاة والده .

كان ذلك يوم الخميس ٢١ يونيو ١٩٨٤ ، وسرنا أنا وماهر على الأقدام حتى وصلنا إلى الجامعة ، فتسلمت العمل رسميا (أى أنهيت إعارتى) وطلبت إذنًا بالسفر فقبل لى أنت فى عطلة وهذا من حقه فحصلت على 'الورقة الصفراء' وجلست أنا وماهر قليلاً مع عبد العزيز حمودة الذى كان سعيداً بعودتى ، فقال إنه قد انتهى من كتابة مسرحية الظاهر بيبرس (التي قدمت فيما بعد باسم ابن البلد) وأنه ينتظر الفرصة المواتية لعرضها على المسرح ، بعد نجاح الرهائن نجاحاً منقطع النظير ، وخرجنا وسرنا عائدين إلى القسم فوجدنا الدكتور سعد جمال يلعب الزمن لأنه بلغ سن التقاعد وعليه أن يترك رئاسة القسم مرغماً ، فسألناه عن عساه يخلفه، فقال لا يوجد أساتذة عاملون إلا سمير سرحان ، فالدكتور فخرى قسطندى يصغر سعداً بعام وبضعة أشهر ولكنه أستاذ مساعد ، والدكتورة أنجيل بطرس سمعان تجاوزت السن (فهى من مواليد ١٩٢٣ - أطال الله عمرها) وفاطمة موسى قضت سنوات الرئاسة الست ، وهى سعيدة فى السعودية ، ثم أردف قائلاً : ولكن سمير سرحان مشغول بالثقافة الجماهيرية !

ورغم حرارة الجو عدنا أنا وماهر سيراً على الأقدام إلى منازلنا ، وتجاوزنا أطراف الحديث فأطلعته على كل ما فعلته ، وأطلعنى على مشروعاته ، وتحدثنا عن أحوال الحياة الأدبية ، وقلت له صادقاً إننى أصبحت زاهداً فى الضجيج الإعلامى وإن هدفى هو أن أخلف شيئاً ينفع جمهور القراء العرب ، إذ لن يلتفت إلينا أحد - نحن دارسى الآداب الأجنبية - وسيظل أهل العربية نجوم المجتمع الأدبى ، وحادثته عما رأيت وسمعت فى السعودية ، وقلت له إن الناس سريعة النسيان ، فإذا لم يملك الفرد منبراً أدبياً يحدثهم منه أمسى عاجزاً عن التواصل معهم ، وكنت علمت بوفاة الدكتور رشاد رشدى قبل عام وأنا فى جدة ، وبوفاة

الدكتور أمين روفائيل من قبله ، فقررنا فى قيظ ذلك اليوم إعداد كتب نصوص فى الشعر والنقد تحل محل كتبهما التى غدت أضخم مما يحتاجه المدرسون .

وفى يومى السبت والأحد شُغلت بالاستعداد للسفر ، وفى يوم الاثنين سمعت فى الإذاعة البريطانية بوفاة الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكوه ، وقررت إعداد برنامج عنه للإذاعة ، وعرضت الفكرة على ماهر ولكنه قال إن صديقه محمد إبراهيم أبو سنة يتوقع منى برنامجاً عن الشاعر تيد هيوز ! وأعدت كتب فوكوه إلى مواقعها على الرف ، وعكفت على هيوز فقرأت كتاباً عنه من تأليف ساجار ، ثم ترجمت بعض القطع من متابعته الطويلة 'بروميثيوس فوق الصخرة' ، وكان موعد سفرى يقترب فأسرعت بتقديم الجزء الثانى من الفردوس المفقود (الكتب الأربعة من ٢ - ٦) مع الحواشى الوافية إلى المطبعة ، وتعهد الشاعر سعد درويش بمراجعة التجارب الطباعية ، فسافرت إلى روما مطمئناً .

ولم تعد نهاد وسارة إلى مصر إلا فى الرابع من أغسطس ، وكنت أحادثهما تليفونياً بصفة مستمرة ، وأتمنى لو كنت معهما ، ولكن إغراء روما كان غلاباً ، فشغلت نفسى بقراءة الشعر الانجليزى الحديث إذ كنت أخشى أن انقطع إلى القدماء فأعجز عن تذوق المحدثين ، وأعددت مذكراتى الخاصة بخمسة شعراء يمثلون مذاهب مختلفة وإن كانت الحداثة تجمع بينهم، وبعد أن شبت حادثة خطرت لى فكرة مستوحاة من أحد كتب التراث التى كنت قرأتها فى السعودية ، وهى فكرة المجاعة التى وقعت فى أيام المستنصر بالله ، ورأيت أن تصوير المجاعة على المسرح موضوع ملتهب ، وذكرت ذلك عرضاً على مائدة الغداء للسورى لؤى جمعة (وهو من دير الزور - ريفى الطبع وعنيد وشهم !) والعراقى (الكردى) زهير عبد الملك ، فقالا إن ذلك مشهور فى تاريخ المنطقة وليس مقصوراً على مصر ، ثم أهدانى زهير كتاباً صغيراً للمقرىزى هو إغاثة الأمة بكشف الغمة عن تاريخ المجاعات فى مصر ! وبدأت التخطيط لمسرحية الغريان (وأطلقت اسم زهير على بطل المسرحية) ، وإن كانت الشخصيات التى استوحيتها معاصرة ، ووجدت أننى أكتب فقرات منظومة ، بل وحواراً شبه منظوم ، فقررت أن أستخدم قالب النظم فى الكتابة هذه المرة ... وبالفصحى !

وتعرفت آنذاك على شخص نادر يدعى إسماعيل أبو زيد ، أصبح من أقرب أصدقائى ، وكان يعمل فى قسم التحرير بالمنظمة ، وقصصت عليه عَرَضاً فكرة الغريان فتحمس للفكرة ، واصطحبني فى السيارة بعد أن انتهينا من العمل فى الخامسة إلى مقهى على شاطئ البحر ،

وجلس يقص على طرفاً من معاناة الفلاحين فى قريته بالدقهلية فى أيام الملكية من عنت الإقطاعيين وجبروتهم ، وكيف انتهى به ذلك إلى الإيمان بالناصرية بعد الاشتراكية ، وكانت نهاد زوجتى - عندما تعرفت عليه فى العام التالى وتوثقت العلاقة بيننا - تطلق عليه لقب "آخر الناصريين المحترمين" لصفر سنه !

كان حديث إسماعيل أبو زيد يتسم بالصدق والجد ، وهما صفتان كانتا قد بدأتا فى التوارى من مجتمع السبعينيات ، وجعلت أستمع إليه وأنا لا أريد الرحيل حتى غربت الشمس فعندنا وقد اتضحت لى صورة ما أريد أن أفعل فى الغربان . وعندما 'فتحت' التلفزيون لأشاهد الأخبار فى الثامنة سمعت وشاهدت مظاهرات الآلاف فى الفلبين ضد الرئيس ماركوس، وكنت قد بدأت فى تحسين لغتى الإيطالية ، فأدركت أن المظاهرة التى نظمت فى ٢١ أغسطس كانت لإحياء ذكرى أكينو (بنينيو أكينو) زعيم المعارضة الذى اغتالته الحكومة قبل عام ، وفى اليوم التالى سمعت عن اشتداد حدة المجاعة فى إثيوبيا تحت حكم منجستو ، فكأنما كنت أشهد أحداث مسرحية فعلية أليمة ! وعندما عدت إلى مصر يوم السبت أول سبتمبر كتبت فى مفكرتى "قراءة تاريخ الدولة الفاطمية" .

وشغلنا عند وصولى بالتقديم لسارة ابنتى فى مدرستها القديمة بعد قضاء سنتين فى مدرسة انجليزية ، وتمت الإجراءات بسهولة ، ثم افتتحت مسرحية زى ما تحب فى مسرح الهواء الطلق بحديقة الحرية ، وألقى سعد أردش خطاباً عن المسرح بمناسبة انتهاء عمله رسمياً رئيساً لهيئة المسرح (لبلوغه سن التقاعد) ثم بدأ حفل الافتتاح الذى حضره الوزير رضوان ، وحضره لقيف من أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة الانجليزية ، واصطحبني سمير سرحان لتهنئة الممثلين على المسرح فرأيت بينهم زوجة 'حسن' ، وإن لم ألمحها تشارك فى العرض ! وكدت أن أسألها عن 'حسن' ، وربما لمحت السؤال فى عيني فقالت بلهجة صافية (ويا لها من ممثلة بارعة) "ده حسن فى مصر ويبدور عليك !" وابتسمت وشكرتها ! وفى صباح اليوم التالى اتصل بى حسن تليفونيا واتفقنا على اللقاء بعد أيام !

أصرت نهاد زوجتى بعد عودتنا إلى إعادة طلاء الشقة قائلة إنها لا يمكن أن تستقبل الشتاء بهذه الجدران الكالحة ، وكانت محقة تمامًا ولكننى كنت أخشى القلقة وقد بدأت العمل بقراءة كتاب العقاد عن الفاطميين (واستعرت من الأستاذ أحمد السودة) ثم بقراءة عدد من الكتب المدرسية (ولا أقول 'الأكاديمية') مثل كتاب حسن إبراهيم حسن عن تاريخ الإسلام ، وكان الواضح (حتى من الأسلوب) أنه ينقل عن مصادر أجنبية ، ثم قرأت أحمد أمين ، وأخيرًا استعنت بالدكتور حسنين ربيع ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى وصديقى القديم، فأعطانى قائمة ممتازة ، واخترت منها ما وجدته مفيداً (وحاضرًا) وما أن حل الشتاء حتى عثرت على ضالتي لا فى تاريخ الدولة الفاطمية بل بعدها بكثير ، ولم أجدها فى تلك الكتب بل فى خطط المقرئى !

كان سمير سرحان قد عُيِّن رئيسًا للقسم فى مطلع العام الدراسى ، وقام بجهد مشكور فى حفز الدكتور فخرى قسطندى (الكسول) على التقدم للترقية لدرجة أستاذ ، حتى أنه كان يتابع عمله أحيانًا ، ودفعه آخر الأمر إلى طبع كتابين عن برنارد شو وعن مسرحية قروسطية هى كل إنسان ، وكان الواضح أن سميرًا يخطط لترك رئاسة القسم له ، إذ كان عز الدين إسماعيل مرشحًا لرئاسة أكاديمية الفنون فى العام التالى ، وكانت رئاسة هيئة الكتاب تنتظر شخصية أدبية مرموقة مثله ، خصوصًا بعد أن أبلى بلاءً حسنًا فى الثقافة الجماهيرية ، ولقد حضرت اجتماعًا له مع مندوب الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) انتهى بحصول هيئة الثقافة الجماهيرية على دعم كبير لأنشطتها ، وكان نجاحه محط أنظار الجميع الذين رأوا فى خياله الخصب وذهنه المائج بالأفكار الجديدة ما يمكن أن ينهض بهيئة الكتاب نهضة حقيقية ، وذلك بعد أن حوّلها عز الدين إسماعيل إلى دار صحفية ، تصدر (إلى جانب فصول) مجلة القاهرة (برئاسة عبد الرحمن فهمى) ومجلة إبداع (برئاسة عبد القادر القط) ، وإذا كانت فصول فصلية ويمكن اعتبارها كتابًا دوريًا ، وإذا كانت إبداع شهرية لا تستنفذ الكثير من الورق ، فإن القاهرة كانت أسبوعية وتكاد تلتهم الميزانية التهامًا .

وعندما تغيرت الوزارة وجاء الدكتور أحمد هيكل وزيرًا للثقافة وكنت أعرفه من الجامعة وأحبه وأحترمه ، بعد أن ناقشنا مسرحية فاروق جويدة الوزير العاشق فى صورتها الأولى فى

برنامج أمسية ثقافية ، أحسست أن الألوان قد آن لأن أكتب الغريان شعراً ، ولكن حسين جمعة كان يلح على أن أقدم له مسرحية مترجمة ، وحبذا لو كانت غنائية ، وحبذا لو كانت جماهيرية إلخ ففكرت فى إعادة صياغة ترجمتى المنشورة القديمة لمسرحية روميو وجوليت لشيكسبير ، فمكفت على النص القديم تعديلاً وحذفاً وإضافة ، وجعلت فيه مواقف شعرية كاملة ، مثل مشهد الشرفة الشهير ، كما 'تجسست' فى الإعداد فقسمت العرض إلى قسمين ، وما إن حل الربيع حتى كان النص قد اكتمل ، وعندها حمدت عمل الشتاء مثلما يحمد القوم السرى عند الصباح ! كان حسين جمعة سعيداً بإخراجه نصين بالعامية لشيكسبير من ترجمة سمير سرحان ، وكان يتوق إلى الاستمرار بتقديم نص شعرى غنائى فى موقع مماثل ، بعد إغلاق مسرح حديقة الحرية ، فاقترح على 'مسرح الشباب' الذى كان يرأسه رشاد عثمان التقدم بطلب إلى الوزارة بإنشاء 'مسرح النهر' فى الزمالك فى مواجهة نادى الجزيرة ، وما كان أشد سرورنا حين جاءت الموافقة من الوزارة ومن المحافظة ! وبدأ العمل فى إنشاء حديقة على شاطئ النيل فى إبريل حتى تكون جاهزة بمسرح كبير من خلفه الأشجار الباسقة لتقديم العرض فى الصيف .

وريثما يتم ذلك بدأ حسين جمعة تجاربه المسرحية فى مكان أعده خصيصاً بجوار المسرح العائم بجوار كوبرى الجامعة ، واختار عزة بلبع للقيام بدور جوليت وأشرف سيف (ابن وحيد سيف) للقيام بدور روميو ، وكان تصوره أن يكون العرض غنائياً وموسيقياً ، ولم نجد خيراً من جمال سلامة لوضع الألحان والموسيقى ، وحسين جمعة شعلة من نشاط ، وأذكر أننى كنت مع سمير سرحان فى منزلى وحدنا حين جاءتى مكاملة تليفونية منه يطلب فيها حضورى فوراً إلى منزل جمال سلامة فى الزمالك ، وكنت مشغولاً مع سمير فى ضبط جهاز التليفزيون الملون الذى دخل منزلنا لأول مرة ، فاعتذرت لسمير وتركته 'يلعب' مع الجهاز وأهرعت إلى الزمالك.

وجلس ثلاثتنا حول النص نرى ما يصلح فيه للفناء الفردى ، وما يصلح للإلقاء مع خلفية موسيقية (روستاتيف) فانتبهنا إلى أن عشرين مقطوعة تصلح للفناء ، بعد تعديل النظم فى بعضها حتى تصبح كوبليهاات ليسهل تلحينها ، وترك الباقي للإلقاء الروستاتيف . وسألنى جمال عن ألوان الأنغام التى أتصورها وألوان الإيقاعات ، وكان يعرف أننى درست الموسيقى ، فتناقشنا وشربنا الشاي وأكلنا الحلوى (فجمال مغرم بالحلويات ولا يكاد يتناول سواها فى

عمله (أو فراغه) حتى انتصف الليل أو كاد ، وكان حسين جمعة لا يكف عن الكلام حتى أثناء 'دندنتنا' بالألحان ! وجمال عبقرية نادرة ، يتفجر الحاناً ويتحدث بالعبارات الموسيقية مثلما نتحدث نحن باللغة ! وتفاءلت ونحن خارجين ، ولكننا كنا ما نزال ننتظر بناء المسرح الذى سوف يقدم عليه النص !

ولكن تفاؤلى أسلمنى إلى 'العذاب' وهو صحبة حسين جمعة ، فكلما طرأ طارئ فى إعداد المسرح ، أو تأخر أحد المقاولين فى عمله ، حادثنى بالتليفون ونسب التعطيل إلى مؤامرات 'الشيوعيين' ، والمشكلة هى أنه لم يكن يستطيع التوقف أثناء الحديث لالتقاط النفس (ولا يزال) فهو 'يسرق النَّفس' كما نقول فى مجال الغناء أثناء الحديث ، ويواصل ربط العبارات بأسلوب جدير بالتحليل اللغوى الحديث ، ولم أكن أستطيع أن أنهى المكالمة بسهولة ، فكان وجع الرأس الذى استمر طيلة شهر مايو ، حتى بعد أن اكتملت لديه الموسيقى ، وبدأ بروفات الحركة ، وانتهى تصميم الملابس ، فتوقعت افتتاح المسرحية فى يوليو ، أو فى أغسطس على أقصى تقدير ، وشغلت نفسى بإعداد دراسة بالانجليزية عن التورية الساخرة أو المفارقة الدرامية (irony) فى الشعر الانجليزى الحديث ، وحاولت عبثاً أن أنسى عذاب حسين جمعة !

وجاء الفرج عندما اتصلوا بى فى روما ودعونى للعمل فى الصيف ، وكان سمير سرحان قد قرر الانتقال إلى هيئة الكتاب وترك رئاسة القسم للدكتور فخرى الذى كان قد تقدم للترقية، فى اللحظة الأخيرة، فهو من مواليد عام ١٩٢٥ أى إنه كان لابد من الترقية حالاً قبل بلوغه سن التقاعد (المعاش) وكان عبد العزيز حمودة قد انتخب عميداً للكلية، وسافرنا أنا ونهاد وسارة إلى روما، وقضينا الصيف فى حوار مسرحى ، وكانت الدكتورة سمحة الخولى رئيسة أكاديمية الفنون قد وافقت أخيراً على تعيينها فى هيئة التدريس بالمعهد العالى للنقد الفنى بعد حصولها على الدكتوراه، وكان حديثى يدور دائماً عن الغريان، وإن كنت أقضى الوقت فى التسرية بقراءة روايات جراهام جرين التى اشتريتها من مكتبة الأمم المتحدة، وعدنا فى أول أغسطس لنجد أن حسين جمعة ما زال يجرى التجارب المسرحية فى المسرح الجديد!

وعندما كنت أتعجل حسين جمعة كان يقول لى "أنا لا أخسر شيئاً ! فأنا من مواطنى الاسكندرية ، وأتقاضى يومياً بدل سفر قدره ثلاثون جنيهًا ! ولا يضيرنى إذا تأخر افتتاح العرض ! " وكنت متخوفاً من التأخر لأن الخريف على الأبواب ، وشاطئ النهر بارد لا يشجع

الجمهور على الصمود ، خصوصاً بسبب طول النص ، وكان هذا هو العيب الأساسى الذى أَعُدَّ
نفسى مسؤولاً عنه فى المقام الأول !

طول النص ؟ الحق أننى أخطأت - على نحو ما ذكر عبد العزيز حمودة فى تحليله
للعرض فى برنامج المسرح التليفزيونى الذى تقدمه سميحة غالب (أرملة صلاح عبد الصبور -
رحمهما الله) أخطأت حين قدمت مسرحية غنائية ومسرحية درامية فى آن واحد ! كان على
إذا اخترت الصورة الأولى أن أحذف الكثير من تفاصيل الحكبة ، بل وأن أضغط النص ضغطاً
لا يسمح بالتفريعات أو الحكبات الثانوية ، وأما إذا اخترت الصورة الثانية فلا بأس من تقديم
كل شئ دون موسيقى وغناء ! كانت التجربة مفيدة فالكاتب لا يتعلم إلا من واقع العرض
المسرحى ، وهذا هو ما أفادنى فيما كتبه بعد ذلك من مسرحيات (الغربان ، وجاسوس فى
قصر السلطان ، والدرويش والغازية) .

وحل سبتمبر واستعد الناس لدخول المدارس ، وبدأت الرطوبة تشيع فى المساء على
شاطئ النهر ، وحسين جمعة يجرى تجاربه المسرحية ، وكنت فى أثناء ذلك ألح على سمير
سرحان فى أن يسمح بإصدار (أو إعادة إصدار) مجلة المسرح من هيئة الكتاب ، وكنت عندما
عرضت الفكرة على الدكتور عز الدين إسماعيل اقترح إصدارها بالمشاركة مع هيئة المسرح ،
ولكننا كنا الآن نحاول تحقيق أحلام أكبر ، إذ عادت فكرة نشر الأدب العربى المترجم إلى
الانجليزية تلح على ذهنى ، وكان سمير متحمساً لها ، بل كان قد طلب من نهاد صليحة ترجمة
محاكمة فى منتصف الليل للروائى محمد جلال ، وانتهت منها فعلاً ، وكتب لها المقدمة
الانجليزية بنفسه ! كنت طموحاً فى حركة أدبية شاملة لا مسرحية فقط ، ولكن سمير كان لا
يزال يدرس أحوال الهيئة ، بما اكتسبه من خبرة فى الإدارة فى الشقافة الجماهيرية ، وكان
أهم ما اكتشفه أن مدير الشؤون المالية والإدارية يتحكم مع أعوانه فى مسار الهيئة ونشاطها
إما بحبس المال عنها بطرائق ملتوية تخصص فيها أو بتقديم المال بشروط ، وهو ما لم يكن
غير سمير قادراً على اكتشافه ، ذلك أنه أغرق نفسه فى دراسة هذه 'الشؤون' حتى يعرف كل
شئ، وهو عمل مضمّن شاق ، وانتهى به الأمر إلى أن تخلص من ذلك الموظف الكبير بعد كشف
حيله ، وهكذا لم يبدأ عام ١٩٨٦ إلا وسمير يعرف ماذا يجرى من أمامه ومن ورائه !

ولم ترفع الستار عن روميو وجوليت إلا فى يوم الخميس ١٩ سبتمبر ١٩٨٥ والخريف
على مبعده يومين ، ومع ذلك فقد امتلأ المسرح يوم الافتتاح وكان الدكتور أحمد هيكى وزير

الثقافة حاضراً مع نخبة من الأدباء والفنانين كان من بينهم أنيس منصور ، وفاروق جويده الذى قال لسمير سرجان ”محمد عامل شغل كويس رغم أن الشعر لا يترجم !“ وجلست بجوارى عبلة الروينى ناقدة الأخبار التى كتبت مقالاً جميلاً عن العرض اختصره حسن عبد الرسول ، كما كتبت آمال بكير مقالاً مُطَوِّلاً ، وسرعان ما جاء التلفزيون لتصوير المسرحية وقامت بإخراجها للتلفزيون إقبال الشارونى (زوجة سمير عوض) وكانت آلات التصوير تتعطل أحياناً فيضطر الممثلون إلى إعادة المشهد ، وسهرنا ليلتها حتى الرابعة صباحاً ! وكان من بين الذين واطبوا على الحضور - فحضرت أكثر من مرة - طالبة مجتهدة لدينا فى قسم اللغة الانجليزية خضراء العينين ، عرفت فيما بعد أنها لميس النقاش ابنة رجاء ، وذات مساء فى أواخر سبتمبر لمحت فريقاً من لابسى الجلابيب البيضاء و’الفترة‘ (وهى لباس الرأس السعودى) وعجبت من إقبالهم على مشاهدة عرض بالفصحى ، ولكن أحدهم تعرّف علىّ وجاءنى متهللاً وقال لى إنه أحد طلابى السابقين ! وانتهى العرض فى ٢١ أكتوبر !

وصدر العدد الأول أو الكتاب الأول فى سلسلة الأدب العربى المعاصر بالانجليزية فى يناير ١٩٨٦ ، وهو ترجمة رواية محاكمة فى منتصف الليل لمحمد جلال ، وجاءنا خطاب من المستشار الثقافى فى المجلس البريطانى يثنى على الرواية وعلى الترجمة ويعترض على حجم الكتاب إذ كان من القطع الكبير ، ودعانى جمال الفيطنى إلى مكتبه بعد أن تولى الإشراف على الصفحة الأدبية فى جريدة الأخبار ، وأعطانى صورة تصلح لغلاف روايته وقائع حارة الزعفرانى التى كان قد ترجمها أمريكى يدعى ”بيتر أو دانييل“ فى نحو عشر سنوات ، وكتبتُ لها مقدمة طويلة بعد أن راجعت النص وعدلت ما تعذر عليه فهمه من عبارات كتبت بالفصحى وإن كانت أصولها عامية مثل ”ممکن خمسة ؟“ فقد حيره هذا التعبير ولم يعرف الخمسة ”المقصودين“ ، بل أشار إلى ذلك فى الهامش ، وصدرت الترجمة فى إبريل ، فتشجعتُ وأعددت مجموعة الشعر العربى المعاصر التى ترجمتها ، وقدمت لها بمقدمة طويلة تتضمن مقارنات مستفيضة بين الشعر العربى ’الجديد‘ فى مصر والشعر الانجليزى الحديث، وصدر الكتاب ، وهو الثالث فى السلسلة فى يونيو ١٩٨٦ .

وفى الصيف سافرت إلى روما ، وكان قد صدر لى كتاب Varieties of Irony أى أنواع من التورية الساخرة ، كما صدر لى عن دار غريب للنشر كتاب دراسات فى الشعر والمسرح ، والجزء الثانى من الفردوس المفقود بحواشيه الضافية ، فاجتمع لدى من الدراسات

والترجمات بالعربية والانجليزية ما يكفي للتقدم للترقية ، فتقدمت بالطلب مشفوعاً بما يسمى 'النشاط الثقافي' وسافرت مطمئناً ، واستطعت التركيز في روما على الغربان ، وكان إسماعيل أبو زيد يقرأ ما أكتبه أولاً بأول ، فما انتهى الصيف حتى كنت قد رقيت أستاذاً وكتبت المسرحية في صورتها الأولى . وعرضتها على نهاد فأبدت اعتراضات كثيرة دفعتني إلى إجراء ما اقترحتهُ من تعديلات ، وأعددت النص بالآلة الكاتبة ، وقرأته على ماهر شفيق فريد والأستاذ أحمد السودة فأبديا عدة ملاحظات قررت تأجيل النظر فيها .

ونشرت المسرحية في هذه الصورة الأولى بمجلة إبداع (فبراير ١٩٨٦) ، وتقبلها النقاد بقبول حسن ، وهو ما شجعني على تقديمها إلى المسرح الحديث ، وقرأها محمود الحديني وناقشها معي ، وكان يرى أن كفة الشعر فيها ترجح كفة الدراما ، وجلسنا نبحث ذلك تفصيلاً ووجدت كلامه مقنعاً فعدت إلى النص حتى أزيد فيه من هوة التصادم بين الفلاحين وبين السلطة المملوكية ، وأكاد أعيد صياغة النص طلباً لتعميق الصراع الذي هو جوهر الدراما ، ولكن القالب "التجريبي" الذي يتضمن الراوى كان لا يزال قائماً ، مما جعلني أقدمها إلى سمير العصفوري في مسرح الطليعة ، وقرأها ورحب بها ، واختطفها من يده مخرج نابه هو ماهر عبد الحميد ووجدته يتصل بي تليفونياً ويقول لي "إيه البونبونانية دي ؟" وكان يقصد بذلك أنها "صغيرة وحلوة" وقال سمير العصفوري إنه موافق على تقديمها في الموسم الجديد ، ولكن ماهرًا حصل في تلك الآونة على عقد للعمل بإحدى دول الخليج وسافر فجأة وربيع ١٩٨٧ لم يكد يبدأ .

كنا في مارس ، وكان والدي قد أصابه ارتفاع ضغط الدم بالفالج ، إذ كان لا يؤمن بالأطباء ولا بالأدوية ، وكانت تلك هي المرة الثالثة ، وكانت الأولى في ١٩٧٢ والثانية في ١٩٧٧ ، وكان عنيداً لا يصفى لنصح أحد ، وبدا أنه ملّ الحياة بعد تقلبات الدهر التي تحدثت عنها من قبل ، وكنت آنذاك في الكويت أعمل في إحدى دورات منظمة المؤتمر الإسلامي ، وعندما عدت فوجئت بحالته المؤسفة ، وأحضرنا له أنا وأخي مصطفى بعض الأطباء الذين بينوا له خطورة الحالة ووصفوا له بعض الأدوية ، وكانت والدتي تؤدي فريضة الحج للمرة الثالثة ، وعندما عادت لم يكن ثم بد من نقله إلى المستشفى ، ولكن حالته تدهورت بسرعة وتوفي في ٢٧ مارس ١٩٧٨ . وكنت ما زلت أكتب في الأهرام ولكن في عدد الجمعة في عمود أسبوعيات ، وكتبت له رثاء بعنوان عاد إلى الطيور .

وعندما كنت في الكويت احتفل بنا أنا والدكتورة سامية أسعد (من القسم الفرنسى) أعضاء هيئة التدريس في كلية الآداب ، واتفق معى الدكتور سامى أنور رئيس قسم اللغة الانجليزية على الالتحاق بالقسم فى العام التالى ، وقدمنى الدكتور جابر عصفور ، الذى كان وكيلاً للكلية لشئون الدراسات العليا والبحوث ، إلى العميد الدكتور خلدون النقيب ، وبات فى حكم المؤكد أن أغادر القاهرة فى العام الدراسى التالى . ولا زلت أذكر مائدة الغداء التى أقامتها الكلية احتفالاً بنا (أنا وسامية) وأحاديثنا مع الأساتذة ، وكان أكثر ما راعنا هو كثرة الأساتذة المصريين الذين لا نعرف عنهم شيئاً فى مصر ، بعضهم تقدم به العمر وبعضهم ما زال فى ريعانه ، ولكنهم جميعاً مجهولون لنا ، فهم لا يكتبون ولا يترجمون ، ولكن يعيشون قانعين بالحياة الرخيّة ، بعيداً عن أعين الحساد والطامعين ! ودعانا الدكتور سامى أنور أنا والدكتور زكى عبد الله إلى الخروج إلى وسط البلد لشراء مستلزماتنا ، ثم إلى منزله ، كما دعانا (أنا وسامية) الدكتور عزت عبد الموجود إلى منزله ، وهو طباطبا ماهر ، فقضينا معه سهرة ممتعة ، وقال لنا جابر عصفور فى تلك السهرة إن جامعة الكويت منحت جائزة التفوق العلمى للدكتور فؤاد زكريا لأنه ترجم ٢٥ كتاباً .

كانت أصدقاء رحلة الكويت لا تزال ترن فى أذنى ونحن فى رحلة العودة من رشيد حيث دفن والدى رحمه الله فى مقابر الأسرة ، وكنت أتأمل مصر طيلة الرحلة ، وأنظر فى حسرة إلى يد الخراب التى امتدت إلى حديقة والدى فأحالتها باسم العمران إلى أرض للبناء ، وتطلعت دامع العينين إلى أطلال ذلك البستان الذى بذل فيه والدى جهداً جهيداً ، ففرس الأشجار حتى أصبح قبلة أنظار الطيور الأوروبية المهاجرة ، وعدت كأئننى دفنت حياة أو قل دنيا كاملة ، عالم كامل كان يتوارى وأنا أنظر كسير القلب عاجزاً عن فعل شىء . وأحسست آنذاك أننا جميعاً لا نملك من أمرنا شيئاً فكان الغربة قدر ، وكان التغير يُحدث من الغربة فى الداخل ما تتجاوز آثاره غربة البدن .

وعدت إلى المسرحية أحاول أن أجد فى تقديمها السلوى وكنت أطمع فى أن يقدمها أحد المخرجين الشبان ممن أثق فى قدراتهم مثل عصام السيد أو مراد منير ، ولكن الجميع كانوا مشغولين بمشروعاتهم الخاصة ، وفى مطلع الصيف اتصل بى الدكتور هانى مطاوع وقابلته وأعطيته النص وقابلته فى محل 'الويمبى' فى المهندسين ، وقال لى إنها 'ليبرتو' رائع (أى مسرحية شعرية غنائية) ، وهو على استعداد لإخراجها ، بشرط إيجاد المسرح المناسب ،

وقررت أن أذهب إلى سمير المصفرى وأقنعه بهانى مطاوع ، ولكن سميراً كان كعهدى به
ماكرًا فلم يقدم لى إجابة نهائية ، وجعل يتكلم ويتكلم دون أن أدرى مقصده ، وكنت إذ ذاك ما
زلت فى الأربعينيات وأتناول دواء ضغط الدم يوميًا فتحملت حديثه الذى طال فأمن فى
الطول وانصرفت دون إجابة حاسمة.

وعند باب المسرح قابلت صديقى الجوال 'حسن' :



تحدث حسن طويلًا عن حياته فى الخليج قائلاً إن الحرب قد خلقت روابط متينة بين
عرب الخليج، إذ شعروا - ربما لأول مرة - أنهم يواجهون خطرًا مشتركًا، وإن العراق، رغم
ظروف الحرب، تعيش أيامًا مجيدة، فالأموال متوافرة، والعمل المسرحى والدراما الإذاعية فى
أوج الازدهار، وإنه يحاول إنشاء معهد للفنون المسرحية فى إحدى دول الخليج، وهو الآن
يدرس - على الطبيعة - إمكان الاستعانة بالأساتذة المصريين من داخل الأكاديمية وخارجها،
وأدركت ما يرمى إليه فقلت له إننى أكثر اطمئنانًا إلى اللغة الانجليزية والأدب الانجليزى، وإن
ثمَّ احتمالاً هو ذهابى إلى الكويت! فقال بسرعة: "وما العراق والكويت ؟ إنهما واحد!" وقلت
له إنه واهم فالفارق شاسع، فجعل يحدثنى عن تحرر المجتمع العراقى قائلاً إنه مثل القاهرة
الخمسينيات والستينيات، وإن حب العراقيين للمصريين لا يماثله حب شعب آخر، وكنت فى
غمار ذلك أتحيّن لحظة صمت لعرض الغريان عليه، ووجدت الفرصة سانحة عندما وصلنا
إلى سيارتنا فوضعت فى يده النص ، وقلت له أن يقرأه ويقول لى رأيه. وافترقنا.

وفى إبريل اتصل بى المستشار الثقافى فى المجلس البريطانى وعرض علىّ المشاركة فى
مؤتمر الأدب الحديث فى كيمبريدج بانجلترا ، فى يوليو ، ووافقت وذهبت إليه وقابلته
وشرحت له أننى فقير ولا أستطيع تحمل ثمن تذكرة الطائرة فوافق على أن يتحملها المجلس ،
وأحضرت إليه بعد ذلك جواز السفر حتى يتولى المجلس استخراج التأشيرة لى . وشغلت بعد
ذلك بالامتحانات ، وبالشئون الجامعية ، إذ كان الدكتور فخرى قد تولى رئاسة القسم عامًا
واحدًا ، وتولت بعده الدكتورة هدى جندى صديقتى القديمة ، ولم تكن قد تسلمت الرئاسة

رسميًا ، لأننا كنا ما نزال نعيش فى ظل العام المنصرم ، ولكن التغيير المحتوم كان يتطلب الحضور المنتظم إلى الجامعة ، وذات يوم أثناء درس الترجمة الأدبية لطلاب الدبلوم - وكانت آخر محاضرة - أتى إلى طالبٍ بترجمة لفقرة من مسرحية تاجر البندقية لشيكسبير أبدعها الشاعر الكبير خليل مطران ، فقررت أن أجعلها موضوع الدرس ، مثلما كان شكرى عياد يفعل عندما كنا نخصص بعض الدروس (فى عام ١٩٥٧) لدراسة ترجمات لويس عوض لمسرحيات الشاعر الانجليزى الأشهر . وعندما عدت إلى المنزل فى ذلك المساء كنت قررت أن أترجم ذلك النص نظمًا .

كانت ترجمة شيكسبير (شعرًا أو نثرًا) تتطلب ما يسمى بمعايشة النص معايشة كاملة ، ومقارنة الشروح والتعليقات فى الطباعات المختلفة بعضها البعض ، وقد وجدت فى ذلك متعة أى متعة ، وانكبت على العمل بحماس ، حتى انتهيت أو كدت أنتهى من النص قبل السفر إلى كيمبريدج ! كان إيقاع النظم ساحرًا ، خصوصًا حين يتغير البحر بصورة شبه تلقائية بتغير الموقف ونبرة المتحدث وشخصيته ، وسررتى سرورًا عظيمًا أن أستطيع استخدام البحور المركبة (كالخفيف مثلاً) وعدم الاقتصار على البحور الصافية ، مثل الكامل والرجز (والرمل والهزج) والمتقارب والخبب ، وكنت أذعن تمامًا لموسيقى الشعر بعد أن أيقظت تجربة الفردوس المفقود وروميو وجوليت ما كان قد أغفى ، أو ضرب الله على آذانه فى كهف نفسه من كلم العرب سنين عددًا ، وكانت متعة العمل بترجمة الشعر تفوق كل ما عداها ولو كان التأليف المسرحى نفسه .

أما مؤتمر كيمبريدج فكان مناسبة فريدة للالتقاء ببعض كبار الأساتذة والأدباء الانجليز مثل جورج شتاينر ، ودافيد لودج ، وداميان جرانت ، وكريستوفر بيكسبى ، ومارجريت درابل ، وتيرنس هوكس ، وأنتونى ثويت ، وفان ويلدون ، وجاياترى سبيثاك ، وبعض أساتذة اللغة الانجليزية الأجانب (من إيطاليا واليونان وبولندا إلخ) ولكن أهم ملامحه كان تعرفى بأستاذ عراقى فى اللغويات ، وأستاذ سعودي فى الأدب هو الدكتور عزت خطاب ، خريج جامعة القاهرة ، الذى كان ملازمًا لى كظلى ، فقد كنت المتحدث باسم العرب فى المؤتمر ، وقررت إدارة المؤتمر عقد جلسة خاصة قرأت فيها ترجماتى للشعراء العرب من الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه ، وكان الحفل الختامى قد سبقته جلسة حول تقديم شيكسبير باللغات المختلفة ، فقلت ما فتح الله به علىّ ، وقدمت لهم نماذج من إيقاع الشعر العربى ، فكانوا به فرحين. وقد

كتبت أربعة مقالات فى عمود أسبوعيات بالأهرام عن هذا المؤتمر بعد عودتى ، جمعتها فى كتاب صدر عام ١٩٩٢ بعنوان مقالات فى الأدب والحياة ولذلك فلن أفيض فى الحديث عنه .

وصل فى الصيف إلى القاهرة الدكتور فاروق عبد الوهاب صديق الصبا وزميلنا القديم ، واستأجر شقة مفروشة فى شارع أحمد عرابى ، لا تبعد إلا دقائق بالسيارة عن منزلنا فى المهندسين ، وكان قد حصل على مهمة علمية من جامعة شيكاغو لجمع ونشر الأعمال المسرحية الكاملة لميخائيل رومان ، وكان قد أنجز إنجازاً باهراً هو ترجمة الزينى بركات لجمال الفيطنى إلى اللغة الانجليزية ، وبدأنا نتزاور ونكثر من الخروج إلى المسرح ، وسرعان ما حل الخريف وأطلعت على نشاطنا فى الترجمة ، ولكنه رفض الإطلاع على ترجمة جمال الفيطنى (الزعفرانى) لأنه كان قد ترجمها ولم تنشر بعد ويريد أن يقسم أنه لم يطلع على ترجمتها لها، ودهشت لذلك ، وكنت قد بدأت تشجيع بعض أعضاء هيئة التدريس فى القسم لدينا على المشاركة فى هذا المشروع ، فترجمت الدكتورة ماري تيريز عبد المسيح رواية أخبار من عزية النيسى ليوسف القعيد ، وكتبت لها مقدمة ، وهى الآن أستاذة فى القسم لدينا ، وترجمت الدكتورة هدى عياد (ابنة الدكتور شكرى عياد رحمه الله) رواية حادث النصف متر لصبرى موسى ، كما دعوت المترجمين من خارج قسمنا ، أجانب وعرباً ، إلى المشاركة فى الترجمة ، على الرغم من ضالة المكافأة إذ كنا ولا نزال مقيدين بالقرار الجمهورى الذى أشرت إليه لعام ١٩٧٨ وهو ستة مليمات للكلمة ، وبعد أقصى هو ألف جنيه للكتاب الواحد مهما يبلغ حجمه ، فنشرت ترجمة بعد أن يموت الملك لصالح عبد الصبور التى أبدعتها نهاد زوجتى، وكتب عنها الدكتور فاروق عبد الوهاب مقالاً يمتدحها فيه ويؤكد روعة الترجمة فى الأهرام، كما نشرت ترجمات لبعض المستشرقين مثل ترجمة رواية أيام الإنسان السبعة لعبد الحكيم قاسم التى ترجمها أحد المستشرقين (وهو Joseph Norment Bell) ومسرحية كوبرى الناموس لسعد الدين وهبة التى ترجمتها شارلوت شبراوى الأستاذة بالجامعة الأمريكية (وزوجة الدكتور صبرى شبراوى) وكتبت لها المقدمة بنفسى ، وبدأ الناس يشعرون بأهمية المشروع دون أن يدركوا الصعوبات التى نكادها فى سبيله ، كما أتى لى مجيد طويبا بقصص قصيرة ترجمتها ابنة يوسف جوهر التى تقيم فى أمريكا وعنوانها هوستوك يصل إلى القمر ، وأحسست بجدوى المشروع حين أرسلت الدكتورة نازك الدهراوى (المصرية) الأستاذة بكلية كورنيل فى أمريكا طلباً لإرسال مجموعة من كتب السلسلة لتدريسها فى أمريكا

للأمريكيين ، وكلما أرسلنا إليها مجموعة طلبت المزيد ، وذات مساء دعانا الملحق الثقافى الأمريكى جون شيرمان إلى سهرة فى منزله مع بعض كبار المثقفين الأمريكيين والأجانب الدارسين والمدرسين بالجامعة الأمريكية لمناقشة رواية محمد جلال محاكمة فى منتصف الليل وأثنى الحاضرون على الرواية والترجمة جميعاً ، وكانت زوجته نانسى من أشد المعجبين باللغة الانجليزية (البريطانية) التى تستخدمها نهاد صليحة .

كان تصورنا الأول للمشروع هو ترجمة الأدب العربى 'بعد نجيب محفوظ' أى تقديم الجيل أو الجيلين من الكتاب الذين نشروا إبداعهم فى الربع الأخير من القرن العشرين ، ولكننا قدمنا أيضاً أعمالاً لمحمود تيمور ويوسف إدريس والفريد فرج وغيرهم ممن لمع نجمهم وسطع قبل عام ١٩٧٥ ، أى إننا فتحنا الباب بعد نجاح المشروع استجابة لطلب زبائننا فى الغرب ، وفى العام نفسه ، كانت مجلة المسرح الفصلية قد حققت نجاحاً كبيراً منذ أن عادت للظهور عام ١٩٨٦ ، إذ رحب بها جميع العاملين بالحقل المسرحى ، فكانت وما زالت مجلة المسرح الأولى فى العالم العربى ، فغيرها يظهر ويختفى ، أو هو إصدارات غير دورية ، ولكننا عمقنا من 'التغطية' التحليلية النقدية ووسعنا نطاقها فأصبحت تنشر للعرب من شرق الوطن العربى وغربه ، وكما يقولون فإن النشاط يزيد من النشاط والنوم يزيد من النوم ! ويصدق هذا المثل العامى على أعمالنا فى تلك الفترة ، وكان من المحتوم أن يكون ثم رد فعل ، ولم أدرك مدى رد الفعل المذكور إلا فى يناير ١٩٨٨ .

كنت قد وطلّنت النفس على عدم الرحيل من مصر فى إعاره جديدة بعد أن جاءنى رفض الطلب فى أكتوبر ١٩٨٧ ، وكانت لجنة التعاقد الكويتية قد زارت مصر آنذاك ووافقت على إعاره الدكتورة عفاف المنوفى (رحمها الله) وذلك - وفقاً لما قالت - لأنهم يريدون المتخصص فى اللغة لا فى الأدب ، ومنذ ظهور 'اللغويات' أصبحت الجامعات العربية تطلب المتخصصين فى 'علم اللغة' ، وكان المفترض أن مثل ذلك المتخصص يتخصص فى اللغة الانجليزية ، ولا يدرى الكثيرون أن معظم هؤلاء 'المتخصصين فى اللغة' يكتبون رسائلهم للماجستير والدكتوراه فى اللغة العربية العامية أو اللهجة المحلية للغة العربية ! فالدراسة تتمثل فى تطبيق إحدى النظريات اللغوية مثل بناء الجملة أو استعمال الأفعال وما إلى ذلك على اللغة العربية المحلية لا على اللغة الانجليزية . ولذلك جذور ترجع إلى أوائل الستينيات حينما أنشأ الأمريكيون مدرسة (أى كلية) اللغويات فى تكساس ، وكان القصد منها تعليم اللهجات المحلية فى كل

بلدان العالم للأمريكيين الذين يقومون بمهام خاصة بوزارة الخارجية الأمريكية (أو يعملون بها) أو بوزارة الدفاع أو بالاستخبارات الأمريكية ، وتوطيداً لمكانتها كان الأمريكيون يدعون أبناء البلدان المختلفة من أقصى الأرض إلى أقصاها لتدريس لغاتهم المحلية إلى الأمريكيين في مقابل الحصول على الماجستير أو الدكتوراه إذا توافرت للدارس/ المدرس معرفة لا بأس بها بالانجليزية، وأما الدراسات في اللغة الانجليزية فلا يتولاها إلا أهل الانجليزية وأبنائها بأنفسهم . ولكن الشهادة التي يحصلها عليها الأجنبي كانت تحمل عنوان 'اللغويات' وحسب ، فازدهر السوق وراجت البضاعة !

ولذلك كان الخطاب الذي يتضمن رفض طلبى من الكويت يقول إنهم ليسوا في حاجة إلى 'تخصصى' (وهو الشعر) وإن كنت علمت من الدكتور داود السيد ، مد الله في عمره، فهو شاهد في قيد الحياة، أن مجلس القسم رفض الطلب بناءً على ما قاله شخص يدعى نايف خرما من أن تعيين أستاذ نشيط مثلى لن يأتى بمواقب مستحبة للقسم، ولم يستطع جابر عصفور أن يقنع العميد بخطر ذلك الرأى، وعندما جاء العميد إلى القاهرة غداة الفوز العراقي مع الدكتور عصفور لنشر كتاب فى هيئة الكتاب وأنهت له الإجراءات اللازمة فى دقائق صارحنى بما أكد قول الدكتور داود، وكذلك كان الخطاب الذى أتانى من السعودية يحمل رفض الدكتور عزت خطاب (والقسم) لطلبى - التخصص غير مطلوب! وقد يكونون على حق فى رفض تخصصى فى الشعر، ولكن اللغة الانجليزية لا تقوى بدراسة اللهجات العربية المحلية، ولا حياة لها دون إستيعاب النصوص الانجليزية الحية، أدبية كانت أم غير أدبية!

ولم أحاول بعد ذلك أن أترك مصر ، بل زدت من إخلاصى فى العمل وإقتناء نفسى فيه ، وما زلت أذكر تعليقاً كتبه ضياء الدين بيبرس فى مجلة الكواكب عام ١٩٨٥ تعليقاً على ترجمة روميو وجوليت بعنوان 'الاستمرار أهم من العبقرية' يقول فيه إنه أجدى لنا أن نواصل السعى برغم العقبات من أن نركن إلى عبقرية فردية فنستظل بظلها ونهناً بنعيمها ! 'العمل يا سونيا !' كما يقول فوينتسكى (فانيا) فى ختام مسرحية الخال فانيا لتشيكوف ! لقد مضى عهد الإرتكان إلى الموهبة ، وبدأ عصر الجد والاجتهاد فى عالم أصبح فيه أبرز الأدباء من أعلم العلماء ! وكتبت عن ذلك مقالاً فى أسبوعيات الأهرام رحب به الزملاء والطلاب .

واتصل بى سمير العصفورى ذات يوم وقال لى إنه يقترح أن يتولى مسرحيتى مخرج جدير هو كمال الدين حسين ، وهو طبيب أسنان درس فى معاهد الأكاديمية (وحصل أخيراً على الدكتوراه) . وتحضرنى هنا فكاهة : قال المريض وهو على مائدة التخدير للجراح "دى

أول عملية بأعمالها يا دكتور !“ فرد الجراح قائلاً ”وأنا كمان !“ ماذا كان عساى أن أقول له ؟
إننا فى مطلع عام ١٩٨٨ وقد يستغرق إعداد المسرحية للعرض شهوياً ، بفضل البيروقراطية
والتعطيل المعهود ، فلا ترى النور إلا فى نهاية الموسم ، والطلاب يستعدون للامتحانات ،
وأنبيوت المصرية مشغولة بالدروس الخصوصية ! وصح ما توقعته من المخرج ومن الإدارة ، إذ
جعل المخرج يقترح أسماء نجوم والإدارة تعترض بسبب قيود الميزانية ، وانتهى الأمر بإسناد
البطولة إلى وجه جديد هى ’لبنى الشيخ‘ ابنة أحد الفنانين ، وأعضاء فرقة الطليعة ، ولم
تفتح الستار عنها إلا فى آخر الموسم فكان الإقبال الجماهيرى شبه معدوم !

وعلى الرغم من الحملة الدعائية فى الصحف والمجلات كانت المقاعد خالية ، ورفض
سمير العصفورى (بصورة غير مباشرة) أن تشارك فيها سهير طه حسين بالفناء ، وأتى لى
بمطربة مغمورة اسمها إجلال ومنحها هو لقب ’المنىلاوى‘ ، وكانت ذات صوت عريض رائع ،
ولكن اسمها لم يكن فى عداد أسماء النجوم ، وكان الأبطال هم عثمان محمد على (والد
سلوى) وأحمد عقل ورشوان سعيد وعادل خلف ولبنى الشيخ ، وكان مجدى عبد الرزاق هو
الملحن الذى وضع الألحان وأتى بفرقة من الموسيقيين لا يزيد عددها عن ثلاثة ، ومعهم مغن
كان ماهراً فى عزف العود اسمه سامى شريف وكان طالباً منتسباً بقسم التاريخ فى كليتنا !
وتضافرت نهاية الموسم ودخول شهر رمضان على إقصاء المتفرجين تماماً على المسرح ، بل إن
المسارح كلها أغلقت أبوابها ، وأذكر ليلة من تلك الليالى وقفت فيها على باب المسرح الذى
غمره الظلام والصمت ، (على عكس أيام المجاذيب حيث غمر محمود الألفى باب المسرح
بالضياء وأدار شريطاً موسيقياً صاخباً) وجعلت أتأمل الناس وهى تتجمع فى محطة الأتوبيس
فى ميدان الخازندار ، والحشود وهى تتجمع حول باعة الملابس الشعبية والمشروبات المثلجة
وحمص الشام ، وجعلت أتساءل تساؤلاً ما يزال يلح على ذهنى حتى الآن : ما الذى يأتى
بالناس إلى المسرح ؟

كان من وراء ذلك السؤال سؤال أكبر وأعرض عن طبيعة العلاقة بين الكاتب والجمهور -
ما الذى يربط الكاتب بجمهوره ؟ ما أيسر الإجابة على ذلك إذا كنا نتحدث عن كتابة الرواية
والشعر مثلاً ، وما أعسرهما إذا كنا نتحدث عن المسرح ! قد يكتب الكاتب كتاباً يمس فيه
عصباً عارياً لدى الجمهور فيقبل الناس على شراء الكتاب ، وقد يكتب كتاباً عميقاً أو
متخصصاً فلا يشتريه أحد ، ثم يظل هذا الكتاب مرجعاً معتمداً فى تخصصه بل قد يكتب له
الخلود ! أما فى المسرح فلا بد من الوجود المادى للبشر فى القاعة ، ولا بد من التفاعل المباشر

بين الممثلين وبين المتفرجين ، وذلك ما كان كمال يس يعنيه بمبارته الشهيرة إن المخرج الناجح لابد أن تكون "يده فى الصالة" أى إن عليه أن يحسب حساباً لكل إنسان وأن يوجه كل شيء إلى البشر الذين يشاهدون النص ، وقد لا يجمع بينهم سوى أنهم بشر ، أى قد تختلف مشاربيهم وأذواقهم وثقافتهم ومستويات تعليمهم بل وأعمارهم ، وهم مع ذلك حشد يبدو واحداً وهو شتى ! قد يتفق الجمهور فى الغاية التى أتى من أجلها إلى المسرح - للتسرية ، أو لمشاهدة نجومه المفضلة ، أو للتفريج عن شحنة غضب من 'الأحوال' ، أو للاستمتاع بالفن الراقى - ولكن هذه الغاية لا تكون أبداً واحدة ، ولابد للمخرج أن يلجأ إلى تقديم شيء عن طريق شيء ، كأن يتوسل فى تقديم الفن الراقى بنجم شباك يجتذب الجمهور أولاً ، وهو ما يقولونه عن "تلبيس طاقية هذا لذاك" ، وقد يتوسل فى سبيل ذلك بفنون التسرية عن موسيقى (جميلة) أو رقصات (مُحكّمة) أو فكاهات (محسوبة) أو مواقف محبوكة تشد المتفرجين شداً ، ولكنه يجب أن يحدد لنفسه أولاً ما يريده والجمهور الذى يتوجه إليه بالعمل .

وهذه من الموضوعات التى ندرسها فى مجال الثقافة الجماهيرية (mass culture) ، لا الهيئة بل العلم وهو من أهم علوم الاتصال (communication sciences) فأسرع وسيلة للتواصل هى الإمساك بالقواسم المشتركة للجمهور ، فالقاسم المشترك الأعظم للجميع هو العلاقة بين الجنسين ، والمواجهة بين الرجل والمرأة تضمن لك أكبر مشاركة ، سواء كانت مواجهة معقدة تتضمن أعماقاً فكرية أو نفسية أو اجتماعية (سترنديج/ تشيكوف/ إبسن) أو مواجهة ساذجة أو فجّة مثلما يحدث فى مسلسلات التلفزيون ، وقد يكون الجنس عنصراً من هذه العناصر سواء كان من المستوى الرفيع أو القفّ ، وتأتى بعد هذا القاسم المشترك الأعظم قواسم مشتركة كثيرة ، منها الفردى ومنها الاجتماعى ، مثل تيمات الضحية البريئة ، أو الشرير الصريح ، أو الحاكم الظالم وما إلى ذلك من تيمات يسهل رصدها فى الأدب العالمى ، ولكن تقديم مسرحية تصور كفاح الفلاحين وانتصارهم عن طريق الخداع والمكر - شعراً - فلا يكاد يتضمن تيمة من هذه التيمات !

والقاعدة فى العرض المسرحى هو التبسيط عن طريق التحليل والتركيب ، فالمتفرج لا يملك الوقت اللازم للفوص فى أعماق فكرة قد تتضمنها رواية ، وعلى المؤلف أن يحلل الفكرة إلى عناصرها ثم يضم بعضها إلى بعض تدريجياً مع "تلبيس طاقية هذا لذاك" ، وكان هذا درساً جديداً لى ، شغلنى فيما شغلنى من أسباب الفشل الجماهيرى للفريان . كانت فى حلقى غصة بعد أن ذهت حلوة النجاح ، وكنت أعجب لكثرة المقالات النقدية التى كتبت عن الفريان

تمتدحها كيف لم تجتذب إليها الجمهور بل ولم تجتذب النقاد ! ومع ذلك فقد وافقت رقابة التليفزيون على النص وتم التصوير وُوعدنا بإذاعتها يومًا ما فى القناة الثانية ! وفى يوم العيد، اضيئت أضواء المسرح ، وحضر جمهور كبير ينشد التسرية ، وجاءت أربع فتيات وكنت واقفًا لدى الشباك أتمنى امتلاء الصالة ، فقطعن التذاكر ، وبعد لحظات عادت إحداهن بالتذاكر إلى الشباك وهى تقول ”لا نريد هذه المسرحية .. سمعنا أنها ‘بالعربى‘ “ ولمحت شابًا خبيثًا يقف عند الشباك ويقول للمقبلين عليه إنها بالفصحى ، فيهرب الناس . واتجهت إليه شبه غاضب ففر مسرعًا وقد أحس بالذنب ! ثم عجبت فى نفسى هل أصبحت اللغة العربية طاردة للجمهور ؟

ولكن فشل الغربان لم يثنى عما اعتزمته من كتابة المسرح الشعرى ، فلقد عدت إلى الفصحى وعادت لى ، وكانت ترجمة تاجر البندقية هى الترجمة التى قالت صفحة الأدب فى الأخبار إنها أفضل ترجمة لعام ١٩٨٨ ، رغم الحملة المنظمة التى أجريت لانتخاب ترجمة سونيتات شيكسبير نثرًا بقلم الشاعر بدر توفيق . ومن ثم شرعت فى كتابة جاسوس فى قصر السلطان .



فى يوم ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، وكان يوم الخميس ، رن جرس التليفون فى نحو الواحدة ظهرًا، وكان المتحدث هو صديقى الروائى البارز مجيد طوبيا الذى قال عبارة واحدة مبروك .. نجيب محفوظ فاز بجائزة نوبل ! وانتهت المكالمة ! ولم أتمالك نفسى من الفرحه ، فاتصلت تليفونيا بمن أعرفهم ، وعندما حل المساء كان الجميع قد سمعوا وفرحوا ! وفى يوم السبت التالى عقدنا اجتماعًا لمجلس قسم اللغة الانجليزية ، واقتרכת نشر كتاب بالانجليزية يتضمن آراء النقاد المصريين فى هذا الكتاب الذى أصبح عالميًا ، واقتרכת الدكتوراة ملك هاشم الاستعانة بما نشر عنه فى المجلات والكتب المصرية ، وكان لديها عدد خاص من مجلة الهلال يدور حول نجيب محفوظ ، كما كانت هناك دراسات بأقلام بعض زملائنا فى القسم مثل رسالة الدكتوراه التى كتبتها الدكتوراة نيفين غراب عن المؤثرات الأجنبية فى أدبه ، وبدأنا

العمل على الفور ، فَوُزِّعَتِ المقالات على المتطوعين للعمل ، وعَرَضْتُ الفكرة على سمير سرحان فوافق على نشر الكتاب واقتراح عنواناً له هو :

Naguib Mahfouz : Nobel 1988 : Egyptian Perspectives

وأسهمت الدكتورة سلوى كامل الأستاذة بالقسم بمقال عن أسلوب نجيب محفوظ ، ونهاد صليحة بدراسة عن مسرحياته القصيرة ، وملك هاشم بمقال نقدي ، وكانت هذه هي الدراسات التي كتبت خصيصاً للكتاب ، أما الباقي فكان يتكون من ترجمات لمقالات ودراسات توليت مراجعتها بنفسى ، ومراجعة تجاربها الطباعية ، وصدر الكتاب مع تصدير بقلم سمير سرحان وببليوغرافيا كاملة عن كل ما ترجم من نجيب محفوظ أو كتب عنه بالانجليزية أعدها الدكتور ماهر شفيق فريد إعداداً علمياً فذاً ، فى يناير ١٩٨٩ ، فكان إنجازاً غير مسبوق ، وأصابته الدهشة زوار معرض القاهرة الدولى من ثراء المادة ، والمستوى اللغوى الرفيع الذى كتبت به ، والسرعة التى صدر بها الكتاب .

كان فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل نقطة تحول فى مسيرة الأدب العربى ، وقررنا تنويع الأنواع الأدبية المنشورة فى السلسلة ، فنشرنا قصصاً قصيرة لمحمود السعدنى مع مقدمة كتبتها بنفسى (وقد أعاد طباعتها كما هى فى لندن بعد ذلك) وعلمت أن إحدى تلميذاتى السابقات فى دبلوم الترجمة ترجمت يوميات صائم لأحمد بهجت وهى نيرمين عبد الفتاح حسن (أخت الصحفية مها عبد الفتاح بدار أخبار اليوم ، وأخت نيرفانا عبد الفتاح المترجمة الفورية وزوجة عمر صبرى المترجم الضليع الذى سبق أن أشرت إليه) فسميت إليها فى منزلها وحصلت على النسخة وراجعتها على الأصل وكتبت لها مقدمة بنفسى ونشرتها ، كما قررت العودة إلى ترجمة الشعر فترجمت مختارات من ديوان فاروق شوشة بعنوان لغة من دم العاشقين وكتبت لها مقدمة ، وشرعت ملك هاشم فى ترجمة رواية يوم قتل الزعيم لنجيب محفوظ ، وترجمت الدكتورة أنجيل بطرس سمعان مسرحيتين قصيرتين لنهاد جاد بعنوان محطة الأتوبيس وعديلة ، وأقبل دارسو الأدب المقارن على السلسلة يدرسونها فى إطار دراساتهم الانجليزية ، وازدادت طلبات شراء السلسلة من الجامعات والمعاهد فى الخارج ، وقد أنساني ذلك تماماً مأساة الغريان !

ولكن الحزن كان يخيم - إلى حد ما - على حياة دائرتنا الضيقة بسبب اكتشاف إصابة نهاد جاد - زوجة سمير سرحان - بالمرض اللعين ، وكنا نتابع جهوده الجبارة فى توفير العلاج لها ، فى مصر وفى الخارج ، وإن كان الأطباء البريطانيون لا يخفون عنه أن الأمل ضعيف ،

ولكنه كان يكافح بكل ما أوتى من قوة لقهر ذلك الشيطان اللعين ، الذى انتصر آخر الأمر ، فترك فى حياتنا هوة تفرغها حتى اليوم .

وقررنا فى قسم اللغة الانجليزية أن نعقد مؤتمراً دولياً عن الأدب المقارن مرة كل عامين وكان الموضوع الذى اخترناه لمؤتمر ١٩٨٩ هو صورة مصر فى الأدب الحديث ، عالمياً وعربياً ، واجتهد الجميع فى الدرس والبحث ، وجاءتنا دراسات من إنجلترا وأمريكا ، وشغلت الدكتورة هدى جندى بالإعداد للمؤتمر ، وكنت أعمل بالتعاون الوثيق معها ، فكان كلانا فى الخمسين ويعمل بروح الشباب الأول ! وعندما سافرتُ للترجمة فى قبرص ، اصطحبت معى مسودات جاسوس فى قصر السلطان وعلى امتداد المؤتمر الذى استمر أسبوعين كتبت معظم المشاهد الرئيسية شعراً ، وكان معى من المترجمين الدكتور عبد الفتاح عوض ، رئيس قسم اللغة الاسبانية حالياً ، وكان يقرأ ما أكتب أولاً بأول ويناقشنى فيه ، وما إن عدت إلى مصر حتى كانت المسرحية قد اكتملت .

كانت المسرحية تقوم على حادثة أوردتها كتب التاريخ عن العلاقات بين التتار الذين كانوا يحتلون فلسطين وأحد السلاطين فى مصر ، ورأيت تشابهاً مزعجاً بين أحداث الماضى وأحداث الحاضر ، فجمعت كل ما استطعت من المادة التاريخية المناسبة ، وأعددت حبكة يقبلها الجمهور ، وكنت أكتب لا وفقاً لأحداث التاريخ وحدها بل وفقاً لمعناها فى حياتنا الحاضرة ، فالتتار لا يؤمنون إلا بالقوة والبطش ، وكان المماليك حكاماً عسكريين لا يقلون عنهم عسفاً وبطشاً ، يعيشون حياة عسكرية منعزلة عن الشعب المصرى تماماً ، ولكنى وجدت فى كتب التاريخ حادثة تجسس طريفة استندت إليها فى إعداد توليفة مسرحية أجمع فيها بين تراث العصور الوسطى وبين ما يجرى فى القرن العشرين ، فكتبت المشاهد الرئيسية وتركت الروابط والنقلات لوقت لاحق .

وعندما عدت إلى مصر تفرغت تماماً لوضع المسرحية فى صورتها النهائية ، وما إن حل عام ١٩٩٠ ، حتى كانت المسرحية شبه جاهزة . وبدأت أفكر فى تقديمها على المسرح ، وكنت أنتوى اتخاذ تلك الخطوة بكل ما تتطلبه من جهد ، حين اتصل بى سناء شافع المخرج وطلب منى ترجمة يوليوس قيصر ، لشيكسبير ! وكان متحمساً لإخراجها إلى درجة تحديد موعد نهائى لتسلم النص منى ، وكان يلاحقنى تليفونياً ويجعل الممثلين الذين وعدهم بالعمل فيها يستهضون همى ، فتركت الجاسوس وتوفرت على نص شيكسبير فأنتهيت منه قبل بداية العام الدراسى ونسخته على الآلة الكاتبة وتركته له فى المعهد ! وبعد أحد عشر عاماً كان

النص لا يزال فى درج مكتبه ، ولا يزال سناء يقسم إنه سوف يقدمه على المسرح ! (وقد قدمت صورة مختصرة من الترجمة فى مسرح الطليعة بعد ذلك بنحو تسع سنوات من إخراج الفنان محمد جابر) .

وكان مما تعلمته فى الكتابة وفى الترجمة وجود اللغة الجديدة التى أسميتها العربية المعاصرة الموحدة ، وكانت كتاباتى فى أسبوعيات الأهرام منذ ١٩٨٦ وحتى ١٩٩٠ تدريباً كافياً على مخاطبة الجمهور بلغة مبسطة ، وحفزنى نجاح روميو وجوليت فنياً على إعادة النظر فى ترجمتها القديمة (١٩٦٥) المنشورة ، وفى ترجمة حلم ليلة صيف (١٩٦٤) المنشورة ، وأن أعيد صياغة كل منهما شعراً مبسطاً معاصراً حتى يتاح إخراج أيهما لمن يريد ، وبدأت بالآخيرة فنظمت ما فيها من أغان وأناشيد ، ثم نظمت أجزاء أطول ، وتركت بعض مقاطع الحوار منشورة ، فهى مكتوبة باللغة الانجليزية الدارجة وغير المنظومة ، ونشرت النص فى مجلة المسرح ، فأقبل الفنانون عليه مثلما كانوا قد أقبلوا على الصورة النثرية ، ومن ثم قررت البدء فى ترجمة روميو وجوليت ترجمة جديدة .

واقترح على الدكتور ماهر شفيق فريد أن أنشر ما كتبته وترجمته دون انتظار لتقديمه على المسرح ، فدفعت إلى المطبعة بجاسوس فى قصر السلطان وبحلم ليلة صيف وبيوليوس قيصر فصدرت الواحدة بعد الأخرى ، وقد تضاءل الأمل فى تقديم أيها على المسرح .

وكنت أواصل كتاباتى فى أسبوعيات الأهرام يوم الجمعة ، حتى حل يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، وكان يوم خميس حار ، حين فتحت عيني فى السادسة إلا دقائق وأدرت مؤشر الراديو لأستمع إلى الإذاعة البريطانية ، وكانت الموجة نفسها تذيع بالانجليزية بعض الفترات وبالعربية فترات أخرى ، فسمعت الموسيقى المعتادة فى النشرة العربية ، وقبل أن أتعجب للتغيير سمعت المذيع 'على أسعد' يقول فى عناوين الأخبار "غزت العراق أراضى الكويت" . وهبت فرعاً وركزت كل حواسى فى تفاصيل النبأ العجيب . كنا آنذاك نحضر مؤتمراً من مؤتمرات وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامى بالقاهرة ، فى قاعة المؤتمرات بمدينة نصر ، وبعد أن انتهيت من واجباتى الصباحية خرجت إلى العمل قبل 'الواردية' فقد كانت التفاصيل قليلة ، والفموض يحيط بكل شئ ، وحادثتى نهاد زوجتى من تونس أثناء حضورها مهرجاناً مسرحياً كأنها لتستوثق من تصديق ما لا يصدق ! يا لله ! أوروبا تتحد ، وألمانيا أصبحت دولة واحدة ، والاتحاد السوفيتى فى تصالح مع أمريكا ، والعالم فى 'وفاق' غير مسبوق ، والعرب يقتلون بعضهم بعضاً ! لقد انتهت الحرب العراقية الإيرانية قبل عامين ، وتوفى الخمينى بعد

ذلك بشهور ، وآن للعرب أن ينفقوا أموالهم الطائلة فى تحقيق النهضة - إن لم يكن فى الاستعداد لاسترجاع الحقوق المشروعة للشعب العربى الفلسطينى الذى وهب أرواح أبنائه فى الانتفاضة الباسلة ! والآن تاريخ الجاهلية قد عاد ليكشر عن أنيابه ، ووجدت أن الانفصال عما يجرى حولنا من أحداث مستحيل ، ولكن الصدمة كانت أكبر مما أحتمل ، فتوقفت عن الكتابة فى الأهرام - بل وعن التأليف ، وأفرغت طاقتى فى الترجمة .

وفى خضم الصدمة قابلت آخر من كنت أتوقع أن أراه - 'حسن' المخرج ! لقد ظهر فجأة مثلما اختفى فجأة آخر مرة ، ولم أصدق عينى ، إذ كان واقفاً على باب هيئة الكتاب يقدم العزاء لسمير سرحان فى وفاة زوجته نهاد جاد ، وكان سمير لا يحب العزاء ولا يحب التذكير بالمصائب فتقبل كلامه باقتضاب وأهرع داخلاً إلى الهيئة وتركنى على السلم مع 'حسن' . كان 'حسن' قد عاد من العراق بعد غزو الكويت بأيام معدودة، خشية أن يرتبط اسمه بالعدوان، ودعانى إلى الجلوس على شاطئ النيل فى مقهى الشجرة (الذى كان كازينو الشجرة القديم) فقبلت بل كنت متلهفاً على سماع الأنباء من مصدرها الأساسى ، فاتخذنا أماكننا وانطلق يتحدث عن تفاصيل عمله بالعراق فقال إنهم عرضوا عليه الجنسية العراقية ولكنه رفض، فاستفسرت عن مزايا تلك الجنسية فقال لى إن مزاياها لا تعد ولا تحصى ! ولما قلت له إن المال ليس غاية الحياة قال إن المزايا قد تنتهى بالمال ولكنها لا تبدأ به ، ولم أدرك مرماه فبدأ يلخص المزايا قائلاً إنهم عندما أقنعوا جبرا إبراهيم جبرا بقبول الجنسية العراقية وهو ما ترفض أن نفعله فى مصر مع الفلسطينيين ، كانوا يفتحون له طريق المجد ، إذ أنشأوا له مؤسسة كاملة يعين فيها من يشاء ويفصل من يشاء ، وهى دار المترجم للنشر ، وسمحوا له بإصدار مجلة خاصة يفعل بها ما يشاء ، وأموال العراقيين كثيرة - صدقتى - ولديهم من الإباء العربى الأصيل والشهامة البدوية ما يستعصى على أفهامنا ، فلقد تعودنا فى مصر على التحايل والتلاعب بإزاء الحكم الأجنبى الذى لم نكد نتخلص منه حتى رُزئنا بكوارث وأهوال ! ولله درّ يوسف إدريس الذى أرجع الطابع الراهن للشخصية المصرية إلى 'القهر' الذى جعلنا نتقبل ما لا نرضاه باعتباره قَدَرًا لا فكاك منه ، فسلمنا أمرنا إلى الله ونعينا مصائبنا وضحكنا من كوارثنا فى فنوننا الشعبية ، فاختلفت لدينا الدموع بالضحكات وأصبحنا نتصور أن سنة الحياة ألا يملك الإنسان من أمر نفسه شيئاً ، واعترضت قائلاً إن العصر الحديث قد شهد ثورات شعبية تدل على حيوية وحساسية وتطق برفض الضيم وبالإباء والشمم ، وانظر إلى عرابى زعيم الفلاحين ! وكان ذلك عنوان مسرحية عبد الرحمن الشرقاوى المعروفة فإذا به يضحك ويقول :

”ذلك تزييف للتاريخ من أجل بث الروح الوطنية ، وأما الواقع فهو أن أحمد عرابى كان رجلاً عسكرياً - ألم يكن وزيراً للدفاع ؟ - وكان يطمع فى الحكم ، ولا تقل لى إنه كان يحاول تحرير مصر من الاحتلال فلم يكن الاحتلال قد حدث بل ربما يكون هو السبب فيه ، ولا تقل إنه كان يحاول تخليص مصر من الحكم التركى ، فلم تكن الدولة العثمانية تمثل إلا سلطة الخلافة منذ استقلال مصر وفقاً لمعاهدة لندن فى عهد محمد على عام ١٨٤٠ ، أى إنها كانت تمثل القدر والمكتوب من وجهة نظر دينية ، وأما ما يكتبه الكتاب من أعمال أدبية تمثل البطولات الشعبية فهو أدب خيالى يدخل فى نطاق التصور والتخيل “

واعترضت بشدة على هذا المفهوم الذى رأيتُه خاطئاً ومجحفاً ، وقلت له ما ذكرته بعد ذلك فى مقدمة الغريان عن الثورات الشعبية ، وكررت ما ذكره عبد الرحمن الرافعى وفصل القول فيه محمد رفعت من بعده عن الحركة الوطنية والروح القومية ، ولكنه كان كأنما تتكرر لمصريته ، مما ساءنى وأفزعنى ، فضربت له مثلاً أخيراً من مسرحية الغريان نفسها فصمت لحظة ثم قال : إنها تؤكد ما أقول ، فالفلاحون يتحايلون على الواقع المر من أجل البقاء ، ولكنهم لا يتحدون سلطة الحاكم ، لا بل ولا سلطة الوالى إلا فى حدود ما يهدد بقاءهم ! فقلت له ولكن روح الثورة حية فى نفس كل منهم ، تدفعهم إلى المواجهة والمجادة فأسرع يقول : فيما يمس بقاءهم ! ثم اعتدل فى جلسته وطلب كوباً آخر من الشاى وقال :

”إننا ما زلنا نعيش فى مصر فى ظل العالم الآخر ، ونعلى من فضيلة الصبر حتى يبرر لنا تقاعسنا ! وسوف أضرب لك مثلاً مما يحدث الآن فى الساحة العربية على امتدادها . لقد رحل فى يوم من الأيام - من نحو عشر سنوات - عدد كبير من الفلاحين المصريين قيل إنهم ٥٠٠ أسرة وكانوا فى الواقع آلافاً مؤلفة للعمل فى الحقول العراقية أى بالزراعة التى يهملها العراقيون إهمالاً شبه تام ، ورحلت من بعدهم آلاف أخرى - فماذا حدث لهم ؟ لقد ذابوا فى خضم العاملين الفقراء ، وانقطعت صلتهم أو كادت بالوطن الأصلى ، ولم يعد يحس أحد لهم وجوداً ! صدقتى ! لقد قابلت الكثيرين منهم ممن اقتضت أعمالهم الوجود فى المدن ، سواء منها المدن الريفية أو الحضرية ، ورأيت انغزالهم التام عن مجريات الأمور “

وقلت له إن هؤلاء مغتربون ، مثل المعارين فى بلدان الخليج الأخرى وفى السعودية بصفة خاصة ، وهم ممنوعون بحكم الغربة عن الانشغال بأمور الدولة المضيفة ! فرد بسرعة قائلاً ”ولكن الكثيرين يرجعون إلى مصر وقد رسخ فى نفوسهم مبدأ ’عدم الانشغال‘ الذى تحكى

عنه ، أى إن قوانين الإعارة ومبادئها تصبح عادة تقترب من الطبيعة الثانية ! ولقد تكاثرت أعداد هؤلاء وازدادت ، ولم يعد أحد منهم يتكلم إلا فى المال ، على نحو ما كنت تفعل منذ هنيهة ! أنا لا أقلل من شأن المال أو أستهين به ، ولكن هذا الاهتمام الزائد بتكوين الثروات ، وهو الذى بدأ فى عهد السادات ، ما زال قائماً ، وأدى إلى نشأة مجتمع استهلاكي يستغل الناس فيه بعضهم بعضاً وتطحن فيه الطبقات الفقيرة طحناً !“

وتحولت من الدفاع إلى الهجوم فقلت له أنت إذن توافق على إيجابية صدام حسين ؟ هل توافق على هجوم العرب على العرب بدلاً من إسرائيل ؟ وقال بنبرة خفيفة : إنها مغامرة محسوبة ، فجيشه عاطل منذ عامين (أى منذ توقف الحرب العراقية الإيرانية) وقد فتح له باب العمل وشغله بشيء ! فقلت له أنت إذن تدين العراق مثلما تدين الشعب المصرى ؟ فقال أنا عائد إلى العراق ، سواء نجحت المغامرة أم فشلت ، إذ لم يعد لى مستقبل فى مصر ! هل تتصور أن أقضى بقية عمري أكتب الدراما العائلية للتليفزيون أو أخرجها أو أمثل فيها ؟ إننى أتمتع بموقع فريد لأننى فنان ، ولن أشارك فى الهروب من الواقع أو من التاريخ على نحو ما تفعل فى مسرحياتك ، أو فى تزييف هذا أو ذاك ! ووجدتها فرصة سانحة لذكر مسرحيتى الجديدة جاسوس فى قصر السلطان وطلبت منه أن يقرأها فوافق ولو أنه أردف قائلاً ”قطعاً ستحاول إبراز بطولة زائفة للشعب المصرى !“ فقلت له أن يقرأها أولاً ، ونهضنا خارجين وقد حان أذان العصر ، فوجدتنى أسأله بصورة تلقائية : وهل تترك أسرتك هنا ؟ فرد قائلاً : هذه غيبيات ! وافترقنا .

٦

صدرت ترجمتى ليوليوس قيصر ولمسرحية شيكسبيرية أخرى مزجت الشعر فيها بالنثر هى حلم ليلة صيف بعد الترجمة الشعرية الكاملة لتاجر البندقية فأحسست أننى يجب أن أنتهى من روميو وجوليت بأقصى سرعة ، وكان عملى بالترجمة يتضمن قدرًا من الهروب ، فالتأليف يتضمن الاشتباك مع القضايا الاجتماعية والسياسية ، مهما حاول المؤلف إبعاد نفسه عنها ، وأما الترجمة فتتضمن ابتعادًا ثلاثيًا فى الزمن ، وهو ما تتحدث عنه مدرسة

التاريخية الجديدة ، أى ما تبين مثالبه وضرورة الوعى به ، وأقصد بالابتعاد الثلاثى هو أن المسرحية الشيكسبيرية عادة ما تتناول فترة زمنية سابقة لعصر الشاعر ، فهو يبتعد عن الحاضر فيها بمسافة تتفاوت قصرًا وطولًا من مسرحية إلى مسرحية ، وهذا هو البعد الأول ، وأنا حين أترجمها أقدمها إلى القارئ العربى فى القرن العشرين الذى يدرك أنها تتناول موضوعًا سابقًا للعصر الذى كتبت فيه ، فهو يدرك ابتعاده عن الزمنين - زمن الأحداث وزمن العرض - وهذا هو البعد الثانى ، وأنا أترجمها إلى الفصحى التى لا يتكلمها الناس ، فأقيم مسافة بين الحاضر - حاضر اللغة المحلية - وحاضر الفصحى التى تنتمى إلى زمان سالف ، وهذا هو البعد الثالث . وكنت حاولت مضاهاة عامية شيكسبير بالعامية المصرية فى ترجمة مشهد من حلم ليلة صيف ، وهو مشهد العمال الذين يمثلون أو يحاولون تمثيل مسرحية كلاسيكية ، وترجمت المشهد بالعامية فعلاً ، ففشل فشلاً ذريعاً ! كنت أشعر أن الكلام 'سايط' ، لا طعم له ولا لون ، ولم أكن أدرك سر ذلك إلا عندما قرأت بعض كتب التاريخة الجديدة والمادية الثقافية ، واكتشفت أن تذوق عالم شيكسبير يقتضى هذا 'الإبعاد' الزمنى ، أساساً عن طريق الفصحى !

وبدأ عام ١٩٩١ بداية ملتبة ، ففى صباح يوم الأحد ١٧ يناير صحنونا على أنباء الهجوم الشامل على العراق ، بقيادة الولايات المتحدة ، ومشاركة بعض الدول الغربية والعربية ، فيما عرف باسم حرب الصحراء أو عاصفة الصحراء ، وأطلقنا عليها نحن حرب تحرير الكويت ، وبحثت عن 'حسن' فى كل مكان فلم أجده وخفت أن يكون قد عاد إلى العراق ، وكان أخى الأصغر 'حسن' (عاشت الأسامى !) يعمل قنصلاً عاماً فى سفارة مصر فى بغداد حين وقع الغزو ، وقد عاد أفراد السفارة كلهم ، وأتى لى أخى بمجموعة نادرة من كتب التراث العربى ، أصبحت من عمد مكتبتى إلى جانب ما ورثته عن والدى رحمه الله ، وأذكر أن 'الضرب' بدأ أثناء معرض الكتاب ، وأننى قابلت سامى خشبة ، الناقد والمفكر العظيم ، فى المعرض فى نحو الحادية عشرة من صباح الإثنين فقص على ما تقوله وكالات الأنباء وحيرة الصحف فيما تنشره بسبب كثرتة ! وروى لى سمير سرحان قصة الكاتبة الكويتية (.....) التى تعرضت لحادثة فريدة أثناء الغزو ، أحب أن أوجزها نقلاً عن روايته عنها : قالت له إنها فوجئت صبيحة الغزو فى أغسطس بجندى عراقى يطرق بابها صباحاً ويبيده بندقية (وربما كانت مدفعاً رشاشاً) وكان شاباً يتطلع بشوق إلى ما يبدو أنه قد حرم منه ، فكانت عينه تنتقل

بشراة بين السيارة الأمريكية الفارهة الواقفة خارج المنزل (الفيلا) وبين ابنة الكاتبة التي لم تكن قد تعدت الثامنة عشرة ، وبين قطع الأثاث والطنافس في المنزل ، وأدركت الأم بفطنة المرأة وحس الكاتبة ما يمكن أن تصبو إليه نفس الشاب ، وأصابها الذعر والفرع ، ولكنها تماكنت نفسها واستجمعت شجاعته ورحبت به مؤكدة أننا جميعاً عرب وإخوة ، وتدريباً تمكنت من تهدئته وسألته عما يريد ، ولابد أن مهارتها في الحديث وموهبتها القصصية ساعداها (إلى جانب غريزة الأم التي تدافع عن شرف الأسرة) في إدارة حوار ودود امتص غضب الجندي ، ولاحظت أنه قد انفصل عن فرقته مثل الكثيرين الذين توغلوا في المناطق السكنية ينهبون ما تصل إليه أيديهم ، فقدمت إليه طعاماً وشراباً ، إذ كان الجوع قد هدّه ، وكان يبدو عليه الإرهاق منذ أن دخل الجيش الكويت في الرابعة صباحاً ، وبعد أن شبع قال إنه يريد ابنتها ! وانخلع قلب الأم ، ولكنها قررت في لحظة إلهام أن تلعب دور الأم الحانية فتظاهرت بالتعاطف مع رغبته وأبدت الشفقة عليه وقالت له إن ذلك - وإن كان من حق الغالب - ليس من خُلق العربي ، والقوة ليست السبيل للظفر بقلب المرأة ، وعرضت عليه ببسمات ونبرات حانية إحلال الود محل العنف ، وعندها لن يتعذر عليه نوال مراده ، واقتрحت عليه أن يستولى مبدئياً على السيارة الفخمة ، وأن يعود بها إلى أهله إلى جانب ما يريد من كل ما خف حمله وغلا ثمنه ، وأن يحفظ عنوان المنزل ، ثم يعود للزيارة وقتما يشاء "فتحن أهل وبابنا مفتوح" ، وعندها سوف تقدر له هذا الصنيع ، فينال بالود ما هو أهل لنواله وما هو جدير بالنخوة والشهامة العربية الأصيلة .

لم تكن تتصور أنه سوف يصدق ما تقول ، وربما كان إغراء السيارة وحده هو الذي أقنعه بالعدول عما كان يعتزمه ، وربما لم يكن قد خاض مثل تلك التجربة من قبل ويفتقر إلى الخبرة ، بل ربما كان في قرارة نفسه كريماً وكان 'يجرب حظه' فحسب ، ولكن الذي حدث هو أنه كتب العنوان لديه وأخذ بعض الأشياء (التأهفة في الواقع) ، وانطلق بالسيارة يسابق الريح ! وفي الحال انطلقت الأم مع ابنتها إلى بغداد ، تسابق الريح هي الأخرى في سيارة الأسرة القديمة (اليابانية) وأهرعت إلى القنصلية المصرية حيث أظهرت وثائق شخصية تثبت أنها متزوجة من مصري ، وهناك استخرج لها المسؤول بالقنصلية وثيقة سفر باسم زوجها المصري وزوجته وابنته ، واستطاعت بالوثيقة أن تعبر الحدود إلى الأردن ، ولم تتوقف في الطريق إلا لثماً خزان السيارة بالبنزين حتى دخلت الحدود المصرية !

كان أخطر ما هزّنى آنذاك - وطيلة أيام الغزو العراقي بل وأثناء القصف الجوى الذى استمر ستة أسابيع تقريباً ، والعمليات العسكرية البرية التى لم تستغرق سوى أربعة أيام (مائة ساعة كما يقولون) أن الدماء العربية كانت تسيل أنهاراً ، وأنا كنا نشهد شماتة الغرب فى مذلة الجنود العرب ومهانتهم ، ولم أكن من الذين ينحون باللائمة على هؤلاء الجنود ، فما هم إلا قطع شطرنج فى أيدى قوى أكبر منهم ، سواء أكانت قوى النظم الحاكمة أم قوى عالمية لا نستطيع إدراك كنهها ، وإن كثرت التفسيرات وتعددت التحليلات ، وما هم إلا ضحايا - مثلهم فى ذلك مثل الجندى الذى حاول أن 'يلعب دور' المفتصب ، فانتهى به الأمر إلى أن ظفر بسيارة ربما كانت حلم حياته (وما أتفه من حلم !) وقنع من الحرب بالفنائم ! كنت أبكى انتصار العراق على إيران الذى ضاع وأتى بجيوش المستعمر سافرة إلى المياه العربية ، وتذكرت قول 'حسن' المخرج عن سلبية المصريين ، وقلت فى نفسى ما أصعب أن يواجه الشعب الأعزل حكاماً يملكون ما يسميه 'أنتونى جيدنز' Anthony Giddens بوسائل العنف Means of Violence (الجيش والشرطة) ولو أن أحداث العالم فى أواخر القرن جعلتني أعيد النظر فى هذه النظرية ، وكان أولدوس هكسلى هو أول من وضعها فى بواكير القرن !

ما عسى أن يكتب الكاتب إزاء هذا العالم الذى يتلاعب فيه الكبار بأقدار الصغار ؟ وما عساه أن يكون من شأن مسرحيتى جاسوس فى قصر السلطان فى هذه السماء الملبدة بالغيوم؟ وفوجئنا ذات يوم بتقديم مسرحية ماكبث لشيكسبير على خشبة المسرح القومى ، وكان بعض القائمين بها ممن نزحوا إلى مصر فى أعقاب الغزو ، فالمخرج أحمد عبد الحليم كان قد عاد من الكويت مرغماً ، وفاروق الدمرداش - المخرج والممثل وصديقى القديم - جاء من لندن خصيصاً ، وسرّت فى الوسط الفنى شائعة مفادها أن ماكبث يرمز إلى الرئيس العراقى صدام حسين ، وأن تقديم المسرحية فى تلك الآونة بالذات مقصود ، بل إن بعثة من التلفزيون البريطانى جاءت لتصوير مشاهد منها ، وسألتنا فيمن سألت عن دلالة تقديم هذا العرض ، وتكلم الجميع ، وأذيع البرنامج !

كان الأهرام قد بدأ فى عام ١٩٩٠ فى نشر صحيفة أسبوعية بالانجليزية هى الأهرام ويكلى ودعانا أحد المسؤولين أنا ونهاد والدكتور سعد جمال إلى لقاء فى الهيلتون لمناقشة احتمال المساهمة بمقالات أسبوعية ، وكان معنا تلميذى القديم أشرف كمال الذى يعمل مترجماً فوراً بالأمم المتحدة فى نيويورك ، وتكلم الأستاذ بهجت بديع طويلاً عن فكرة هذه

الصحيفة ، وكيف أنها ستعتمد اعتماداً شبه كامل على الترجمة ، أى ترجمة ما يكتبه كتاب الأهرام إلى الانجليزية ، وانفض الاجتماع ، ووجدت نهاد فى صفحة الثقافة مجالاً لكتابة النقد المسرحى ، لا الترجمة ، وسرعان ما أصبحت الناقدة المسرحية للصحيفة . أما أنا فلم أكن أكتب إلا لمأماً ، وبناءً على ما يطلبه (ناجيل رايان) محرر الصفحات الثقافية ، وكنت أريد أن أنشر ترجمات للشعر العربى ، بناءً على طلب الدكتور مرسى سعد الدين ، ولكن إصراره على نشر النص العربى إلى جانب الانجليزى جعلنى أحجم ، فأنا لا أحب أن تخضع ترجمة الشعر للترجمة الوثائقية ، وإن كان غيرى قد نشر ترجماته ، ولم تلق التجربة نجاحاً فتوقفت .

وكانت سارة ابنتى طالبة فى قسم اللغة الانجليزية لدينا ، ولكنها كانت تعشق الغناء الأوبرالى عشقاً ، فالتحقت بالكونسرفتوار أى معهد الموسيقى والغناء الغربى بأكاديمية الفنون ، وانتهت من المرحلة الأولى (٣ سنوات) وانتقلت إلى المرحلة العالية ، وكانت تتلقى دروساً خاصة فى مادة البيانو على يد فاروق المصرى ، وهو أستاذ فى الأكاديمية وزميلي فى كلية الآداب (قسم اللغة الفرنسية) وكان ذلك هو السبب الذى حدا بى إلى تغيير البيانو القديم الذى كنت اشتريته قبل سنوات عديدة من صلاح رجب ، وشراء بيانو قائم (Upright) من أحد المعارف وهو الفنان عادل حنا ، وأصبح منزلنا يجمع بين العود الذى أعزفه والبيانو الذى تعزفه ابنتى . وعندما سافرت فى الصيف للعمل فى منظمة الأغذية والزراعة (الأمم المتحدة) لحقت بى سارة واصطحبتها لمشاهدة أوبرا إيطالية ذات ليلة مقمرة كانت من أمتع سهرات حياتى .

وجاءنى نبأ محزن وأنا فى إيطاليا وهو وفاة يوسف إدريس فى أغسطس ١٩٩١ ، فكتبت رثاء قصيراً بالانجليزية وأرسلته بالفاكس إلى الأهرام ويكلى بناءً على طلب الانجليزى ناجيل رايان ، وكنت ما أزال أجتر أحزاني لوفاة محمد عبد الوهاب (هى إبريل) وكان ذلك يوازى فقد الشباب أو فقد الأمل ، لأنه كان رمز الجد فى الفن والحياة ، وأنا أومن بكفاحه وجده إيمانى بعبقريته وفنه ، وجاءت صدمة وفاة يوسف إدريس فدارت بى الأرض . وأذكر أننى خرجت ذات يوم من العمل بالمنظمة فى روما وأنا شارد اللب ، وسرت فى الحديقة المقابلة لمبنى المنظمة وأنا أتأمل شمس الأصيل وحر ذلك اليوم الخانق ، وإن كانت قد انكسرت حدته بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة والنصف ، وترددت فى ركوب الترام ، مفضلاً السير إلى الفندق ولم أكد أعبّر الطريق حتى وجدت من ينادى علىّ ، وكان محمود يونس صديقى القديم .

وفرحت بالصحبة ، إذ كان يريد السير هو أيضاً ، فسألنى عن همى فقصصت عليه القصص ، فقال لا تحزن ، فالعالم يتغير رغم أنفك ، وسألنى عن أخبارى فرويت له ما أفعل فى مصر ، وقلت له إننى أتولى الترجمة لبعض الهيئات الدولية مقابل مكافآت مادية مجزية ، وذلك منذ أول ١٩٩٠ و فى ١٩٩١ ، وحتى الآن ، إلى جانب العمل فى المؤتمرات الدولية ، فقال إن ذلك تبديد للجهد ، والأفضل أن أعمل شهرين أو ثلاثاً فى العام فى إحدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة أو فى مقر الأمم المتحدة نفسها فى جنيف حيث يقيم ، وقال إنه يعمل بصفة شبه دائمة فى المنظمة العالمية للأرصاد الجوية ، وإن أجورها مجزية ، ثم قص على طرفاً من حياته العائلية فعرفت أن لديه ابناً يكتب الشعر الموزون المقفى اسمه ياسر ، وأنه مقيم مع أخيه هشام فى الاسكندرية ، وأما حاتم الابن الأصغر فيقيم معهما هو وزوجته زينب فى جنيف ، ثم انطلق يقص على كيف كافح كفاح المستميت حتى يحقق لنفسه ما كان يصبو إليه من الحياة بصفة دائمة فى أوروبا ، وكانت قصصه نماذج رائعة لكفاح المصرى الطموح ، وكثيراً ما كنت أتذكر كلمات المخرج 'حسن' وأتمنى لو كان معنا يسمع ويرى ، وشغلتنى قصصه عن أحزاني حتى وجدت أننا قد طويينا الطريق طياً ووصلنا إلى الفندق . ولكننى كنت أريد أن أسمع المزيد فجلسنا فى مقهى على الرصيف ، وظل يتكلم وأنا أجرع كلماته كأنها الزلال الصافى حتى غربت الشمس ، وهبت نسائم المساء ، فهب واقفاً وقال إن زوجته معه الآن هى وحاتم فى روما وهما ينتظرانه ، وقبل أن ينصرف عرض على أن أعمل معه فى جنيف فأحسست كأن حلما قديماً أوشك أن يتحقق - سويسرا - جنة الله فى أرضه لا ترى هل هى أحلى من زيمبابوى ؟

كنت قد زرت هرارى عاصمة زيمبابوى لأول مرة قبل عامين - فى عام ١٩٨٩ - فى فريق الترجمة التابع لوزارة الخارجية برئاسة السفير عصمت نجيب ، وكانت تجربة لا تنسى . كنت عندما تسلمت تذكرة الطائرة من منى هنداوى سكرتيرة إدارة المؤتمرات بوزارة الخارجية أتصور أن التاريخ المكتوب عليها يشير إلى يوم الجمعة ٢٨ لأنها كانت تقول (أى التذكرة) - إن الموعد هو (28 - 00.30) فتصورت أنه يوم الجمعة ولكن المقصود كان الثانية عشرة والنصف صباحاً أى بعد منتصف ليلة الخميس ٢٧ من الشهر ! ولم أنتبه لذلك إلا صباح الجمعة فانطلقت إلى شركة مصر للطيران ولكن الرحلة التالية كانت يوم الأحد ، وعندما وصلت وجدت أننا فى الجنة ! حديقة غناء شاسعة ، جوها معتدل طول العام ، وكان يرافقنى فى

الرحلة الطويلة زميلي المترجم زين الجعفرى البسطويسى ، وكانت طائفة الجمعة (أو الخميس!) قد فاتته بسبب حادثة سيارة ، وهناك نزلنا فى فندق يسمى بيت الحديقة The Garden House بعد خلاف مع المترجمين الفورين بقيادة محمد عبد العظيم جعلنى أكره الحرفة ومحترفيها ، وكان معنا فى ذلك الفندق صديق من فريق الترجمة التحريرى هو زين سليط (رافقنى بعد ذلك بشهور إلى واشنطن ونيويورك فى مهمة تابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية) وعشنا فى ذلك الفندق أياماً رائعة ولا أذكر أننا ركبنا أى سيارة طيلة الأسابيع الثلاثة ، فالبلد كلها حديقة غناء ، والسير فيها يعدل السير فى بستان ، وأهلها طيبون فقراء ، وما زالت الأقلية البيضاء تتمتع بامتيازاتها دون إعلان عنها ، وكل ما فيها جميل . ولكن الأستاذ أسعد حليم الذى كان يسافر بانتظام إلى جنيف للعمل بالأمم المتحدة كان يقول إن جنيف 'رقم واحد' ! ولذلك كدت أطيّر فرحاً عندما عرض علىّ محمود يونس ذلك العرض .

كان ذهنى مشغولاً آنذاك بالعرض المسرحى الذى كنت كتبتة أنا وسمير سرحان قبل عام تقريباً ، بعنوان رحلة التنوير ، وذلك بتكليف من وزارة الثقافة لإحياء ذكرى أربعة من كبار أعلامنا وهم طه حسين والعقاد والمازنى وعبد الرحمن الرافعى ، وكان التكليف قد صدر متأخراً - فى آخر عام ١٩٨٩ - عام الذكرى المثوية لمولد الأربعة ، وقدم لنا الأستاذ سامح كريمة مجموعة مقالات عنهم باعتبارها 'المادة العلمية' ، وقد استقينا منها بعض المعلومات إلى جانب ما نعرفه عن هؤلاء ، وما استعنت به شخصياً من شعر العقاد والمازنى ، وما كان سمير سرحان قد قرأه عن طه حسين قبل عشر سنوات ، فوضعنا الخطوط الرئيسية للعرض المسرحى ، وكان كل منا يقترح شيئاً فيعترض عليه الآخر ، حتى استقر الأمر على إعداد عرض موسيقى يتناول بعض القضايا الراهنة التى تدل على أهمية تياراتهم الفكرية لأحوالنا المعاصرة ، وظلت مشكلة الربط بين الأربعة الكبار مشكلة تشغلنا فى الشتاء حتى كان صيف ١٩٩٠ ، وتمكن سمير سرحان ، إلى حد ما ، من التغلب على صدمة فقدان زوجته نهاد جاد فى أواخر ١٩٨٩ ، بعد أن هدّأها المرض رحمها الله ، وعانت على مدى عامين مر المعاناة ، وكنا نعانى معها ونكابد العجز عن فعل شيء ، حتى نفذت إرادة الله . أقول عندما جاء صيف ١٩٩٠ كان لدى كل منا مشاهد متفرقة ، لكل منها منطقها الدرامى ، وبكل منها نقاط انطلاق إلى مشاهد أخرى ، وكان لابد من أن نتفرغ نحن الاثنين للعمل ، وألا ننشغل بأى شيء حتى يخرج النص متكاملأ ، لا يركز على أحد الأربعة تركيزاً يُخلُ بالوحدة الفنية للعرض المسرحى ، فاقترحت نهاد زوجتى أن نسافر أنا وسمير إلى الاسكندرية فنتفرغ لذلك العمل أياماً أو

أسابيع ، وفعلاً ، سافرنا إلى منزله فى العجمى ، وجعلنا نعمل طول النهار وشطراً من الليل ، ومناقشاتنا لا تنتهى حتى اكتملت صورة النص وتسلمه حسين جمعة .

وكتب الأغانى شاعر شاب موهوب هو محمد بهجت (ابن الكاتب أحمد بهجت) وبدأت البروفات ، ولكن حسين جمعة - كمهدنا به - لا ينتهى من أى عمل فى موعده ، فاستمرت البروفات حتى وقع الغزو العراقى ، فتوقفت البروفات ، ثم استؤنفت بعد تحرير الكويت ، وتحدد أكتوبر ١٩٩١ موعداً للغرض المسرحى ، ولكن حسين جمعة عاد فأجل الموعد ، ولم تفتح الستار عنه إلا فى نوفمبر ١٩٩١ ، وكتب عنه ألفريد فرج مقالاً رائعاً فى مجلة المصور وكذلك فعل أحمد عبد المعطى حجازى فى الأهرام ، وتدفق الجمهور ، وخصوصاً طلابى السابقين فى الجامعة ، وبعض الفرق الدراسية من كلية الإعلام التى كانت تدرس الدراما الوثائقية ، ولكن سامح كريمة الذى كتب 'المادة العلمية' نشر مقالاً موجزاً فى الأهرام يقول فيه إن كاتب 'المادة العلمية' هو المؤلف الحقيقى ، وإن الذى يتولى تحويلها إلى عرض مسرحى هو 'دراماتورج' أو 'حرفى مسرحى' وحسب ، فرد عليه سمير فى العدد التالى قائلاً إن 'المادة العلمية' لا تصنع نصاً مسرحياً ، فهى معلومات متاحة لمن يطلبها فى الكتب ، والعبرة فى المسرح بالتشكيل الدرامى لتلك المادة .

وكنت عندما عدت إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩١ قد فجعت بنبا وفاة صديقى ، ورفيق أحلام الصبا وأنغامه ، بليغ حمدي ، وهو أخو الدكتور مرسى سعد الدين ، فكتبت عنه مقالاً فى الأهرام ويكلى بعنوان (Major Music, Minor Keys) كما أصدرت مجلة شموع (لوتس عبد الكريم) عدداً خاصاً عنه ، وكتبت فيه مقالاً أو قل دراسة لمنهجه فى التأليف الموسيقى ، وما زلت أشعر أننى مقصر فى حقه ، وأن المجتمع العربى لم يوفه حقه من التكريم . وكانت الصدمات المتوالية كفيلاً بزعزعة كيانى لولا أننى علمت بتعيين كرم مطاوع رئيساً لهيئة المسرح ، ومحمود الحدينى مديراً للمسرح القومى ، فتشجعت وذهبت يوماً (وكان يوم السبت) إلى مكتب كرم ، وقدمت له نسخة من النص المطبوع لجاسوس فى قصر السلطان .

كنا فى أكتوبر ١٩٩١ ، والموسم المسرحى لم يكد يبدأ ، وكنت أعرف عن كرم أنه مغرم بتعديل نص المؤلف أى بطلب تعديلات كثيرة من المؤلف فقلت فى نفسى "هليكن !" لقد صبرنا وسوف نصبر فالمسرح يحتاج لطول الباع ! ولكننى تلقيت اتصالاً تليفونياً فى اليوم التالى من صفوت شعلان مدير مكتب كرم مطاوع يقول لى "موعد البروفة يوم الثلاثاء !" .

لم أصدق أذننى واستفسرت منه - عن أى بروفة يتكلم ؟ وأكد لى أنه يتكلم عن بروفات الجاسوس ! وتساءلت : هكذا ؟ دون تعديلات ؟ ما الذى حدث لكرم ؟ وقلت فى نفسى لقد اقترب موعد تحقيق حلم آخر وهو العرض فى المسرح القومى ، وكان قد سبقنى إليه سمير سرحان وفوزى فهمى وعبد العزيز حمودة ! وذهبت إلى ما يسمى بالبروفة ، وكانت اجتماعاً مع أعضاء الفرقة ، حضره مدير المسرح محمود الحدينى ومعظم الأعضاء ، وذكر الحدينى عرض ميت حلاوة الناجح ، وكيف تجمعنى به الظروف (وقد جمعنا للمرة الثالثة فى عام ٢٠٠٠ عند تقديم الدرويش والغازية بعد أن أصبح رئيساً للهيئة) وقال كرم إنه سوف يلتزم تماماً بلوائح الدولة ، ولن يستعين بنجوم من خارج الفرقة ، فالفرقة هى - أو المفروض أن تكون - أفضل الفرق العاملة ، وبها جميع العناصر إلى آخر ما قال ، وكان كرم مطاوع يتمتع إلى جانب طاقته الفنية النادرة بمزيج من الزهو والثقة والاحترام العميق لفن المسرح ، مما أكسبه هبة لم يسبقه إليها - فى تجربتى الشخصية - سوى يوسف وهبى (وكنت قد حضرت بعض الاجتماعات معه فى لجنة المسرح القديمة بوزارة الثقافة) .

وقام كرم مطاوع بتوزيع الأدوار ، وكان النص قد طبع (أى نسخ على الآلة الكاتبة) فى الهيئة فى غضون الأربع والعشرين ساعة المنصرمة ، وأُرسلت النسخ الثلاث إلى الرقابة ، وكان أحمد الشابورى ، الملحن ، يجلس إلى جوار كرم ، فعرفت أنه سيعهد إليه بوضع الموسيقى وتلحين بعض أجزاء النص الشعرى . واختتم كرم حديثه بأن طلب من الممثلين قراءة النص كله وعدم الاكتفاء بأدوارهم الفردية ، مما أدى إلى تملل واضح حول المنضدة التى جلسنا إليها ، إذ قال أحدهم ”طبيعى طبيعى“ وتذمر الآخر مما اعتبره سوء ظن بالفنانين ، ولكن كرمًا كان يعرف أفضل من غيره أن الممثل لا يعرف إلا دوره ، وهو ينقله فى مفكرة صغيرة وقد يحفظه إذا كان لديه الوقت ، وإن كان الغالبية ممن يشتد الطلب عليهم وتكثر أعمالهم لا يحفظون أدوارهم إلا أثناء التجارب المسرحية ، ويقرأون وهم على المسرح أثناءها من ’النوتة‘ . وقال لى شكرى عبد الوهاب الذى حصل على الماجستير فى فنون الإضاءة المسرحية (وعرفته على مدى ما يقرب من أربعين عامًا منذ مطلع الستينيات) إن أعظم الممثلين هم من يحفظون بسرعة وينسون بسرعة ! وكانت المسلسلات قد ازدهرت فى التلفزيون وأصبح سوقها رائجًا ،

خصوصًا بعد عودة العلاقات الكاملة مع مصر ، رغم مسيرة السلام و'تطبيع' العلاقات مع إسرائيل ، فأصبح وقت الممثل من ذهب ، وكان شكرى عبد الوهاب يضرب المثل بالفنان صلاح السعدنى فى سرعة الحفظ ، إذ تكفيه نظرة واحدة إلى النوتة لاستيعاب كلماته ودخول الاستوديو أو البلاتوه أو خشبة المسرح)

انفض الاجتماع وتحدد يوم الخميس التالى 'لبروفات الترابيزة' ، وكنت أجلس إلى جانب كرم مطاوع ، وممى نسختى الخاصة من النص ، أدون فيها ما يعن له من ملاحظات وكانت فردوس عبد الحميد سعيدة بالدور كل السعادة ، وكنت إذا قابلتها وحدها همست لى بأنها تريد أن تشارك فى الغناء ، وقصت على قصة دراستها الموسيقية فاستبشرت خيرًا ، ولكننى كنت قلقًا من موقف 'جمال الشيخ' الممثل المغمور ، إذ كان يتهامس طول الوقت مع حمزة الشيمى الذى كان من زملاء دراستى الثانوية فى مدرسة الأورمان ، ولم أكن أعرف ما يدبر لى فى الخفاء ، وأما أشد أعضاء الفرقة التزامًا فكان أشرف عبد الغفور ، فلفته العربية رفيعة نقية ، ولا يكاد يخطئ مطلقًا فى النحو ، والقاؤه مؤثر ، فهو يقوم بواجبه فى دراسة ما يؤديه ولا يحتاج إلى الملحن أثناء العرض المسرحى ، لا بل ولا أثناء البروفات . وكان محمد أبو العينين باهرًا فى تقمصه لدور السلطان ، فكان يضيف على الكلمات ظلالاً تجعلها تنطق بمعانٍ تؤكد حركات جسمه ، وكانت مديحة حمدى (التي مثلت أول مسرحية نكتبها أنا وسمير سرحان عام ١٩٦٢) قد نضجت فوصلت القمة .

وعندما بدأت بروفات الحركة كان من الواضح أن طموحات كرم مطاوع لن تتحقق باليسر الذى كان يتوقعه ، فهو يضع منهاجًا مبتكرًا للإخراج يتطلب الدقة فى التزامن (syn-chronization) بين الحركة الجسدية والألفاظ المنطوقة ، وتداخل الألفاظ مع الحركات بحيث تتفاوت معانيها طبقًا للحركة ، ولم يكن الممثلون سعداء بهذا بعدما اعتادوه فى المسلسلات التليفزيونية ، حيث يلقي كل ممثل كلماته 'على بعضها' واقفًا أو جالسًا ، دون أن تتداخل الحركة الجسدية المسرحية مع الإلقاء ، فبدأ كرم يتنازل عن بعض طموحاته ، ولكن دون الإخلال بالتصوّر الأساسى لكل موقف أو كل 'لوحة مسرحية' .

وكان كرم يطلب منى إضافة أغنية هنا ، أو إطالة مشهد هناك ، فكنت آتية بما يطلب فى غضون ٤٨ ساعة ، وكان دائمًا يعتز بهذه القدرة على الإنجاز كما كان يسميها ، وعلى

امتداد نوفمبر بدا أن العرض قد اكتمل ، وخلا المسرح (أى خشبة المسرح) فى آخر نوفمبر لبروفات الحركة ، ومن ثم قال كرم إنه يستطيع أن يعرض فى مطلع العام الجديد .

فى أول ديسمبر ١٩٩١ سافرت مع بعض المترجمين إلى داكار ، عاصمة السنغال ، للعمل فى مؤتمر وزراء الخارجية للدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكان النظام المعمول به أن يأتى الأستاذ أحمد هيكل (ابن محمد حسين هيكل الكاتب) بفريق من المترجمين والمراجعين يضم عددًا من المصريين ، هم غالبية المترجمين ، وكتاب الاختزال والناسخين على الآلة الكاتبة العربية ، وعددًا من غير المصريين هم ناسخو الآلة الكاتبة الانجليزية من الباكستان ، والفرنسية ، من الجزائر ، وبعض المترجمين والمراجعين من تونس والمغرب ، خصوصًا من الفرنسية وإليها ، فكان فريق الترجمة ضخم العدد ، وكانت المملكة العربية السعودية تستضيف المؤتمر إذا لم تعرض إحدى الدول استضافة الدورة ، وكان مقر أمانة المنظمة فى جدة يضم عددًا من الإفريقيين الذين أحسوا أن البلاد العربية تستأثر بالعمل فى تلك المؤتمرات ، وكان الأمين العام للمنظمة آنذاك إفريقيا ، فوجدوا الفرصة سانحة 'للتغيير' ، وقاموا بتدبير ما اعتبر انقلابًا صامتًا تزعمه مترجم سنغالى يدعى 'مالك سى' ، وأقنعوا الأمين العام بتشكيل فريق جديد يضم المزيد من العناصر الإفريقية ، مع الاحتفاظ ببعض الأسماء القديمة ، وكان 'الشرط السرى' والذى لم أعلم به إلا بعد رجوعى هو استبعاد أحمد هيكل من مهمة التنسيق العام لفريق الترجمة !

وعندما ذهبنا أنا وزملائى إلى المطار لم نكن نعزف ما حدث ، وأحسبنا بوجود 'إفريقى' ظاهر (بل مهيمن) فى الأمانة عندما وصلنا ، ولكنى (وأنا أتكلم عن نفسى أساسًا) لم أكن أتصور أن انقلابًا ما قد وقع ، وحررت فى تفسير عدم مشاركة أحمد هيكل ونهى بدوى وعمر صبرى ! وبحثت عن بعض المترجمين الفوريين المصريين فوجدت إخوانًا لنا من بلدان عربية أخرى قد حلّوا محلهم ! كانت الحيرة هى إحساسى الأول ، ولكنها أفضت إلى انغماس فى مسرحيتى الجديدة الدرويش والغازية !

كانت الخطوط الأولى لتلك المسرحية قد وضعت فى روما أثناء مقامى أسبوعًا أو عشرة أيام فى الأكاديمية المصرية ، وكان عملى فى وزارة الثقافة مشرفًا على إدارة النشر بهيئة الكتاب شافعًا لى على النزول ضيفًا هناك ، وكان ذلك قبل عام كامل (قبيل الغزو العراقى للكويت) وكنت مشغولًا آنذاك بتيار السلفية الذى يوشك أن يجرف كل فكر متقدم فى بلادنا ، وكنت مشحونًا بالأفكار التى قرأتها عن رواد التنوير (بعد الانتهاء من رحلة التنوير مع سمير

سرحان) وخصوصاً المشهد الذى كتبته لسهير طه حسين عن تحرير المرأة ، والأغنية التى كتبها لها محمد بهجت ، وكنت بدأت فى روما أقلب فى ذهنى ما ينشده هؤلاء السلفيون ، وأحل ما يسمى 'بالخطاب السلفى' الذى بدأ يفز أجهزته إعلامنا بل وكتاباتنا بصفة عامة ، وأدى بى تحليل ذلك الخطاب (بالمعنى الذى يستخدمه فيه 'فوكوه') إلى أن محور الفكر السلفى ينصب على المرأة ، وهو يستخدم أفاضاً عامة مجردة يمكن تفسيرها وفق هوى المتحدث ، على جاذبيتها وسحرها ، وهو ما أدى إلى ظهور إشكاليات problematics - وهذه تختلف عن المشكلات فى أن المشكلة (problem) شىء يشكل عليك ، أى إنه عقبة تنشأ بسبب الاختلاط أو الالتباس فإذا انتهى الالتباس زالت العقبة وحلت المشكلة ، ولو أنها تستخدم فى حياتنا اليومية بمعنى الصعوبة وحسب ، فتسمع من يقول إن هناك مشكلة مالية بمعنى ضائقة وهكذا ، أما الإشكالية فهى الفكرة أو العبارة التى تبدو مقبولة وهى تتضمن تناقضاً يصعب قبوله ، والخطاب السلفى يستند إلى هذه الإشكاليات ، وسأضرب لها عدة أمثلة ، ولنبدأ بالمقولة الذائعة "الحلال بين والحرام بين" ، إنها عبارة منطقية وتكاد تكون ذات قداسة ، ولكنك إذا حاولت تفسيرها وجدت أن 'الوضوح' المفترض فى الحلال والحرام أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فالإسلام دين خلافى ، فإذا أردت الرجوع إلى الأصول وقلت إن الحلال هو ما أحله الله فى القرآن والحديث مثلاً ، والحرام ما حرمه الله فىهما ، وجدت من المجتهدين من يوسع دائرة هذا أو ذاك أو يضيّقها ، وكلما توغلت فى تحديد ما هو الحلال وما هو الحرام عن طريق القياس ، وهو مبدأ معترف به فى الفقه ، وجدت من تضارب الآراء ما يجعل 'الوضوح' صفة غير محققة ! ولنأخذ مثلاً ثانياً من العبارات التى شاعت فى كلام السلفيين مثل الإسلام هو الحل - إنها عبارة جميلة ، ولا يستطيع أن يعارضها مسلم ! ولكنك إذا أنعمت النظر فيها ظهر أنها إشكالية ، فما المقصود بالحل ؟ هل هو حل من نوع 'حل العقال' ؟ أم هو حل لمشكلاتنا المعاصرة مثل نظم الاستيراد والتصدير وطرائق إصلاح الأراضى واستزراعها ورفع مستوى الصناعة وتحديثها وما إلى ذلك بسبيل ؟ ولنلاحظ أن تعبير 'حل المشكلة' لا يعنى أكثر من التغلب على 'الصعوبات' ، ولكن 'الحل' كلمة قد تعنى السبيل القويم ، أو الأخلاق الفاضلة ، أو الإيمان الذى ينجى من عذاب النار ، وقد تعنى المنهج الذى يتبعه كل مفكر (يطلق على نفسه لقب مفكر إسلامى) فى التصدى لظواهر العصر الحديث التى يكرهها ، وفى خضم ذلك كله تبرز قضية المرأة !

ومما يؤكد هاتين الإشكاليتين إشكالية أخرى هي الرجوع إلى النص ، أو ما يسمى بالنص الصريح ، فالذين ينادون بإرجاع المرأة إلى المنزل أى منعها من العمل خارج المنزل والاختلاط بالرجال (والعياذ بالله !) لديهم نص صريح أو نصوص صريحة ، والذين ينادون بعكس ذلك لديهم أيضاً مثلها ، وقد تكون هذه النصوص مقدسة أى من القرآن والسنة ، وقد تكون من تفسيرات النصوص المقدسة ، فالقرآن حمّال أوجه كما يقول على بن أبى طالب ، والسنة تفسره وتؤكد وتبين الوجه الذى يجب أن يفهم عليه ، والسنة تدعمها الأحاديث ، والأحاديث المروية ليست كلها صحيحة ، ففيها الحسن والضعيف والموضوع ، ولكنها جميعاً مروية ، وهكذا نشأت قضية النص لا كما تعالجها المدرسة النقدية الحديثة ، أو ما يسمى بالنظرية الحديثة ، بل من حيث اعتبار أى كلام نصاً ، ومن ثم النزوع إلى الإطلاق ، أى إضفاء صفة المطلق على كل نص بعد به العهد فاكتسب جلال الزمن وهكذا فُتح باب التراشق بالنصوص ، خصوصاً النصوص الجذابة المقتطعة من نصوص كبرى ، بغض النظر عن مصدرها ، وانتشرت الظاهرة واستفحلت ، فَأَصْبَحَتْ تسمع الصغار ممن لم يتبحروا فى العلم بل ممن لم يكادوا يتخطون أعتاب الاجتهاد وهم يتبارون فى اقتباس النصوص ، والإشارة إلى ما قاله فلان وما قاله علان ، وعلا الضجيج واستعر أواره ، والمرأة - صلب القضية - لا تجد سبيلاً للنجاة سوى أن تخضع للمد الذى ما فتئ يرتفع حتى اجتاحت شواطئنا وغطاها ، وانتهى الأمر بحل وسط يشهد بذكاء المصرى وقدرته على الابتكار ، إذ أصبح الموضوع محصوراً فى ارتداء الطرحة بأشكالها المختلفة من عباءة كاملة إلى توربان (أى عمة بكسر العين) أو برنيطة شرقية لا يلزم أن تغطى الشعر كله ، بل يمكن أن تظهر بعض الخصلات التى تبين "نوع" البضاعة المغطاة للعريس المتوقع ، وبحيث لا تخفى كل شئ بل تصبح كالإطار الذى يبرز جمال الوجه !

ولكن انحصار 'الموضوع' فيما أصبح يسمى 'بالحجاب' (والحجاب لغةً وتاريخاً معناه الاحتجاب أى الاختفاء لا الظهور ومزاحمة الرجال فى كل مكان) لم يكن معناه انحسار الخطاب الدينى ، إذ ظهر 'الدعاة' وتكاثروا ، ونصب أعينهم 'الموضوع' ذاته أى المرأة ، وكان ما 'يدعون' إليه غامضاً فى البداية ، ولكن عدم وجود ضوابط للانضمام إلى صفوفهم جعل الكثيرين ممن ضاقت بهم سبل العيش ينضمون إليهم ، وكان أهم ما لفت نظري فى هذه الموجة الجديدة هو ما أسميته فى أحد مقالاتى فى أسبوعيات الأهرام باليقين ! إن الجميع موقنون بصحة أفكارهم ، على ما تستند إليه من إشكاليات ، وما يعتمدها من نقص فى العلم

وفى الاستدلال المنطقى بل وفى الصياغة نفسها ، وشد انتباهى من بين هؤلاء شاب قرأ (وهذه فضيلة نادرة) بعض أعمال السلف ، فراعته ما كان أسلافه يتمتعون به من نساء ، من باب الزواج الشرعى أو ملك اليمين أو غير ذلك ، فجاءنى (واسمه أسامة) وتحدث عن 'العصر الذهبى' الذى كان للرجل أن يتمتع فيه بكل شئ ، وأمطرنى بنصوص مقدسة وغير مقدسة ، وكان ذلك ردًا على مقال أو حديث أدليت به لمجلة الكواكب وقلت فيه إنى لا أختار بديلاً عن العصر الحديث ! وكان ردى على مقولة 'العصر الذهبى' (وهو لم يحدد أى العصور يقصد تاريخياً) أن سألته إن كان يريد العودة إلى الماضى فقال أنى لى ذلك وأنا حبيس هذا العصر الفاسد فقلت له ما عليك من الفساد فكل عصر يرى أنه فاسد وقديماً قالت المرأة لعمر بن الخطاب "فسد الزمان يا عمر !" ولكن قل لى أى عصر تريد أن تعود إليه ؟ فبدت عليه الحيرة وتطلع إلى النافذة - من غرفة مكتبى المتواضعة فى الجامعة - وقال : عصر الجوارى ! وفرحت بصراحة أسامة ، وكنت أحبه لأنه يقرأ ، وضحكت ثم قلت له مداعباً : والعبيد ؟ فانزعج . وما لبث أن استجمع بعض 'معلوماته' وقال : هؤلاء كانوا من الأسرى ! قلت نعم ، فهل كنت تقبل أن تولد 'فى الرق' أو تؤسر فيكتب عليك أن تكون رقيقاً إذا لم يسرع أحد بافتدائك أو إذا لم يكن لك من يفتديك ؟ فقال أسامة فى ثقة : سيكون لى عبيد ممن يأسرهم الجيش ! ولماذا تفترض يا دكتور عنانى أننى سأكون عبداً ؟ أنا أتصور أنه سيكون لى عبيد والكثير الكثير من الجوارى ! وضعكنا وافترقنا فلم يكن أسامة ساذجاً وكان يعرف جيداً ما أرمى إليه !

كانت مشكلة الرق هى العقبة التى توقف عندها طه حسين فى مناقشته للامبراطورية الرومانية فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر ، كما بيّن بهاء طاهر فى كتاب له لا أذكر عنوانه ، ولكن أصدقائى من الذين ركبوا موجة 'الخطاب السلفى' كانوا لا يرون فيها أى عقبة ، فهم فى أعماقهم يحلمون بالنساء طول الوقت ، وعندما يجتمعون - وقد حضرت أحد اجتماعاتهم ذات ليلة فى رمضان - يتذكرون 'أحكام الجوارى' و'السرارى' وحكم 'أم الولد' وكيف تتحول الخليفة إلى حليمة وحكم الدين فى ذلك ، وكان حديثهم ينضح بما تمجعه النفس من شهوة ومن لهفة على 'الوصال' ، فأدركت أن أحد جوانب سحر الماضى لديهم هو تلك الرغبة المشبوبة ، وقد تكون قائمة عند الشباب على الحرمان ، وأذكر أننى خرجت عن الدور المرسوم لى ذات يوم حين قلت لأحدهم بعد انفضاض ذلك الاجتماع ما قاله العقاد من أن الإسلام دين العتق لا دين الرق ، وأننى أدين نظام الجوارى الذى ساد فى 'العصور السالفة'

لأنه كان مرتبطاً بنظام الرق الذى لا يقبله الإسلام ، فنظر إلى شزراً وحاول الاحتجاج بأحد النصوص ، ولكنى حاربتة بالسلاح نفسه وقلت له إن القرآن يحدد العقبة التى يجب أن يقهرها المؤمن حتى يصدق إيمانه وهى تحرير العبيد قال تعالى ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقة ﴾ صدق الله العظيم .

كنت أشارك دون أدرى فى الخطاب الدينى ، الذى اختلط بالخطاب السلفى بل أصبح رافداً له ، ولكن هذه الذكريات بعثت فى نفسى صورة لشخص من هؤلاء يريد أن يرجع إلى الماضى حتى يمتلك الجوارى ، ولكنه يجد أنه أصبح من الرقيق ! وكتبت ذلك كله ذات ليلة وأنا فى الأكاديمية فى روما ، وأطلعت عليه قريبي السفير محمود شكرى ، الذى كان قنصلاً عاماً لمصر فى إيطاليا ، وحكيته ذات ليلة للدكتورة عزة حسين رزق ، الأستاذة فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة ، فوجدت ترحيباً بوجهة النظر الجديدة ، فحملت أوراقى وعندما خلوت إلى نفسى بعد عام كامل فى دكا ، بدأت أكتب مشاهد الدرويش والغازية ، وكنت أقرأ كل مشهد على بعض زملائي مثل زين سليط وأحمد عبد الجواد فأجد استحساناً فيطمئن قلبى ، وكان منهجى مبتكراً وإن لم يكن جديداً كل الجدة فى المسرح العالمى ألا وهو الانتقال بالحدث من الحاضر إلى الماضى ليس بأسلوب الاسترجاع أو الفلاش باك (flashback) بل بإيجاد أحداث يتخيلها البطل وتحدث فى الماضى بحيث تسير جنباً إلى جنب مع أحداث المسرحية فى الزمن الحاضر ، على ما فى ذلك من صعوبة .

والغريب أننى لم أكن بقادر على كتابة المسرحية الجديدة ، وإن تبلورت صورتها وأحداثها فى ذهنى ، قبل أن أرى مسرحيتى الأخيرة على المسرح ! وأعتقد أن تلك عادة شائعة بين كتاب المسرح ، فالمسرحية لا تصبح 'مسرحية' إلا عندما تتجسد على المسرح فى أشخاص وحركة وأضواء وألوان وموسيقى وجمهور ! وعندما كتبت المشاهد الأولى من الدرويش والغازية كنت أراها على المسرح بعين خيالى وأتصور الأشخاص وهم يتكلمون ويمثلون ويضحكون ويضحكون ، وكذلك تصورت الأغانى التى كتبتها بالفصحى والعامية وهى تُغنى ، وتصورت لها ألحاناً ما زالت ترن أصدائها فى رأسى حتى اليوم !

وعندما انتهى المؤتمر ورجعنا إلى مصر قابلت لأول مرة عقبة لا تزال تواجهنى عند كل وصول حتى اليوم ، وهى احتجاز ضابط الجوازات لى للاشتباه فى أن أكون من المطلوبين (أى المطلوب القبض عليهم !) وعلى مدى السنوات العشر الماضية كنت أنتظر كل مرة أصل فيها

من الخارج حتى ينتهى موظف الكمبيوتر من 'الفحص' أى التأكد من أننى برئ أو غير مطلوب ! وأحياناً ما أتساءل عن سميّ الذى يتسبب فى تعكير صفو لحظة الوصول إلى أرض الوطن ، ترى من يكون وأين يقيم وماذا فعل ؟ وهل ثم تطابق كامل بين اسمى واسمه إلى ذلك الحد ؟ وذكرت قصة ليحيى حقى بعنوان فى المرأة تتناول هذا الموضوع ، وخطر لى أن أتناول تلك الفكرة فى مسرحية مقبلة ، مثل كيلو بودرة التى انتهت من كتابتها ، ولكنى عدلت عن ذلك . وعدت إلى القاهرة لأجد أهوالاً فى الجاسوس !



كنا فى منتصف ديسمبر ١٩٩١ ، وقيل لى إن المخرج يبحث عنى وما انفك يسأل عن موعد عودتى فذهبت إليه يوم الاثنين ١٦ ديسمبر فى المسرح فاستقبلنى ببسمة ساخرة معاتبة قائلاً 'أين كنت ؟' وسألته ما الخبر فلم يجب وقال 'بعدين !' فصعدت إلى غرفة مدير المسرح محمود الحدينى لأسأله فقال إن حمزة الشيمى أرسل خطاب اعتذار عن المشاركة فى مسرحية تعرض المشارك فيها للخطر ، وكان الخطاب فى صورة بزرقة تذكر محمود الحدينى بسوابق ذلك 'المؤلف' الذى يعادى النظام ويعارض التطبيع ! وكان الخطاب ذا لهجة استفزازية أدهشتنى ، فحمزة صديق قديم ، وسألت محموداً عن سر الاعتذار فقال إن جمال الشيخ يشيع بين الممثلين أن التتار هم أو يرمزون لليهود وأن السلطان يرمز للسادات ، وأن الخوف مما لدى التتار من أسلحة يقصد به الخوف من الأسلحة النووية ، وأن نشدان السلطان للسلم يعنى موافقة السادات على السلام والتصالح مع إسرائيل ! وقبل أن أدافع أو أحاول الشرح قال محمود الحدينى "والأدهى من ذلك اعتذار فردوس عبد الحميد عن أداء دور البطولة" وصادت لحظات صمت قطعها هو قائلاً : لقد حدثت مشادة عنيفة بينها وبين كرم مطاوع إذ وقفت أثناء البروفة على المسرح تقول له أفصح عن مراميك يا كرم ! هل تعارض التطبيع ؟ (تقصد تطبيع العلاقات مع إسرائيل) فرد كرم بثبات : إن موقفى من إسرائيل واضح ، وهذه مسرحية تاريخية !

وقال لى الفنان مدحت مرسى إن صافيناز كاظم كتبت مقالاً فى المصور تهاجم فيه كل من يحاول التقليل من شأن الممالك مدافعة عن دورهم التاريخى فى حماية الإسلام من

التتار، قائلة إن الفريبيين مثل اليهودى برنارد لويس ، المؤرخ المشهور ، هم الذين ابتدعوا هذا الهجوم وشجعوه حتى يلقوا بالظلال الكثيفة على العصر المملوكى المجيد ، ويبدو - قال مدحت مرسى - أن بعض أفراد الفرقة قد أبلغوها بما ' يحدث ' فى المسرحية ، فى عصر يتعرض فيه الإسلام لهجمة ضارية ! وقلت لمدحت إننى أصور حالة رجل من عامة الشعب وجد نفسه ، رغم أنفه ، متورطاً فى أحابيل السياسة ومكائد الحرب ، وأحاول إبراز الهوة الشاسعة التى تفصل أبناء الشعب عن الحكام فى ذلك العصر ، وفى كل عصر ، مهما تكن مساحة المشاركة الشعبية التى يسمح بها الحكام ! وأما الحادثة التى تصورها المسرحية فهى ثابتة تاريخياً ، "ولا تنسى يا مدحت أن المالك كانوا حكاماً عسكريين ، وكانوا أيضاً من الأجانب ! " فضحك وقال هذه هى المشكلة !

وذهبت لأستفسر من كرم مطاوع ولكنه كان صموتاً ، ثم خرج عن صمته حين أرسل إلى الأهرام خبراً يعلن فيه اعتذار أحد الممثلين عن المشاركة فى المسرحية ، ولم يلبث بعد فترة أن أرسل خبراً آخر ، وتأجل افتتاح العرض عدة مرات بسبب تغيير الممثلين وتغييبهم عن البروفات، إذ كانوا - جميعاً تقريباً - مشغولين بتصوير مسلسلات رمضان . فاجتمع كرم بهم واختار موعداً يناسب انتهاء الجميع من أعمالهم الخاصة وهو الثانية عشر ليلاً ! وكنت أحضر هذه البروفات الليلية فأجد الإرهاق بادياً على وجوه الجميع ، والنوم ' يداعب جفونهم ' كما يقول أحمد رامى فتوقفت عن حضورها .

وذهبت ذات يوم إلى المسرح إثر مكالمة تليفونية عاجلة من محمود الحدينى يقول فيها إن مديحة حمدي فى حالة هياج بعد أن قدمت اعتذاراً هى الأخرى ، وقابلتُ مایسة زكى سكرتير تحرير مجلة المسرح وصديقة الأسرة ، والتى أعتبرها بمثابة ابنتى ، فاصطحبتها معى إلى غرفة محمود حيث جلست مديحة صامتة متوترة ، ومحمود لا يجد ما يقوله لها ، وسألتها عن سبب غضبها فقالت إنها قبلت ذلك الدور الصغير (دور الأميرة الحاملة) احتراماً لوجود فردوس عبد الحميد وكرم مطاوع ، ولكنها سمعت أن فردوس قد اعتذرت بسبب المسلسل ، وأنها لا بد أن تحل محلها الآن فى الدور الرئيسى فهى نجمة ساطعة وممثلة قديرة ، ولكن ' السيد ' كرم قرر إبدال فردوس بممثلة ناشئة ' تدعى ' سلوى خطاب ! وهذا - قالت مديحة - غير مقبول على الإطلاق !

وأدركت الخطر الذى تتعرض له المسرحية فرجوت من محمود الحدينى أن يطلب الشاى وبدأت أتكلم فشرحت لمديحة دورها ، مؤكداً أنه ليس صغيراً وإن كانت كلماته أقل من كلمات الدور الآخر ، ولما كنت أحفظ معظمه فقد ركزت على مواطن الإبداع فى أدائه وصعوبة أدائه وأنه لن يستطيع أحد أن يؤديه إذا تركته ، فالفتاة خاتون (وهو الدور الذى تقوم به) رمز حافل بالدلالات - ولكنها قاطعتنى ”ولكنه دور صغير“ فوعدها بأن أزيد من عدد الكلمات حتى تتناسب مع أهمية الدور قائلاً إننى بدأت ذلك فعلاً وأخرجت لها من حقيبة يدى بعض الأوراق التى كنت كتبتها ثم ألغيتها أثناء إعداد المسرحية فى صورتها النهائية وقلت لها إن دورك سوف يصبح بهذه الكلمات أطول من الدور الآخر وسوف يكون حقاً دور البطولة !

وكان للشاى الساخن فى يناير مفعول السحر ، فهدأت مديحة ، وكانت مايسة على وشك أن تنفجر ضاحكة حين أشرت إليها بضبط أعصابها ، وفرح محمود الحدينى قائلاً إنه سوف يتفق مع كرم مطاوع على برؤزة دور مديحة حتى يجلس الدور ويطفى على كل ما عداه ، فبدا عليها الرضى وابتسمت أخيراً وعدلت عن الاعتذار ، وخرجنا جميعاً أنا وهى ومايسة ، وتمتمت ونحن خارجين فى ضحكة عصبية. ”إلا سلوى دى ! مين سلوى دى كمان ؟“

ورأيت سلوى خطاب لأول مرة يوم السبت ١٨ يناير ومدحت مرسى يقوم بتحفيظها الدور ، وكان موعد الافتتاح قد تأجل مرتين - الأولى من الخميس ٩ يناير (وكان قد وقع الاختيار عليه من مدة حتى يتفق وعطلة نصف العام) إلى ١٦ ثم إلى ٢٣ ، فلم تكن أمام سلوى إلا أيام معدودة حتى تنتهى من حفظ الكلمات والحركة ، وكان حمزة الشيمى قد عدل عن اعتذاره ، وبدأت البروفات شبه الكاملة بالموسيقى ، وقد فُجعت بالألحان التى وضعها أحمد الشابورى ، حتى إن ابنتى سارة قالت لى ”الحنك أحسن !“ (وكننت قد وضعت بعض الألحان ودونتها بالنوتة للمشهد الافتتاحى) وبدأ حلم الوصول إلى المسرح القومى يقترب يوماً بعد يوم ، وكنت أحاول أن أحشد أكبر عدد من النقاد والأصدقاء لحضور حفل الافتتاح ، حين سمعت من كرم مطاوع أن تسجيلات الموسيقى فاسدة ! ولم أعرف ما يعنى بكلمة ”بايظة“ - وهو اللفظ الذى استخدمه فى الإشارة إلى الشرائط - إلا حين ذهبت إلى عاصم البدوى ، المهندس الذى يتولى إدارة الشرائط فاكتشفت الخلط الذى وقع بين الموسيقى التصويرية المصاحبة لبعض المشاهد وبين موسيقى الأغانى التى تغنى مباشرة أى بأصوات الممثلين على المسرح ، وتأجل الافتتاح من جديد إلى يوم ٣٠ يناير !

كان يوم الافتتاح يوم تحقيق الحلم، وكان العرض باهراً ، وأمطر النقاد عبارات الثناء على المسرحية، وأذكر أنني كنت أسير فى دهاليز مسرح الأزيكية فى الأسبوع الأول فأتأمل الطريق الطويل الذى قطعته منذ احترفت الكتابة مع سمير سرحان عام ١٩٦٢ - ثلاثون عاماً مررت فيها بالمسرح الحديث ومسرح الحكيم ومسرح الطليعة ثم المسرح القومى ! وقلت فى نفسى المسرح حياة كاملة وهو يبتلع الإنسان تماماً بهيمومه ومباهجه ، ولا توجد فى الدنيا لحظة تعدل تقديم النص على المسرح، وسماع كلماتك وهى ترن فى الصالة فيصفق لها الجمهور!

كان التفسير الذى قدمته للفنان مدحت مرسى من بنات أفكار زوجتى نهاد ، إذ كَتَبْتُ تلخيصاً لفكرة المسرحية أَدْرَجْتُه فى النبذة التى طُبِعَتْ فى برنامج العرض المسرحى الذى يسمونه فى مصر 'البامفلت' (بعد تعريب الكلمة وإكسابها النطق المصرى الصميم) كما حرصت على ذكر المصدر التاريخى فى تلك النبذة ، ولكن ذلك لم ينقذنى من تأويلات النقاد، إذ وقفت صافيناز كاظم فى ساحة مسرح الأزيكية بعد العرض تكرر ما قالتها عن هجومى عن المماليك حماة الإسلام وكان كرم مطاوع واقفاً معنا ، فذكرت لها تاريخ الحادثة والمصدر ، فقالت "ولماذا اخترت هذه الحادثة دون غيرها ؟" فرد كرم قائلاً : هذه حرية الكاتب ! فقالت "ولكن للاختيار معنى !" وتوالت بعد ذلك الأقاويل ، وتردد فى الوسط الفنى أن كرم مطاوع مفضوب عليه ، وجاءتنى فيروز إسماعيل تلميذتى السابقة فى معهد الفنون المسرحية وهى مهتاجة وكانت تعمل مساعدة فى الإخراج ، وكان عمرو دواره هو المخرج المساعد لكرم ، وقالت لى : "حيشيلوا كرم !" وقلت لها إن ذلك مستبعد ، وإنه لا يمكن أن يحدث حتى ينتهى العرض على الأقل ! وكان الوسط الفنى يزخر بالقصص عن تصدى كرم مطاوع للفساد، وعن المؤتمرات التى تحاك حوله ، وكان أى إجراء يتخذه للانضباط يفسر بأنه 'خلاف فنى' ، من ذلك أنه غضب حينما قام مدير أحد فرق الهيئة بصرف مكافآت حوافز إضافية لنفسه أثناء وجوده فى إغارة لأحد البلدان العربية الشقيقة ، فالقانون ينص على عدم صرف هذه الحوافز إلا مقابل عمل فعلى ، وأصر كرم على إعادة المبلغ الذى صرف ، فتوسط المدير المذكور لدى سمير سرحان ، وقد شهدت بنفسى أثناء إحدى البروفات 'الليلية' للمسرحية مخاطبة سمير لكرم فى هذا الموضوع وإصرار كرم على موقفه ، وقد لخص لى رشاد عثمان موقف كرم مطاوع قائلاً "إنه لا يجب الحرامية !"

كانت الشكاوى من كرم مطاوع تركز على أسلوبه الشخصى فى التعامل مع الآخرين ، ولا تظمن فيما يفعله، ولكن كثرة الشكاوى وتكدس الشائعات جعلها تبدو حقيقية ، حتى أننى بدأت أعجب من الخلط الدائم فى الوسط الفنى بين الحقيقة والخيال ، فالفنانون يسهرون - بطبيعة عملهم - وفى آخر الليل تولد الشائعة ، ولا تلبث فى الصباح حتى تصبح من 'الحقائق'، وهكذا تردد التلفزيون فى تصوير المسرحية ، ثم تقاعس ، ثم حدد موعداً وأخلفه، وكان أول مارس (الأحد) ، موعد سفرى إلى جنيف لأول مرة ، يقترب حثيثاً ، وكنت أخشى أن يقع ما أخشاه (لكرم مطاوع) فينتهى العرض دون تصوير تليفزيونى ، وحاولت من جانبى أن أتصل بمن أعرفهم ، وذهبت إلى مبنى التلفزيون وقابلت أحد المسئولين فوعدنى خيراً ، وعندما خرجت مستبشرةً قابلنى شخص يطلق لحيته السوداء ويبتسم بسمة عريضة ماداً يده بالسلام فسلمت قبل أن أتبين أنه 'حسن' المخرج !

كنا يوم الاثنين ٢٤ فبراير وكنت فى طريقى إلى هيئة الكتاب للاطمئنان على عدد مارس من مجلة المسرح بعد أن أصبحت شهرية ، فمرضت عليه أن يصاحبنى فقال بل سألحق بك فى سيارتى وفى الهيئة جلست معه نتجاذب أطراف الحديث عن مسرحيتى وعن النقد المنشور عنها فى الصحف ، ومنها مقال كتبه سامح مهران (الدكتور) بعنوان 'مسرحية تريك تراك' فى روز اليوسف ، وسألنى من هو سامح مهران فقلت له مؤلف وناقد ، ثم تطرقنا إلى عمله فقال إنه أنشأ شركة للإنتاج التليفزيونى الإسلامى . ولم أفهم . وقلت له تقصد المسلسلات الإسلامية (التاريخية) أم غيرها فقال أنا أعنى ما أقول : لقد تخصصت فى البرامج الإسلامية ، سواء كانت درامية أم غير درامية ! ودهشت من التحول الذى طرأ على من حصل على الدكتوراه من الاتحاد السوفييتى وكان يتغنى بالاشتراكية ، وأردت أن أعرف المزيد ، وكان 'حسن' كعهدى به صريحاً ، فقال ما سوف أوجزه :

"لقد انهار الاتحاد السوفييتى ، وبدأ تمزق الكتلة الشيوعية فى أوروبا الشرقية ، وقريباً يملك الغرب زمام القوة وينفرد بزعامة العالم ، والغرب يسير فى طريق الحداثة الراض للدين ، ولكنه يشجعنا على التمسك بديننا وفى ذلك صلاح أمرنا واستقرار أوضاعنا وهو ما يخدم مصالحه ! وأنا مسلم ، والحمد لله على نعمة الإسلام ، خصوصاً فى هذا العصر ، ومن ثم قررت أن أستخدم فنون الأداء فى خدمة دين الله . وهناك من يدفعون ، بل ويدفعون كثيراً فى مقابل خدماتى ! ولذلك فأنا أنتج برامج تثقيفية دينية ، بعضها موجه

للكتاب وبعضها موجه للصغار ، بعضها درامى وبعضها حوارى ، ولكنها جميعاً تستخدم الأسلوب غير المباشر - أى تتجنب الوعظ المباشر بل تقدم القيم الإسلامية فى ثوب حركة درامية جذابة ، وهناك برامج فى الطريق عن كبرى الشخصيات الإسلامية وكبرى القبائل العربية وهكذا“ .

وانتهى حسن بأن ألمح إلى إمكان مشاركتى فيما يفعل بالنصوص التى أريدها ، وسألته عن عنوان شركته حتى أستطيع الاتصال به فمال على كأنما يريد أن يهمس بسر ، وتلفت فى الغرفة فلم يجد سوى 'محمد' الذى يعمل فى مجلة الفنون الشعبية وكان مشغولاً بتصحيح إحدى التجارب الطباعية ، فاطمأن قلبه وقال "ليس لى مقر ثابت ، إذ لو فعلت لأهلكتى الضرائب ! ولكننى شركة متجولة ، عنوانها هو البنك الذى يحول عملائى إليه النقود !“ ولما بدا أننى لم أفهم ، اعتدل فى جلسته وقال : "أنا أنتج بالمقاولة ، أى بالقطعة ، وأغير أماكن التصوير باستمرار ، وأستأجر استوديوهات مختلفة فى بلدان عربية مختلفة ، بل وأغير الطاقم الذى يعمل معى من الفنانين طول الوقت ! الحرص واجب يا عنانى يا خويا !“

وبعد أن أدرك أننى لا شك مهتم بهذا العمل المريح ، نهض قائلاً : "خلينا على اتصال ! كلمنى فى البيت - ما بين ثمانية وتسعة صباحاً ! وعلى فكرة“ - وكنا نسير فى اتجاه المطبعة حيث أردت الاطمئنان على العمل فى المجلة - "أنا سوف أنتج برامج بالانجليزية لتليفزيون السعودية - عن الشخصيات العربية البارزة ! بس دى مقابلات وأحاديث ، لكن أنا اقترحت عليهم تقديم برامج كاملة بالانجليزية عن الوطن العربى ، بدءاً بالجزيرة العربية ، لتسويقها فى دول إفريقيا وآسيا الناطقة بالانجليزية .. وما زلت فى انتظار الرد !“ وبعد جولة المطبعة معى خرج واختفى ، ولم أسمع صوته إلا فى العام التالى ، بعد الزلزال الذى هز حياتى هزاً .

وفى أول مارس سافرت إلى جنيف فشاهدت جنة أخرى من جنان الله الوارفة الظلال حولها أهلها إلى ساعة دقيقة مضبوطة دائماً ، يدور فيها كل ترس بحساب لا يخطئ، فى
أعشار الثانية !

تركت مصر ورائى وهبطت بى الطائرة فى مطار جنيف فوجدت محمود يونس مع زوجته وابنه حاتم فى استقبالى ، وكان محمود قد استأجر لى 'استوديو' تملكه سويسرية ظريفة اسمها مدام مرسىيه ، وكانت فى منتصف السبعينيات ومع ذلك فهى فى نشاط مستمر، إذ لديها عقارات وشقق تؤجرها وتشرف بنفسها على نظافتها (باكتراء عاملات نظافة إسبانيات) ولكنها تقيم فى منزل الأسرة فوق الجبل مع والدتها . وبعد أن حططنا الرجال بدأنا إجراءات الاستقرار شهراً كاملاً ، وفى المساء تنزهنا على شاطئ البحيرة وتناولنا الطعام فى مطعم ريفى ، وفى صباح اليوم التالى بدأت العمل .

كم كنت فى حاجة إلى الابتعاد عن مشاكل المسرح ! وحصرت همى فى القراءة فى المساء بعد العمل وفى عطلة نهاية الأسبوع ، وكان العمل يقتضى الإلمام بمصطلحات الفيزياء فانكببت عليها ، وتعلمت كل ما يمكن للطالب المجد أن يتعلمه فى شهر واحد من الدراسة المكثفة ، فالأرصاد الجوية علم جديد ، وكان أول مدير عام للمنظمة (يسمونه الأمين العام) مصرياً ، وهو المرحوم فتحى طه ، وكان أحد تلاميذه النجباء (الأستاذ العاملى) قد تقاعد ولكن الأمين العام الجديد استبقاه للاستفادة بخبرته ، وكان مصرياً أصيلاً ، وقد قابلت أسرته بعد ذلك وبهرت بمدى العلم والجد وحسن الخلق عند الجميع . وسمعت ، وإن لم أكن قد تعرفت بعد ، على السيدة شادية عبد اللطيف وأختها سوسن ، وكانت شادية زوجة طارق شرف المترجم الفورى ، وهو أخو سامى شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر . وتدرجياً بدأت استجلى محاسن سويسرا .

وقبل أن أعود إلى مصر كنت قد وقعت عقدًا بالعمل فى يونيو وبعض أيام يوليو ، وقابلت رفعت لطفى ، رئيس القسم العربى بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة ، ودعانى للعمل لديه فى يناير ١٩٩٣ ، وكان متزوجاً من زميلتى السابقة ، والمترجمة الفورية حالياً ، ماجدة دوس ، وقضيت معه وقتاً ممتعاً ، كما قابلت عز الدين اللواتى ، وهو تونسى يعمل رئيساً للقسم العربى بمنظمة الصحة العالمية ، وكان يعزف العود ويحب الموسيقى حباً جماً ، ولكنه 'تدروش' وأطلق لحيته ، ووعدنى بالعمل معه فى المستقبل .

وعندما عدت إلى مصر كان كرم مطاوع قد فصل من رئاسة الهيئة ، وتوقف عرض المسرحية دون أن تصور تليفزيونيًا ، وبدأت عروض الصيف في القطاع الخاص ، وكنت أشعر أن في أوروبا مهرًا من كل دواعي الهموم من حولي ، وكان عبد العزيز حمودة على وشك العودة إلى مصر من عمله في واشنطن مستشارًا ثقافيًا ، فإذا استقر في مصر تولى رئاسة القسم بعد هدى جندى ، وإذا لم يستقر كنت أنا أقدم المرشحين ، وكنت أخضع لعلاج أسناني آنذاك عند طبيب أسنان قريب من منزلنا ، وأُحسُّ أن ضرسًا ذا سن حاد يجرح لساني ، ولكن الطبيب رفض خلع الضرس . وفي غمرة فرحتي بانفتاح أبواب جنيف ، وتحقيق حلم المسرح القومى لم أول الأمر ما هو جدير به ، فلم استشر طبيبًا آخر ، وعللت ما أشعر به بأنه مرض جسدى ، فأجريت تحليلًا كاملاً للدم أثبت عدم وجود ما يوجب القلق ، وفي منتصف يونيو ذهبت مع أسرتي نهاد وسارة إلى جنيف ، فأنزلتنا مدام مرسية في شقتها الخاصة ، واكتشفت نهاد أن الاسم الأصلي لمضيفتنا هو 'جولييت' فكان ذلك مصدر تندر وتفكه والحق أن جولييت كانت مولعة بمصر ، ولكنها - فيما قالت - لم تكن قد زارتها منذ عام ١٩٢٧ .

وقضينا أسابيع رائعة في جنيف ، تعرفنا فيه على أسرة طارق شرف ، وعرفنا قصة هذا المنفى الأوروبي له ، إذ إنه كان ضابطًا صغيرًا في الجيش (برتبة ملازم) حين تزعم مؤامرة للإطاحة بعبد الناصر ، واكتشف سامى شرف (أخوه) هذه المؤامرة واقترح على عبد الناصر إعدام المتآمرين ، ولكن عبد الناصر أبعدهم عن الجيش وعن مصر ، وكان طارق قارئًا نهمًا عميق الثقافة ، يقرأ باللغتين الانجليزية والفرنسية ، وأهدى نهاد زوجتى كتابًا عنوانه **The True Believer** يضم تحليلًا شائقًا وعميقًا لنفسية الزعيم - أى زعيم - ونفسية أتباع العقيدة - أى عقيدة . وكانت سهرتنا في منزل طارق تتكون من محاورات ثقافية لم أكن أتوقع سماعها أو المشاركة فيها في جنيف ! وقد قابلته للمرة الأخيرة في كافيتيريا الأمم المتحدة في صيف ١٩٩٥ بعد إجراء عملية في القلب ، وقالت لى شادية التى كانت ترافقه ساعتها إن قلبه يعمل بنسبة ١٩ ٪ فقط فدعوت الله له بالشفاء ، وفي العام الماضى أخبرنى أحد الأصدقاء إنه قد توفى .

وفي يوليو ١٩٩٢ وصل من الاسكندرية ياسر يونس ، ابن محمود ، ومعه زوجته ، وكان كلاهما في العشرينيات ، وقدم طلبًا للدراسة في جامعة جنيف للحصول على الدكتوراه من قسم اللغة العربية ، فاستشارنى فأشرت عليه بدراسة تأثير فكر الأفلاطونية الجديدة في

شعر أبى العلاء المعرى ، وأهديته الطبعة التى ورثتها من والدى لرسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، والكتاب المكتوب عن الرسائل والذى كتبه الأستاذ الانجليزى إيان نيتون (الذى أصبح الآن رئيساً لقسم الدراسات العربية فى جامعة إكستر). وقضينا وقتاً طويلاً فى إعداد خطة الرسالة ، وكتبتها أنا بالانجليزية وترجمها الدكتور محمود مراد ، الأستاذ بجامعة جنيف إلى الفرنسية ، وقبلها المشرف ، وبدأ ياسر الدراسة فعلاً ، ولكنه لاحظ تحيزاً ضد الإسلام من جانب المشرف ، ولم يرق له جو العداء للإسلام فتوقف عن الدراسة ، وتوجه إلى العمل بالترجمة فيما بعد ، وقد نشر له ديوانان بالعربية فى مصر ، أحدهما من شعره بعنوان رسالة إلى امرأة والآخر هو ترجمة أزهار الشر لبودليير شعراً .

عندما عدت إلى القاهرة عاودتنى آلام الأسنان ولكن الطبيب لم ير ما يدعو إلى القلق، وكنت فى زيارة للطبيب (الجراح الكبير) الدكتور محمود نجيب، والد سعاد المترجمة، بصحبة صديقى المستشار أحمد السودة، وذكرت له الألم الذى أحسه فى أذنى فقال إنه referred pain أى إنه ألم من موقع آخر ”يسمّع فى الودن“، ونصحنى بالاهتمام بالأسنان لأن السن الحادة sharp tooth يمكن أن تجرح اللسان ”وتسبب أوراماً و...“ وفزعنت عندما سمعت ذلك وعدت لطبيب الأسنان الذى بَرَدَ السنَّ الحادة حتى لا تجرح اللسان، ولكنه كان مجروحاً بالفعل، ولو أن ذلك لم يؤثر على نشاطى، فذهبت إلى جنيف للمرة الثالثة ذلك العام فى سبتمبر، وكان ذلك لفترة قصيرة (مؤتمر قصير) وعندما عدت إلى مصر بدأنا العام الدراسى.

كان الدكتور حمودة قد عاد من أمريكا وتولى رئاسة القسم ، وكانت وفاة الدكتور مجدى وهبة قد تركت فراغاً كبيراً فى الحياة الثقافية والجامعية بعد أن وافق رحمه الله على العودة إلى التدريس ، وبدأنا العام الدراسى وكان العبء الملقى على عاتقى كبيراً ، ولكننى كنت - رغم المرض الذى لم أكن أعلمه ولا أريد أن أعلمه - أمارس حياتى اليومية دون تغيير يذكر ، كل ما هناك هو أنتى أشعر بجفاف شديد فى الحلق ، وبالألم حين أتناول الطعام بسبب جرح اللسان، وابتدأ بعض الطلاب يشكون من أنهم لا يسمعون صوتى ، على ما عُرِفْتُ به من صوت رنان مُدَوٍّ وواضح ، وكنت على وشك العودة إلى طبيب الأسنان حين وقع زلزال القاهرة يوم الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ .

وتوقفنا عن التدريس حتى آخر أكتوبر ، وعندما استؤنفت الدراسة كان الجميع يقولون إننى مريض ! وذهبت إلى الطبيب فأحالنى إلى طبيب أنف وأذن وحنجرة ، وصف لى علاجاً

لم يأت بنتيجة ، وكنت إذ ذاك أشغل نفسي بترجمة روميو وجولييت شعراً ، مما كان ينسينى آلامى ، وصرخت فى وجهى نهاد زوجتى ذات يوم تستحشى على استشارة طبيب آخر ، وعندما زرت الدكتور سامى الصادق فى الروضة قال لى إن هناك deviation مما يرجح وجود شيء خبيث ! كان ذلك يوم الأحد ٢٢ نوفمبر ١٩٩٢ ، وفى يوم الاثنين ذهبت مع الدكتور (الجراح) نبيل شديد صهر أخى مصطفى إلى جراح الأورام الدكتور حسن عبد المجيد ، ولم يتردد فى التشخيص بل قال بلهجة قاطعة ” أنت عندك قرحة خبيثة فى اللسان “ . وأصابنى الدوار وأحسست كالمغشى عليه . وبعد ثوان تمايلت فيها نفسى سألتها ما العمل فقال لابد من جراحة ، وسوف تفقد بعض الأسنان والأضراس والغدد ، ولكن العملية محتومة ، ثم نصحنى بالمعالج فى الخارج إذا كان ذلك ممكناً ، وكتب تشخيصاً بالانجليزية يوصى فيه بالجراحة فى المستشفى الأمريكى الذى تخرج فيه . وفى اليوم التالى ذهبت إليه فى معهد الأورام حيث قابلت زوجته الدكتورة مرهت النجار ، ابنة خالة زوجتى ، وفحصنى الأطباء ، ثم جاء الدكتور حسن واقتطع عينة لتحليلها ، وانصرفت .

أذكر ليلة انصرافى من عيادة الدكتور سامى الصادق ، إذ أوصانى بإجراء ذلك التحليل ، وطلب منى الذهاب إلى عيادة الدكتور نبيل البلقينى ، وتركت سيارتى عند سينما ريثولى وذهبت أبحث عن تليفون ، وكان الجو عاصفاً بارداً ، فسرت والريح تلفح وجهى كأنها بوادى النهاية ، وأنا أقول فى نفسى - الآن ؟ وتذكرت أننى رأيت فيما يرى النائم من نحو شهر رسول الله ﷺ ، وقمت فى حالة من النشوة لا توصف ، وفسرت فى تلك الليلة الباردة تلك الرؤيا بأنها استدعاء إلى العالم الآخر ، واطمأنت نفسى لأن من دعانى هو المصطفى - فما وجه القلق ؟ لقد كان إنذاراً بقرب النهاية وأنا بعد فى الثالثة والخمسين ، ومن ذا الذى يدرى متى يحين الحين ؟

وفى مساء الثلاثاء كَلَمْتُ نهاد زوجتى ابنة خالتها وحاولت التشكيك فى التشخيص ولكن الدكتورة مرهت كانت قاطعة ، وحادثتى سمير سرحان محادثة اجتماعية فقصصت عليه الخبر فلم يصدق ، وبعد دقائق لا أظنها زادت على العشرين وجدته عند باب شقتنا بملايس المنزل ومن فوقها معطف ، وقرأ الخطاب الذى كتبه الدكتور حسن عبد المجيد ، وتناولنا العشاء وانصرف .

وفى صباح الأربعاء ذهبت إلى الجامعة وقابلت الدكتورة عفاف المنوفى التى شفيت من المرض ذاته ، وكان قد ألم بها قبلى بعام واحد ، ولم تصدق ما قلته ، ثم مررت على معهد

الأورام لأستطلع نتيجة التحليل فقبل إنها ستظهر فى الغد ! وعدت إلى المنزل لا أدري ما أفعل ! كان سمير عندما زارنى قد اتصل تليفونيا بالدكتور محمود شريف (الذى كان وزيراً ولكنه متخصص فى هذا المرض وهذه الحالة تحديداً) فقال له عليك بلندن ، واتصل بالدكتورة ليلى موسى (أخت الدكتورة فاطمة) فى الاسكندرية فقالت له إن الحالة (treatable) أى يمكن علاجها ونصحته بفرنسا ، فلها صديق فى معهد جوستاف روسي يدعى الطبيب شاساننى (Chassagne) وقالت مرهت ابنة خالة نهاد إن فرنسا ”أحسن فرصة“ (best chance) .

وفى يوم الأربعاء ٢٥ نوفمبر كنت وحدى فى المنزل حين رن التليفون فى نحو السابعة إلا الربع ، وكان سمير سرحان على الخط وقال لى ”أنا قادم“ . وعندما وصل كان قد استصدر قراراً من رئيس الوزراء بعلاجى فى الخارج على نفقة الدولة ، بناء على القرار الصادر من وزير الثقافة فى الصباح استناداً على تقرير الدكتور حسن ، والقرار يقضى بمصاحبة مرافق، ولكننا لم نكن لنترك سارة وحدها ، فتطوعت أنا بشراء تذكرتها ، وحولت بعض النقود إلى فرنكات فرنسية ، وبدأت الإجراءات يوم الخميس ٢٦ نوفمبر . وكان ظنى هو أننى سوف أعالج بالإشعاع الذرى (كوبالت) فقط ، وهى عملية ابتكرها أستاذ فرنسى وتتضمن غرس سلك معدنى مشع فى المنطقة المصابة حتى تقتل الخلايا السرطانية وما حولها أيضاً ، وهى عملية جراحية سهلة ، ولا يستغرق شفاء المريض إلا أياماً معدودة ، وكان الذى يقوم بالعملية تلميذ الأستاذ الذى ابتكرها ، واسمه المسيو جيربوليه .

لو وصفت مشاعرى لخبرجت عن الحيز المتاح للكتاب ، ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى ما أحسسته من سخرية القدر (irony of fate) التى تمثلت فى إصابتى فى لسانى وهو مصدر رزقى (‘أكل عيشى’) وما عملت طيلة عمرى على ‘تتميته’ ! قالت لى عفاف المنوفى - رحمها الله - إن حالات سرطان اللسان لا تمثل إلا واحداً فى المائة من جميع حالات الإصابة بالسرطان ، ولكنها أصابتنى ! والحق أننى لم أكن خائفاً من الموت ، فلقد درجت منذ الصبا على تقبله فى إطار الإيمان الفطرى ، وأصدق ألوان الإيمان هو الذى ينبع من أعماق النفس، من مناطق يتجاوزها الوعى ولا يتساءل عنها ، سواء شبهناها بأعماق المحيط أم بحلقة الليل الدامس فى مجاهل السماوات ، ثم يبرز فيعم نوره فى الوعى ، ويؤكد للإنسان ما قد يصل إليه الوعى من إدراك لحياته الباطنة ، ولذلك كنت ولا أزال أعتقد أن لون الإيمان البسيط

وهو الإيمان غير المتسائل ، أو ما يسمى فى تراثنا 'بإيمان العوام' ، أصدق من إيمان الفلاسفة الذين يستخدمون شواهد الحواس فيما يسمى بالاستدلال المنطقى وصولاً إلى حقيقة الروح ، فالإيمان غير المتسائل يأتى ببسر لمن درجوا على تدريب أرواحهم على التسليم باللغز الأكبر ، لغز الوجود والروح معاً ، فظفروا بالسكينة ، واطمأنوا إلى المصير ، وتجلّى ذلك كله فى سلوكهم ، وإنك لترى فى سلوك مثل هذا المؤمن قناعة ورضاً ، وابتعاداً عن الأذى ، وابتساماً فى وجه المحن ، وصبراً عليها ومكابدة لها ، فلديه ما يمكن أن أسميه 'بالروح الحية' - وذلك ما كنت أحس بضياعه من مجتمعنا الجديد ، وإن كنت أراه ماثلاً حياً فى بعض من عرفت وأحببت ، ممن يقولون الحمد لله على كل حال ، ويمسكون عن الخوض فى الغيب ، ويخلصون فى العمل ، ويقبلون على مساعدة الغير ، فالروح التى بثها الله فيهم تمتد فيما بثه من روحه فى الآخرين .

وذهبت يوم الخميس ٢٦ نوفمبر إلى حفل زفاف سحر الخطيب ، ابنة ابن خالتي ، مع أميرة وعزة عناني ، ابنتى أختى ، وجلسنا إلى مائدة جمعت بيننا وبين محمد الخطيب ابن خالتي والدكتورة أميرة عجمية ابنة خالتي الأخرى ، ولم يكن أحد يعلم بسر مرضى ، وكانت المفارقة بين حفل الزفاف أو 'الفرح' وبين حزنى الدفين تُشيع فى نفسى تأكيداً لما أسميته التسليم باللغز ، فما أنذا أقف على أعتاب الحياة الأخرى ، ومن حولى توشك حياة جديدة أن تولد ! لم يكن يحزنى غير ترك ابنتى ، فهى فى السنة الرابعة فى كليتنا ، ووجدتني - رغماً عني - أذكر وفاة فهيمة ابنة خالتي قبل أعوام بالمرض نفسه ، ووفاة مجدى وهبة فى العام الماضى بالمرض اللعين ، ثم توقفت وانتابتنى رعشة فانسحبت مع الفتاتين وعدنا إلى منازلنا .

وانتهت إجراءات سفرنا بسرعة ، فاتصلت بالأستاذ أحمد السودة ، صديق عمري ، وطلبت مقابلته بصفة عاجلة ، وقابلته فى مساء السبت ٢٩ نوفمبر ، وقلت له فى السيارة إننى راحل بعد غد ، وقصصت عليه تفاصيل ما فعله سمير من أجلى ، وكان لابد لى أن أفضى بالسر إلى أقرب الناس إلّىّ ، وعدت إلى المنزل - بعد أن ودعت والدتى دون أن أطلعها على الحقيقة .

كان سمير سرحان قد اتصل من مكتبه بالمستشار الطبى (الدكتور مصطفى) فى باريس ، وأرسل إليه تفاصيل الحالة ، كما كلمتُ رفعت لطفى فى الأمم المتحدة واعتذرت له عن المجئ فى يناير إلى جنيف ، وقلت له الحقيقة ، فأجابنى بكلمات كالبلسم الشافى ، وهو من القلائل

الذين يعرفون معنى الإيمان ، وقال إن شاء الله تخرج من باريس إلى جنيف ! وعندما ذهبت
فى صباح الأحد إلى مكتب سمير لآخذ التذاكر وجوازات السفر كانت الدموع فى أعين
الجميع ، ودهشت لهذا الوداع الصامت ، وتجاهلت أحزانهن (فالجميع نسوة وفتيات) وعدت
إلى المنزل ، وفى الصباح أغلقنا الشقة واتجهنا فى سيارة سمير سرحان إلى المطار - وكان
ذلك أول ديسمبر .

وعندما وصلنا كان الدكتور مصطفى عند باب الطائرة .

الفصل الرابع



كنت أزور باريس لأول مرة ، ولكن العواصم الأوروبية تتشابه في الكثير ، فلم أشعر بغربة كبيرة والسيارة تنتهي بنا إلى 'بيت مصر' وهو بيت ضيافة (يتقاضى أسعارًا أقل من أسعار الفنادق) في أطراف باريس ، حططنا فيه الرحال ، وكان موعد مقابلة الطبيب يوم ٢ ديسمبر، وسوف أوجز ما حدث في الأشهر الخمسة التي قضيناها في المستشفى ، فألح إلى أهم أحداثها إلماحا . كان المفترض أن أعالج بالإشعاع فقط ، ولكن الأطباء اكتشفوا أن المرض قد استشرى في اللسان ، ولابد من عملية جراحية لإزالته ، وكان من بينهم طبيب يقول بإمكان الاكتفاء بالإشعاع فتعلقت بأهداب الأمل الذي برز لى ، ولكن مسيو شاسانئ أكد لى ضرورة العملية ، فالمرض لم ينتشر ، والأفضل أن نتخلص من الخلايا الفاسدة . وأذكر أنني كنت أردد له محمومًا لا أريد أن أفقد صوتى ! وكان يؤكد لى أنني سوف أستطيع الكلام ، وإن كنت سوف أجد صعوبة في إخراج بعض الحروف الساكنة (الصامتة) . كانت العملية الأولى استكشافية (يوم ٧) والثانية جراحية (يوم ١٥) وأذكر أنني أفقت آخر النهار لأجد جسمى موصلًا بأنابيب وأسلاك ، وهناك أبخرة تتصاعد في آخر القاعة ، حيث رقد الآخرون، وشاهدت فتاة باهرة الجمال تبتسم كأنها ملاك وسط الأبخرة !

وجاءتنى الفتاة بورقة كتبتها نهاد وسارة قبل انصرافهما ، وفي الصباح وصلتا ، وكانت سارة تعمل 'ترجمانًا' لى مع الفرنسيين ، وكنت مشفقًا من وجودها معى وهى فى اللىسانس ،

ولكنها قالت إنها تستذكر دروسها ، والحمد لله على أن نظام العمل بالفصلين الدراسيين لم يكن قد بدأ تطبيقه ، وفي غداة يوم العملية كانت ممرضتان تتحدثان معاً عن بعض المحاليل والأنابيب ، وشجعتاني على النزول من الفراش والوقوف على قدمي ، وسمعتهما تتحدثان بلغة صورتها عربية ، وربما كان تأثير المخدر لم يزل بعد ، ولكنني أقسم إنني سمعت حواراً بالعامية المصرية ، بل إنني تعجبت من حديث الفرنسيات بلغتنا ، وبعد نحو أسبوع أزالوا إحداهما غرز الجرح من صدرى (إذ كان الجراح - المسيو راجى Ragué) قد اقتطع عضلة من الصدر ووضعها في مكان الأنسجة التي أزالها من اللسان لاستكمالها (reconstruction) ، ثم أزال غرز الجرح من فمي ، وما إن حل الكريسماس حتى أصبحت قادراً على الحركة والسير في دروب المستشفى ، حاملاً معي أنابيب التغذية .

ولن أفيض في النكسات المعتادة ، إذ اكتشف كبير الجراحين وجود خراج في مكان العملية دون أن يكون هناك تلوث ، بل ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة ، فأجرى لي عملية أخرى ، ولكن الله سلم وانقضى عام ١٩٩٢ وأنا بعد في قيد الحياة ، وإن كان التقدم بطيئاً ، فالخراج كان لا يزال قائماً ، والجرح كبير لم يلتئم ، والورم في مكان العملية ضخماً ، وأنا محروم من الكلام لأن آلة الكلام معطلة ! كنت أتفاهم مع الأطباء والممرضات كتابةً ، إذ جئ لي بلوح وطباشير خاص أكتب عليه ما أريد - بالفرنسية طبعاً - فأخطئ ، لأن السماع غير الكتابة ، وكان جهاز التليفزيون في الغرفة لا يذيع شيئاً بغير الفرنسية ! وكان من الطبيعي أن أتأمل معنى الكلام والنطق وصلة ذلك بالفكر ، وسرعان ما شعرت برغبة في الكتابة ، فأتتني نهاد بكراسات وأقلام وعدت إلى الكتابة !

وفي أوائل يناير أزال الجراح جهاز التنفس من القصبة الهوائية وسمح لي بالكلام حتى أدرب لساني بعد التئام الجرح على الحركة وإخراج الأصوات التي أستطيعها ، وكانت أصوات العربية سهلة لأنها في معظمها تقع في النصف الخلفي من الفم ، وأما الفرنسية والانجليزية فكانت تتطلب استخدام مقدم الفم ، وهو ما كان معطلاً إلى حد ما ، ولن أنسى فرحة نهاد حين جاءتني بعد إزالة الجهاز المذكور ، وسألتني عن حالي فقلت لها بالعربية ”الحمد لله !“ كانت تكاد تتواثب فرحاً .. ”أنت بتتكلم ! انت بتتكلم !“ وبعد ثلاثة أيام بدأ علاج تكميلي بالإشعاع لمدة خمسة أسابيع تنتهي في ٢١ فبراير ، وكانت نهاد سوف تسافر إلى أمريكا في

مارس وإبريل فعادت إلى مصر فى فبراير للاستعداد للسفر ، وكان على سارة أن تعود إلى مصر للدراسة فعادت وكانت تقيم مع منى سامى صديقتها ، فأصبحت وحيداً .

وفى عزلتى تلك كتبت ثمانى مسرحيات من فصل واحد ومسرحية طويلة هى السادة الرعاع (وعندما عادت نهاد من أمريكا قراتها معى واقتрحت تعديلات أجريتها) وكنت فى مطلع عام ١٩٩٢ منكباً على الكتابة انكباً نادراً إلى جانب الرد على خطابات الأصدقاء ، وقد اكتشفت فى تلك الأزمة الطاحنة حب الناس ، وهى مزية أثنى من جميع ما يهبه الله لعباده ، إذ زارنى ذات يوم ودون موعد الأستاذ سمير عفيفى ، رئيسى السابق فى منظمة الأغذية والزراعة بروما ، وكان قد سمع بمرضى ، وكثير من المصريين الذين لم أكن أعرفهم ، بعضهم أطباء وبعضهم عاملون فى باريس ، ولم تكن غرفتى تخلو فى الصباح من الزوار ، كما كان الأصدقاء يحادثوننى من مصر بالتليفون كل يوم ، كما كنت أتصل تليفونيا بأصدقائى فى مصر ، وكان من عادتى أنا وسمير وزوجتي أن نזור الدكتور جرجس الرشيدى (أستاذى القديم) وزوجته الدكتورة أنجيل يوم ٧ يناير 'للتعميد' وفق العادة المصرية ، وعندما حل الموعد اتصلت بالدكتورة أنجيل للتعميد ولو تليفونيا ، فذهلت لسماع صوتى بعدما تردد عن مرضى وصاحت "يعنى أزغرت ١٥" وكانت تلك الفرحة تعدل الدنيا وما فيها .

وبعد انتهاء العلاج بالإشعاع كان المفترض أن يلتئم الجرح وأخرج من المستشفى ، ولكن الأطباء اكتشفوا أن سبب التأخر هو موت جزء من عظم الفك نتيجة جرعة الأشعة الزائدة ، وهو ما يسمى (osteonecrosis) فقرروا إجراء عملية أخرى يوم ١٥ مارس لقطع جزء من عظم الفك ، أجراها الجراح نفسه ، وإذ ذاك سمعت نصيحة ابنتى سارة ، وصرت أتناول مقادير ضخمة من فيتامين سى لتحفيز الالتئام ، وما إن حل أول مايو حتى عادت نهاد من أمريكا وبعد عشرة أيام التأم الجرح وسُمح لى بالخروج ، فخرجت يوم ١١ مايو ١٩٩٢ .

وأذكر يوم الخروج بوضوح ودقة ، فقد حزمت حقائبي وأسرعت دون أن يكثر بى أحد وناديت التاكسى الواقف بجوار المستشفى وأسعدنى أن أقفاهم معى بالكلام (لا بالكتابة) وسرعان ما كنت فى بيت المصريين فى شارع جورج بومبيدو ١ وفُوجئت نهاد بخروجى ، وبأننى والحمد لله قادر على الحركة والكلام ، فحجزنا فى طائرة يوم ١٢ ، وقضينا يوم ١٢ كله فى التجوال فى باريس ، فكان من أسعد أيام حياتى ، إذ زرنا المكتبات واشترينا العديد من الكتب،

وسرنا الهوينى فى الشوارع التى كنت أحلم بالسير فيها ، وجلسنا فى مقهى شربنا فيه العصير بعد أن أصبحت قادراً على تناول السوائل ، بل والآيس كريم أيضاً !

ووجدنا الترحيب فى المطار ، وكان الجرح - رغم التئامه - ما زال ينزف ، فاشتريت من الصيدلية بعض الضمادات ، وحادثت الأصدقاء بالتليفون ، وزارنى الكثيرون ، وأحسست كأنما عدت إلى الحياة من جديد ! وعندما قلت لسمير سرحان فى منزلنا - ” ولكن وداعاً للتليفزيون ! “ قال لى ” ولكن مرحباً بالكتابة ! “ وكانت تلك الكلمات هى شعار سنواتى اللاحقة !



لا يحب أحد أن يتكلم أو يسمع عن المرض ، فهو بمثابة تعطيل للحياة ولا يكاد يعتبر جزءاً منها ، ولكن المرض حقيقة تتفاوت حدة تأثيرها من شخص لآخر ، وأما من يزعم أنه فى تمام الصحة والعافية ولا يابه للمرض فهو فى الحقيقة يولى صحته الرعاية الكاملة ، بل أحياناً ما تشغله هذه ’الرعاية‘ عن عمله ! وكان الدرس الذى خرجت به من تجربة المرض والعمليات الجراحية المتوالية هو أننى قد أصبحت فى الرابعة والخمسين ولم أحقق ما أصبو إليه من أحلام ، فشغلت نفسى بالترجمة لكسب المال (الأمم المتحدة مثلاً) أو بالتدريس وإرهاق البدن والعقل فى نشاط لا يريده الطلاب ، فهم ليسوا طلاب علم بل طلاب شهادة ، أو بمشروعات ترجمة مبتسرة (الفردوس المفقود ومسرحيات شكسبير) أو بالترجمة إلى الانجليزية وهى لا تفيد إلا الأجانب - أو بكتابة المسرح دون الوصول إلى مكانة مرموقة فى مناخ يتطلب التفرغ له كل التفرغ ، أو بكتابة مقالات فى الصحف لا يقرؤها إلا أقل القليل ! التشتيت ! هذه هى آفة العمل فى مجالنا ، ومن ثم اتخذت عدة قرارات رسمت لى طريق عمل أوضح فيما بقى لى من عمر.

كنت بعد العودة أطلع أولاً إلى إعلان العودة والشفاء ، وكانت وسيلة ذلك هى الكتابة فى الصحف ، فبدأت أكتب مقالات عن التيارات المعاصرة فى الثقافة الغربية ، فى صفحة الثقافة بالأهرام ، ولم أكد أنشر المقالة الأولى حتى جاءنى طلب من جنييف للمشاركة فى المؤتمر السنوى للمنظمة العالمية للأرصاد الجوية ، وحاولت الاعتذار ولكن ميشيل الحينى ، المشرفة

على قسم الترجمة ، أصرت فى التليفون على حضوري ، وكان ذلك فى يونيو ١٩٩٢ وجرحى ما زال بضماداته ! وتلقانى الزملاء فى جنيف بترحاب شديد ، وكان محمود يونس من وراء استدعائى للعمل ، ورحب بى هو وأسرته ترحيباً شديداً ، وفكرت أن أشكر رفعت لطفى على كلماته اللطيفة فأرسلت إليه ورقة أشكره فيها مع لطفى عبيد زميلنا المترجم ، وإذا به يدخل علينا الغرفة قادماً من مقر منظمة الأمم المتحدة بعد أقل من نصف ساعة ! واصطحبني إلى البوفيه حيث شربنا القهوة وحكى له عن مرضى وشفائى ، فدعانى لمشاهدة عرض موسيقى (وهو من هواة الغناء الأوبرالى ويمارسه فى أوقات الفراغ) وسهرنا أنا وهو وزوجته ماجدة دوس ، زميلتى القديمة ، وتبادلنا أطراف الحديث ، ثم تناولنا العشاء معاً .

وفى الصيف تماثلت للشفاء تماماً فوضعت برنامج العمل الحقيقى وهو ترجمة شيكسبير، فبدأت باستكمال الترجمة الشعرية لروميو وجوليت ، وانتهيت منها فى سبتمبر ، ودفعت بها إلى المطبعة ، ونشرت مسرحياتى القصيرة الثمانية مع المسرحية الطويلة التى كتبتها فى باريس (فى المستشفى) ووضعت لنفسى مهمة تالية وهى استكمال ترجمة الفردوس المفقود ، فالوقت وقت العمل ، ولم أعد قادراً على ضياع المزيد منه ! كانت مقالاتى فى الأهرام (فى صفحة الثقافة) تقول إننى شفيت ، وكان الورم قد خف ، ولكن تجربة مواجهة الموت فى تلك العزلة فى باريس جعلتني عزوفاً عن الحياة الاجتماعية ، فأمسيت أرى فيها ضياعاً وإهداراً مؤسفاً للوقت ، ولم يكن لسانى قد تدرب التدريب الكافى على الكلام ، فوجدتني ميالاً إلى الانفراد بنفسى ، وكان عبد العزيز حمودة يحاول إخراجى من عزلتى ويشجعنى على العودة إلى الحياة، مؤكداً لى أنه ينتوى السفر فى إغارة جديدة ، وأنتى يجب أن أتولى رئاسة القسم ، فهذا من حقى لأننى أقدم الأساتذة إذ لم يعد بالقسم إلا أستاذان عاملان ، وكنت أستمع إليه وأحاول تطويع نفسى لمثل ذلك الاحتمال ، وذات يوم جمعة وقد بدأ العام الدراسى، جاءنى اتصال تليفونى من رفعت لطفى، رئيس القسم العربى بالمقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف، وقال لى إنه يريدنى للعمل لديه ستة أسابيع ، من ١٨ أكتوبر حتى آخر نوفمبر ! كانت مفاجأة مذهلة، فقلت له إننى لابد أن أستاذن العميد ، واتفقنا على أن أرد عليه يوم الاثنين ، وفعلاً كان العميد - زميلى وصديقى العزيز الدكتور حمدى إبراهيم - العلامة النحرير - أكثر من 'متفاهم' فوافق على سفرى وبدأت الإجراءات ، وحمودة غاضب لأنه لا يريد أن يترك القسم لأحد غيرى !

وسافرت إلى جنيف يوم الأحد ١٧ أكتوبر ١٩٩٢ ، وكان محمود يونس قد اتفق مع زميلنا المترجم لطفى عبيد على أن أقيم في شقته أثناء سفره ، وأن أدفع أنا الإيجار وتكاليف التليفون بالطبع ، وهكذا وجدت مكاناً دافئاً في شارع متفرع من شارع 'لوزان' بوسط جنيف يتيح لى حرية الحركة بدلاً من الفنادق ، واصطحبت معى نصّ الفردوس المفقود ، وما إن حططت الرحال وبدأت العمل فى الأمم المتحدة حتى بدأت ترجمة الكتاب السابع من تلك الملحمة نظماً ، بعد أن ذهت حلاوة النظم فى ترجمات شيكسبير السابقة (ولم أكد أترجم 'المدخل' أو الديباجة (بلغة القانون) The preamble حتى اكتشفت أن النظم كان يقتضى من الحرية فى ترتيب الكلمات وتركيب الجمل ما يخرج بى أحياناً عما ارتضىته لنفسى من دقة فى نقل ملتون ، فوضعت الكتاب جانباً ، وربما كان جهد الترجمة المنظومة أكبر مما كنت أتحمل ، فاكتفيت بقراءة الكتب الجديدة التى اشتريتها عن نظرية النقد الحديثة ، واستطعت فى شهر واحد أن أقرأ أكثر من عشرة كتب - كانت تمثل لى جوهر ما قيل فى هذه النظرية .

وكان أهم ما لفت انتباهى فى تيار هذه النظرية هو ما يعتبره الغربيون والشرقيون ، على حد سواء ، تحرراً أو تحريراً للإنسان من 'ثوابت' الماضى ، وعلى رأسها الدين ، وكانت جاذبية ذلك التحرر لا تقاوم أو لا تكاد تقاوم عقلانياً ، فالفيلسوف الفرنسى جاك دريدا ، الجزائرى المولد ، يحاول أن يهدم أسس الفكر الإنسانى كله استناداً إلى أنه قائم على الإحالة إلى 'ثوابت' (وهو يسميها 'مراكز') تتنافى مع المنطق ومعطيات العلم الطبيعى ، مثل ما يقوله عن افتراض وجود 'حقيقة' أو 'إله واحد' أو 'روح' وما إلى ذلك مما بناء الفكر الإنسانى على مر القرون ، وقد جرّته محاولة الهدم (أو التقويض أو التفكيك) إلى رفض جميع المدارس النقدية القائمة باعتبارها تستند ضمناً إلى ما يسميه الإحالة إلى ثوابت خارج 'النص' أو خارج اللغة . ووجدت أن ما يقوله يتناقض مع ما أحسسته وما رأيته بعين البصيرة فى باريس ، وأنا سهران أتأمل المدينة النائمة مع ليل الشتاء الطويل ، وما أدركته عن حقيقة الدين الذى لا يدركه الإنسان إلا بمنطق الروح ، لا بمنطق الحواس ، فلإنسان روح - قد يُطلق عليها 'الوعى' أو 'النفس' بل قد يطلق عليها 'العقل' - على نحو ما يفعل زكى نجيب محمود - ولكنها روح تختلف عن الحياة البيولوجية ، لأنها تتعلق بالطاقة الإبداعية والفردية التى يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوان ، ومهما كانت التسمية التى نطلقها على الروح فنحن

نتعرف عليها بالاستبطان - وهو مذهب كارل جوستاف يونج - أو بمظاهر السلوك ، وهو مذهب جلبرت رايل - أو بحياة الفكر الحافلة ، وهو المذهب الذى نشأ عند ديكارت وتطور عند الكثيرين ممن طوروا نظرية الربط بين الفكر والوجود .

ومصدر الخلط فى مفهوم الدين يرجع ، كما تُبيّن كارين أرمسترونج ، إلى الخلط بين منطق العقل (الذى يعتمد على الحواس) ومنطق الروح الذى يتجاوز الحواس ، وأهم ما يتجلى فيه هذا الخلط هو عدم دقة النظر إلى الشعائر الدينية ، إذ يراها العامة مرادفة للدين ، ولكنها لا تعدو كونها تعبيراً رمزياً عن التسليم بمنطق الروح ، وهو المنطق الذى اهتدى إليه الإنسان بفطرته منذ الأزل ، أى قبل الأديان السماوية التى فصلت القول فيه تفصيلاً ، وهو منطق يحتاج إلى جهد واع لتنميته ، فإذا مارسها الفرد دون نشاط روحي عميق يكون قد أفرغها من معناها ، وآفة مجتمعنا إذن ذات شقين ، الأول هو الخلط بين منطق العقل ومنطق الروح ، بمعنى قياس ما ينتمى إلى أحدهما بمقياس الآخر ، والثانى هو حصر الدين فى الطقوس والشعائر ، دون 'تنشيط' لمنطق الروح فيها .

وانتهيت من دراستى لتلك الفلسفة الحديثة إلى أنها تمثل اتجاهاً بالغ الخطورة ، فالعلم الطبيعى الحديث منذ نشأته فى القرن السابع عشر فى أوروبا ، وبالصورة التى انتهى إليها فى القرن التاسع عشر ، كان يمثل اكتشافاً لمنطق العقل دون أن يلفى أو يبطل أو ينفى منطق الروح ، وأما هؤلاء فيريدون ذلك والاكتفاء بمنطق العقل من الاستقرار والاستدلال والبحث والتجريب الذى لا يتجاوز الحواس ، فكانما بلغ العلم الطبيعى ذروته ولم يعد فيه مجال للتقدم! ولكننا حتى إذا افترضنا الوصول إلى الذروة فلن يكون معناها نقض منطق الروح ، فالإنسان ليس كياناً مادياً يخضع لقوانين منطق العقل القائم على شهادة الحواس فقط ، بل يجمع إلى منطق الشهادة منطق الغيب ، وما أكثر الغيبات فى النفوس والأرواح ، مهما اجتهد علماء النفس فى حل ألفاظها !

كان من أخطاء أصحاب الفكر الفلسفى الحديث (وخصوصاً الفيلسوف البريطانى إير Ayer) النظر إلى الإنسان باعتباره ظاهرة طبيعية ، وإلى تحليل سلوكه وفكره من وجهة نظر الحواس وحدها ، وهم يخطئون بذلك خطأً منطقيًا لا يُقبل حتى من وجهة نظر منطق العقل ، قائلين إنه ما دام الوجود حادثاً فلا بد أن ينتهى إلى فناء ، والعلم الحديث - منذ أينشتاين - ينكر أن الوجود حادث ، بل هو قديم ، حتى إذا اقتصرنا على صورته المادية المدركة ، بل هو

يؤكد أن هذه الصورة شكل من أشكال الطاقة التي لا تفنى ولا تُستحدث ، فإذا تجاوزنا مساواة الإنسان بكيانه المادى ، أى إذا أقررنا بوجود 'نفسى' أو 'روح' أو 'وعى' بل 'ولا وعى' - وهو ما أصبح العلماء على امتداد القرن العشرين يُقرُّون به - فسوف يصعب اعتبار الإنسان ظاهرة مادية ، أى ظاهرة لا تخضع إلا لقوانين الحياة البيولوجية التي تخضع لها سائر الكائنات الحية ، ناهيك بالجماد ! وهذا ما جعل بعض أرباب الفلسفات الشرقية فى آسيا يفترضون قدوم الروح من عالم آخر ، فالإنسان بفطرته يعرف أنه غير حادث ، وإن كان وجوده الأرضى حادث ، وأما الأديان السماوية فتقول إن الروح 'نفخة' من روح الله ، فهى أزلية وأبدية معاً ، ومن تتفتح بصيرته على إدراك الروح لابد أن يُسلِّم بأن لها منطقة الخاص، وهو وحده الذى يهديه إلى أن وجوده الروحى غير حادث ، وإن فنى الجسد المادى وتلاشى .

وكنت اشتريت من جنيف شرائط فيديو للبرنامج التليفزيونى الشهير عن الحيوانات والنباتات (٣٢ حلقة) الذى يقدمه العلامة ديفيد أتنبرو (David Attenborough) أخو المخرج السينمائى ريتشارد ، والذى يفسر فيه حياة الكائنات على الأرض تفسيراً مادياً محضاً، يقوم على النظريات البيولوجية المعروفة من توافق الكائنات مع بيئتها ، وتفسير كل ظاهرة حيوية فى ضوء الحاجة أو الضرورة ، وقد تابعت الحلقات كلها وخصوصاً شريطاً خاصاً عنوانه الحياة على الأرض (Life on Earth) طوله ساعتان ، يشرح فيه نشأة الحياة كما يتخيلها على الأرض استناداً إلى مبدأ المصادفة ، قائلاً إن عدداً معيناً من العوامل تصادف اجتماعه على وجه الأرض فى الماء أولاً ثم على اليابسة ثانياً أدى إلى نشأة الكائنات الدقيقة الحية ، ولكنه يعجز عن تفسير التحول من حالة الجماد فى العناصر الكيميائية التى اجتمعت لتشكيل الكائن الحى الأول إلى حالة الحياة بمظاهرها المعروفة من تَعَضُّون (أى تكوين أعضاء متعاضدة) وتكاثر بالانقسام ، وتنفس وغذاء وتفاعل مع البيئة ، فهو لا يقدم إلا عبارة موجزة لشرح ذلك قائلاً : (Somehow there was life) أى "جاءت الحياة على نحو ما" - وهى عبارة تشى بالمعجز عن تفسير ما حدث حين دبَّت الحياة - وإن تكن الحياة البيولوجية وحدها - فى الجماد ! وفى هذا المعجز يكمن التسليم باللفز ! هناك لحظة فى التفسير المادى لنشأة الحياة يتحول الجماد فيها - وفقاً لنظرية التطور - إلى كائن حى ! ونحن إذا سلّمنا بصدق هذه النظرية فيجب علينا ، طبقاً للمنهج العلمى الحديث ، أن نسلم بإمكان تكرار تلك اللحظة ، فالمنهج العلمى الحديث ينص على أن النظرية العلمية لا تكون

صحيحة إلا إذا أمكن تطبيقها فى كل حالة ، فنظرية تمدد المعادن بالحرارة نظرية صحيحة لأننا نستطيع تطبيقها فى كل حالة ، ولكن تلك اللحظة المفترضة لم تتكرر ولا يمكن تكرارها ، ومن ثم فهي تظل قائمة فى مجال الافتراض الذى لا يمكن إثبات صحته ، فهي لم تتكرر فى الطبيعة ولا يستطيع الإنسان أن يرصد تكرارها أو أن يُحدِّثها فى المختبر (المعمل) أو فى الطبيعة (فالعلم الطبيعى يقول إن الحياة لا تأتى إلّا من حياة ، وأما الحياة الأولى فممن المحال القطع فيها بمعطيات العلم الطبيعى الحديث، بل إن أقصى ما يستطيعه العالم هو افتراض أن الحياة قد دبّت على نحو ما فى الجماد - وهو افتراض لا ينفى وجود قوة عليا وهبت الجماد حياته ، ما دامت الطبيعة عاجزة عن تكرار تلك المعجزة وما دام الإنسان حائراً فى تفسير حدوثها - ناهيك بتكرارها)

وفى الشرائط الأخرى التى يقدم فيها 'أنتبره' ما يسميه بصعوبات الحياة (The Trials of Life) يحاول جاهداً تفسير ظواهر حياة الكائنات الحية فى ضوء 'محاولات' تلك الكائنات أن تبقى فى قيد الحياة وأن تتكاثر ، أى الجهود التى تبذلها للتغلب على صعوبات العيش ، وهى كائنات لا عقل لها بالمعنى المفهوم عند الإنسان ، فبعضها دقيق (ميكروسكوبى) لا رأس له ، ولا مخ ، وبعضها لا رأس له تذكر ، مثل النمل الأبيض (ter-mites) الذى يبنى بيوتاً ضخمة ، تشترك فى بنائها الملايين من الحشرات ، ولا يزيد حجم 'مخ' هذه النملة عن حجم حبة الرمل الواحدة ، ويقيم بعض أنواع النمل نُظْماً زراعية (ag-ricultural systems) - على حد تعبير 'أنتبره' - تعجز عن بنائها عقول أذكى البشر ! وتتعاون الحشرات فى العمل والتنظيم بدقة يسلم «أنتبره» باستحالة تفسيرها تفسيراً علمياً قائلاً :

“But how they do it, we have not even begun to understand”

أى ”أما كيف تفعل ذلك ، فلم نَخطُ ولو خطوة أولى فى طريق تفهمها“ وهو يقف عاجزاً أيضاً عن تفسير ما أسميه بالجمال فى الطبيعة ، وتلك قضية كبرى ، بل القضية التى شغلتنى وتشغلنى حتى الآن !

العلماء يقولون إن الجمال صفة ذاتية ونسبية ، أى إن الجمال هو ما نحس أنه جميل ، وإنه يتفاوت وفقاً لنظرة الرائي ، فما يراه البعض جميلاً قد يراه البعض قبيحاً ، وما يراه البعض فائق الجمال قد يراه البعض الآخر متوسط الجمال ، ومحاولة بعض العلماء وضع

قواعد أو مبادئ لتحديد عناصر الجمال ، مثل التناسق والتجانس والتناسب والتناغم وما إلى ذلك بسبيل ، محاولة فيها نظر ، فلقد نشأت مدارس نقدية حديثة تطعن فى هذه الأسس والمبادئ ، ووجدنا بعض المذاهب تدافع عن مبادئ أخرى تتناقض مع ما ورثناه كله وتكاد تنكره ، وما إلى هذا الحديث قصدت ، ولكنى أعنى أن 'أتبهره' يعجز عن إقامة أى علاقة بين نظريته القائمة على ضرورات الحياة والبقاء والتكاثر وبين وجود هذا التنوع البديع فى ألوان الكائنات الحية ، وفى أشكالها وأحجامها وحركاتها فهو يقف أمامه حائراً ، مستشهداً بآراء الفلاسفة والعلماء الذين ينسبون كل شيء إلى الطبيعة ، كأنما هى القوة العليا التى يواجهها الإنسان ويحاول سبر أغوارها ، فينجح أحياناً ويفشل فى معظم الأحيان .

ولكن البقاء والتكاثر لا يتطلب بالضرورة كل ذلك التنوع البديع وكل هذه الألوان - قطعاً - على نحو ما تشهد به حياة بعض الكائنات البسيطة العاطلة من الرونق والزخرف (بمعنى التعقيد والانسجام) ولا تتطلب الحياة البيولوجية تلك الدرامات الدائبة فى حياة الكائنات الحية ، ولا أستطيع أن أجد فى علم العلماء ما يبرر وجود الآلاف المؤلفة من أنواع السمك بألوانه الزاهية المنمقة ، ولا أجد فى فلسفة الفلاسفة الغائيين ما يفسر الروعة والبهاء الذى تكتسيه الطيور من حولنا بأنواعها التى لا تكاد تحصى ، وأما افتراض نسبة ذلك كله إلى الطبيعة فهو افتراض يقوضه التسليم بوجود اللغز الأكبر وهو اللغز الذى يشهد بوجوده عجز العلماء عن تفسير نشأة الحياة .

لا مناص من التسليم بوجود قوة كبرى تتحكم فى هذه الكائنات فتجعل النباتات قادرة على التهام بعضها البعض ، أو التهام الحشرات ، وهى نباتات لا عقل لها (تعريفياً) ، وهى قادرة على التحلى بألوان رائعة تجذب الحشرات حتى تنقل حبوب اللقاح إلى غيرها ، على نحو ما يبين 'أتبهره' فى سلسلة أخرى من الحلقات بعنوان الحياة السرية للنبات ، **The Secret Life of Plants** لا مناص من نسبة هذه القوة الكبرى إلى ما يتجاوز الطبيعة التى 'تتعامل' معها حواسنا ، وندرسها فى المختبرات ، ولا مناص من التسليم بمشاركتنا فى هذه القوة الكبرى بما لدينا من وعى ، فالوعى هو فى نظرى ما يميز الإنسان عن سائر الكائنات ، وفى ظنى أنه الأمانة التى حُمِّلناها ، وأبت الأرض والسموات والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .

لقد سبقنا فلاسفة الأديان إلى طرح هذا الموضوع وأفاضوا فيه ، واشترت من جنيف كتاباً ضخماً يقع فى عدة مجلدات عن تاريخ الفلسفة ، وعكفت عليه وإن لم أنته من قراءته إلا

بعد سنوات ، فوجدت الجميع قد عجزوا عن مواجهة اللغز ، وأقرب من عالجه هو أفلوطين ، وأتباعه ممن يُسمون بأنصار الأفلاطونية الجديدة ، وتأثيره فى رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء واضح ، خصوصاً فيما يسمى بنظرية (العقل الكلّي) (أو The universal mind) ، وهى النظرية التى تفترض وجود عقل واحد للعالم بشتى صوره ، ولكن هذا الافتراض لن يصحّ إلا إذا افترضنا أيضاً تجاوز هذا العقل للصور المادية للحياة ، لأن نسبة العقل إلى المادة عسيرة المأخذ ، ومن ثم فلا بد من افتراض 'العلوية' أو 'التمالى' (transcendental-ism) أى وجود ما يتجاوز معطيات الحواس ، وما تعجز الحواس إذن عن إدراكه ، وإن كان الوعى الباطن يدركه ، وأهمُّ ما فى هذا الإدراك التسليمُ بأنه لغز ، بل بأنه لغز الوجود الأكبر ، فإذا كان منهج العلم الطبيعى عاجزاً عن تبين حقيقته ، لأنه منهج لا يعترف إلا بالحواس ، فلا بد من التوسل بوسائل معرفية أخرى ، والمعرفة - كما يقول الفلاسفة - لا تتوسل بمنهج العلم الطبيعى وحده ، فلها وسائل أخرى وأساليب متعددة ، يشهد بها تراث الإنسانية الزاخر.

وهكذا رفضت دريدا ومذهبه ، فهو يحاول أن يخضع دراسة الأدب والنقد لمنطق العلم الطبيعى ، وفى هذا خطأ منهجى لأن الفن لا يخاطب العقل وحده ، بل يخاطب المشاعر والحس الجمالى أيضاً ، وهى مجالات لا ينطبق عليها قانون العلوم الطبيعية ، فالدراسات الإنسانية تدرس الإنسان باعتباره كائناً حياً ، لا باعتباره من الجماد ، والجماد هو مجال دراسة الفيزياء والكيمياء ، ومعنى استعارة قوانين العلوم الطبيعية لتطبيقها فى الدراسات الإنسانية المزجُ خطأً بين منهجين متفاوتين ، ومحاولة إرجاع أسباب المشاعر إلى عناصر مادية معناها إنكار الحياة الإنسانية بمعنى الوعى ، ولقد كان ذلك من وراء نشأة علم 'الظاهراتية' (Phenomenology) الذى يجعل مجال عمله وعى الإنسان ، أى أنه يدرس الحقائق القائمة فى وعى الإنسان باعتبارها الحقائق الوحيدة ، وإذا كان فى هذا إحياء لمذهب الذاتية عند 'كانط' ، فلقد أسىء فهمه بالعربية بسبب اختلاط الترجمة العربية بمذهب آخر هو الظاهرية (Phenomenalism) أى الاقتصار على دراسة الظواهر التى تدركها الحواس وحدها . وللأسف فقد شاع تيار الدعوة إلى تطبيق منهج العلوم الطبيعية فى العلوم الإنسانية بدعوى الاتجاه العلمى أو العلمية ، على نحو ما شهدنا فى الجامعة من كثرة ترديد كلمة المنهج العلمى بمعنى منهج العلوم الطبيعية .

إننا نقف حائرين أمام لغز الوجود ، وكلما أنعمنا النظر فيه ازدادت حيرتنا ، لأن عقلنا تدرب منذ الطفولة على 'التعامل' مع معطيات الحواس ، وعندما انخرط الدكتور صمويل جونسون - الناقد الإنجليزي العظيم ابن القرن الثامن عشر - فى حوار مع أحد من يتعاطون الفلسفة ، وادعى الأخير أن الوجود نفسه أمر مشكوك فيه ، لأن إثباته عسير بالمنطق وتحدى الدكتور جونسون قائلاً : 'كيف تثبت أنك موجود؟' نهض الدكتور جونسون من مقعده وركل حجراً بالقرب من المائدة التى كان يجلس إليها مع أصدقائه ، وكانت ركلة شديدة مدوية ، قائلاً "أثبتته هكذا" (I prove it thus) فأفحم الجميع ، ولكنه فى الواقع كان يؤكد النظرية العلمية المادية التى ولدت فى القرن السابع عشر وترعرعت فى القرن التالى ، ووصلت إلى ذروتها فى أواخر القرن التاسع عشر عندما أصبح التفسير المادى لجميع الظواهر مهما تكن هو المنهج العلمى الوحيد ، أو قل المنهج العلمى المقبول ، وكانت أوجه التقدم فى العلوم الطبيعية ، ومن بينها ، أو قل وعلى رأسها الطب ، إلى جانب المكتشفات والمخترعات الحديثة ، خير سند ودعم لذلك المنهج ، ولكن مولد علم النفس ، وخصوصاً مولد التحليل النفسى الذى أحكم صناعته سيجموند فرويد ، كان جرس إنذار نبّه العلماء والفلاسفة إلى وجود مناهج أخرى - أو على الأقل - إلى احتمال ألا يكون ذلك هو المنهج العلمى الوحيد !

وقرأت فى جنيف كتاباً كاملاً عن حياة فرويد بعنوان فرويد : حياة لهذا العصر (Freud: A Life for Our Time) كان قدر صدر عام ١٩٨٩ من تأليف بيتر جاى Peter Gay ، ويقع فى أكثر من ثمانمائة صفحة ، وتوقفت طويلاً عند مفهومه للأوعى (The unconscious) الذى كان يسمى العقل الباطن (The subconscious) وكيف طور نظرية أستاذه بروير Breuer ثم انفصل عنه ، مفضلاً وضع نظرياته الخاصة ، ودهشت لأن ما كان فرويد يرمى إليه من إنكار الدين قد أدى فى الواقع إلى إثباته بلغة العصر أى بلغة منهج العلوم الإنسانية الجديد ، وهو منهج الاستقراء والتأمل والتحليل ، لا بمنهج العلوم الطبيعية ، وهو منهج التجريب المعمل والمحاولة والخطأ وصولاً إلى إثبات صحة الفروض وتحويلها إلى نظرية عامة قابلة للتطبيق فى جميع الأحوال .

لقد نشأ التحليل النفسى فى كنف التويم المغناطيسى ، وقد أدركت سر التسمية العربية التى ترجع نشأتها إلى العالم النمساوى مِزمر Mesmer المتوفى عام ١٨١٥ ، إذ كان يسمى القوة الباطنة فى النفس قوة الإنجذاب الحيوى (animal magnetism) وقد ترجمها آباؤنا

بالمفناطيسية الروحية أو الحيوية ، وعندما سادت مصطلحات التويم hypnosis أو النوم ، وضع
المعربون مصطلحاً جديداً يجمع بين كلمة التويم وكلمة المفناطيس القديمة ، ولهم العذر فى ذلك
إذ كان مزمراً يجهل طبيعة تلك القوة التى استعملها فى علاج المرضى ويظن أن لها علاقة بظاهرة
المفناطيسية ، بل كان يضع فى غرفة الكشف الطبى وقاعة العلاج مفناطيساً كبيراً مزوداً بقضبان
حديدية يتصور أنها تساعد فى التغلغل إلى النفوس ، ولكن فرويد توصل بعد جهود دائبة إلى
حقيقة وجود تلك الأصقاع الخفية فى النفس (أو العقل mind) وكان يسميها The hinter-
land أى البقاع الخلفية ، وخرجت من دراستى لكتاب آخر عن التويم المفناطيسى (بهذا العنوان
نفسه) إلى أن بحوث فرويد ، على ما بها من مظاهر المنهج العلمى الحديث ، أدت إلى الإتيان بما
يستعصى على هذا المنهج نفسه ، وهو إثبات وجود مستويات للوعى تدق وتبتعد عنه حتى يمكن
القول بأنها (لاوعى) أو بأنها تمثل وعياً من نوع آخر لا يمكننا أن ننسبه إلا إلى الروح ، وهى
طاقة غير بيولوجية ، لا يشاركنا فيها غيرنا من الكائنات الحية.

ولقد تأكد وجود هذه المستويات الباطنة وتعددت أسماء العلماء الذين بحثوها فأفاضوا
فى بحثها ، وطبقها ف. ل. لوكاس F. L. Lucas فى كتابه عن تدهور المثل الأعلى
الرومانسى وسقوطه (The Decline and Fall of the Romantic Ideal) فأثبت
أن الشعراء الرومانسيين يستقون إلهامهم من أعماق الوعى ، كما طوّر العلامة كارل جوستاف
يونج (Carl Gustav Jung) هذا المفهوم بحيث أصبح لا يقتصر على الفرد بل يشمل
الجماعة، وكان أن وضع نظرية الوعى الجماعى واللاوعى الجماعى ، ثم نظرية الأنماط
الفطرية (archetypes) المعروفة ، وانتهى من بحوثه إلى أن وجود الروح يقطع بوجود الله،
وهو ما جعل 'العلماء' يتهمونهم بالتصوف بالمعنى العام أى بما يسمى (mysticism) ومعناه
الحرفى الإيمان بوجود قوة روحية خفية ، وأما المعنى الاصطلاحي فهو يقترب من التصوف
الدينى ، ومن ثم أصبح منبوذاً فى عصر سادته مناهج العلوم المادية .

وخرجت من ذلك كله وغيره إلى أننا أصبحنا نواجه أكثر من منهج علمى واحد ، وأن
المنهج المادى القديم الذى لم يكن يعترف إلا بقوانين المادة التى 'تتعامل' الحواس معها ،
بأسلوب الدكتور جونسون ، لم يعد المنهج الأوحى ، وأنه قد أصبح علينا أن نقف فى قدرة الفرد
على التأمل الداخلى وصولاً إلى الحقائق التى يصعب على المنهج العلمى المادى أن يصل إليها ،

وقد يتخذ هذا التأمل صورة "الإستبطان" (introspection) ولكن الاستبطان وسيلة من وسائل عديدة ، منها تأمل الفن ، فلماذا ترانا نُسر أو نهتز لسماع الموسيقى ، ولماذا نبتهج لمرأى المناظر الطبيعية أو اللوحات الجميلة ، ولماذا نطرب للشعر الرائع ، ولماذا نسعد برؤية الرقص والمحاكاة فى الفنون التمثيلية ؟ إن تحليل الأعمال الفنية يقف عند خواص فن الصناعة، ولكنه يفضل دائماً فى تفسير علاقة فنون الصناعة بالسرور أو الطرب ! أى : لماذا نسعد بالاستعارة والتشبيه ؟ لماذا نسر عندما نقرا أن الربيع الطلق يخال ضاحكاً ؟! لن تفلح شتى أساليب التحليل فى بيان أسباب السرور ، مهما يكن من حذق "المحلل" المحترف ! وعندما حاولت كارولين سبيرجون (Spurgeon) إرجاع السرور الذى ينتاب الإنسان عند سماع التعبير الاستعارى إلى إحساسه بالقوة الواحدة التى تجمع بين الكائنات جميعاً على مستوى بالغ العمق من مستويات الوعي ، كانت فى الحقيقة تقدم نظرة فلسفية قديمة عن أسلوب أو منهج من مناهج النفس (أو العقل) الإنسانى ، وهو ذلك المستوى الذى لا نجد له فى اللغة إلا لفظ 'الروح' .

ونحن لا سبيل لنا إلى معرفة الروح ، بل إن الروح نفسها استعارة من الريح ، وهى استعارة فى العربية مثلما هى استعارة فى جميع لغات العالم القديمة والحديثة ، ونحن لا ندرك إلا آثارها أو ظواهرها - كما يشئ بذلك عنوان كتاب هيجل (Hegel) الشهير الذى يركز فيه تركيزاً شديداً على الاستعارة ، والعنوان هو ما ترجم بالعربية إلى ظاهريات العقل أو (Phänomenologie des Geistes) ويخرج منه بما يسميه المطلق (The Absolute) أى ذلك الذى يمنح التوحد أو الوحدة ويبرز الحقيقة ، وهو فى ذاته الوحدة والحقيقة ، وإذا كان المعنى المباشر للمضاف إليه فى العنوان هو العقل فإن من المعانى المتصلة به والموحى بها معنى النفس أو الروح . والاستعارة هنا أساسية ، فنحن لا نستطيع التعبير بلغة تحيلنا دائماً إلى المادة إلاّ عن طريق إطلاقها على سبيل الاستعارة على ما لا نستطيع أن ندركه أو أن نفهمه ، ومن ذلك الروح بطبيعة الحال .

ولكن الحس الجمالى أو الفنى منهج من مناهج ، وهو - رغم أنه طاقة فطرية يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات - يحتاج إلى ما يسمى بالتمية باللغة العربية المعاصرة ، وقد تتفاوت حظوظ البشر من هذه الطاقة ، ولكنها فى حاجة دائماً إلى الدربة والمران ، وكذلك الروح ، حيث تتفاوت حظوظ البشر من النشاط الروحى ، فهم دائماً فى حاجة إلى تنمية هذا

النشاط ، سواء كان ذلك عن طريق ممارسة الشعائر الدينية وذلك هو طريق العامة ، إذ تهض هذه الشعائر - كما تقول كارين أرمسترونج فى كتابها معارك فى سبيل الإله (The Battle for God) - بمهمة تنشيط الإحساس بروح الوجود ووجود القوة العليا أو العلوية، أو كان ذلك عن طريق التعمق فى معنى الروح والوجود الروحي الذى يختلف فيه الإنسان عن سائر الكائنات ، وقد يتوسل الفرد فى سبيل ذلك بمنطق العقل والنفس معاً ، وهو الأفضل ، أو يزاوّل التأمل بأحد المناهج المتاحة له ، فيزداد نشاطه الروحي ، بمعنى يقظة النفس التى تهب الوجود معنى وتربط الوجود بسائر الموجودات .

لقد كانت الأسابيع التى قضيتها فى جنيف مع هذه الكتب وهذه التأملات فرصة أولى (تكررت فيما بعد) لتأمل ما أسميه 'المعنى' ، وقد يسميه البعض 'الدلالة' أو 'المغزى' ، ولكننى أفضل الكلمة الأولى على غموضها ، لأنها أقدر على إقامة الصلة بين الوجود المادى والوجود المعنوى ، وأقدر على إيضاح مرامى الإنسان فى سعيه الدائب لتحقيق غايات بعضها زائل وبعضها باقٍ ، وما يبقى منه إلا 'المعنى' ، أى قيمة ما علمه للناس ولنفسه، ومدى جهده فى تنمية الطاقة الفطرية التى ولد بها ، وهى الطاقة التى اختص بها من دون الكائنات كلها حية وجامدة .



وفى منتصف نوفمبر اتصل بى الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد الكلية ، وأنا فى جنيف ، وسألنى عن موعد عودتى وقال إن الدكتور حمودة قد سافر فى إغارة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة ، ولم يعد للقسم رئيس ، وهو يتعرض 'لضغوط' وعليه تعيين رئيس جديد ، وأكدت له أننى قادم فى آخر الشهر ، وعندما وصلت وجدت قرار رئيس الجامعة آنذاك الدكتور مفيد شهاب فى انتظارى ! كان تعيينى رئيساً للقسم معناه الانشغال بالأعمال الإدارية ، ولكن الدكتور حمودة كان قد انتهى من كل شئ فى الشهرين السابقين ، ولم يكن أمامى سوى التصدى للطوارئ ! ولما كنت لا أشرك فى التدريس ، فقد خصصت كل وقتى للقراءة ، وصح عزمى على إعداد معجم موجز للمصطلحات النقدية الحديثة ، فأعددت

البطاقات اللازمة ، والمقتطفات التي ترجمتها من أقوال النقاد ، كما عدت إلى معجم المختصرات الذي كنت بدأت قبل أزمة المرض ، فأكمّلته أو حاولت استكماله ، وكنت أستعين فى المراجعة والنسخ بالزملاء وطلاب الدراسات العليا ، وفى يناير ١٩٩٤ فازت ترجمتى الشعرية لروميو وجوليت فى معرض القاهرة الدولى للكتاب بجائزة أفضل كتاب مترجم لعام ١٩٩٣ وبتكريم السيد الرئيس للمرة الثانية (وكانت الأولى عام ١٩٨٦ عندما أنعم على بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى) .

قلت فى نفسى لقد عدت إلى الحياة ، وما إن انتهى المعرض حتى جاءنى سمير سرحان باقتراح مشاركته فى كتابة عرض مسرحى عن على باشا مبارك فأتيت بكتاب الدكتور محمد عمارة عنه ، وبيع ما كتبه المؤرخون الراسخون ، مثل الدكتور رؤوف عباس ، وقرأت وقرأت ، وفى غضون شهرين اكتملت المسرحية ! وتعددت لقاءاتى مع سمير للتعديل والإضافة والحذف ، ثم جاءنى عرض للسفر فى يونيو للعمل فى جنيف ، فطرت فرحاً ، واصطحبت معى هذه المرة مسودات مسرحية الدرويش والغازية ، وعندما عدت إلى مصر كانت المسرحية قد اكتملت .

وكانت فى صورتها الأولى تستوحى خيطاً فكرياً واحداً هو الاحتيال (وكان النموذج الحى له هو شركات توظيف الأموال والنصب على المواطنين) وما شاع فى المجتمع من خداع - بصفة عامة - باسم الدين ، فإذا كان قد ظهر فى الستينيات مزايدون على الاشتراكية ، وكانت مواجعتهم بسيرة لأنهم - من منطق مزاداتهم نفسها - يقومون فى أخطاء علمية يسهل دحضها وكشفها ، فإن التصدى للمزايدين على الدين كان عسيراً (ولا يزال) لأن المواجهة تأتى لصاحبها بتهمة الكفر وما أيسر أن ترمى بها خصومك فتتسبب فى إهدار دمك ! والأخطر من ذلك أن يتحول الكلام والفكر إلى مناقشة مسائل دينية يندر أن يحيط المزايدون بدقائقها ، ويصعب حتى على من يتصدى لها أن يدحضها بالمنطق العقلانى ! فالتفسيرات تتكاثر بلا نهاية ، والنصوص المقتبسة فيما يسمى بالخطاب الدينى يصعب إثبات صحتها أو نسبتها إلى قائلها بل وتفسيرها إذا كانت صحيحة ! وعندما ذهبت إلى عبد الرحمن الشافعى المخرج العبقري فى المسرح العائم بالجيزة (الذى أصبح اسمه مسرح النيل) وعرضتها عليه ، أعجبه النص وقرر إخراجه فوراً ، واطمأن قلبى إلى أن النص سوف يقدم حتى أنفرغ لئى جديد ، وتلك - كما سبق أن ذكرت - من آفات الكتابة المسرحية ، أى إن الكاتب لا يستطيع التركيز فى

نص جديد حتى ينتهى مما فى يده ، كأنما كان النص الذى لم 'يتحقق' على خشبة المسرح
شبحاً يقض مضجعه ليلاً ونهاراً !

وسرعان ما تردد فى 'الوسط الفنى' وجود مسرحية جديدة لى فى الثقافة الجماهيرية،
وبدأت التساؤلات ، والاتصالات والمقابلات ، وكنت آنذاك قد بدأت الخروج إلى المسارح ولو
على نطاق ضيق خشية حدوث نكسة صحيّة ، وما كان أشد دهشتى حين ذهبت إلى قاعة
منف القريبة من منزلنا لأشهد عرضاً لمسرحيتى المجاذيب تقدمه إحدى فرق الثقافة
الجماهيرية ، وكانت معى زوجتى نهاد ، فوجدت 'حسن' المخرج بين المتفرجين ! وتبادلنا
التحية المقتضبة بالأيدى ثم جاءنى بعد العرض وأعطانى رقم تليفونه وطلب منى الاتصال
لأمر هام ! وقابلته فى اليوم التالى فقص علىّ قصة لم أكن أتوقعها !

قال حسن إنه كان قد استقر للعمل مدرساً فى معهد للفنون المسرحية بإحدى البلدان
العربية بعد ازدهار شركته ، وحاجته إلى 'عنوان ثابت' - و'مكانة اجتماعية رفيعة' - وكان
ذلك 'المعهد' لا يزيد عن كونه قسمًا للإلقاء فى إحدى كليات الجامعة ، ولم يكن له مكان
ثابت ، فهو - مثل مراكز اللغات والترجمة فى الجامعة - كيان معنوى فحسب ! ولكنه عمل
على اجتذاب طلاب كثيرين من الذين يريدون العمل بالإذاعة والتلفزيون فى مسلسلاته
وبرامجه الدينية ، وساعده منهجه 'الإسلامى' (على حد وصفه له) فى ترسيخ ما يسعى
إلى إنشائه مما يسميه بالمسرح الإسلامى فاستطاع فى أقل من عام أن يثير ضجة إعلامية
وإن كنا لم نسمع بها فى مصر !

واستمر حسن يحكى لى عن تفاصيل عمله وحياته فقال إنه قدّم ذات يوم برنامجاً
إسلامياً بالانجليزية فى تلفزيون ذلك البلد العربى ، وبعد أيام جاءته مكالمة تليفونية من امرأة
تتحدث الانجليزية بلهجة أجنبية ، وظنها من أهل البلد فالتزم الحرص فى حديثه وأكثر من
الحوقلة والبسمة ، ولكنها سألته سؤالاً محددًا : ما تَحَلَّةُ أَيْمَانٍ حُلِفَتْ وَحُنْتُ بِهَا ، فأجابها ،
فقالت فأنا لا أستطيع إطلاع المساكين لفقرى ولا أستطيع الصوم بسبب ضعف صحتى ، فقال
لها إذن لا تحنثى بيمين حلفتى ! فقالت ولكنى لا بد أن أحنث ! فتعجب وسألها عن السبب
فقالت إنها صومالية مليحة الوجه ولكنها سمراء قاتمة السواد ، وتحب شاباً لبنانياً أزرق
العينين من المحال مقاومة سحره ، وقد أرغمها رئيسها فى العمل (وهو عربى) على أن تقسم
على الانفصال عنه ! فأقسمت ومن تلك اللحظة لا تستطيع النوم وأصابها الهزال وتريد أن
تعود لحبيبها ! قال حسن :

”نصحتها بأن تقاوم نزعات النفس الأمارة بالسوء ، ومثلت أروع أدوارى بالتليفون وأنا أقدم المواعظ وآيات الرشد ، ولكن صوتها كان ساحراً ، ودافئاً عميقاً ، يخلو من ”سرسة“ بنات جنسها ، فأطَلْتُ المكالمة عامداً ، فكشَفْتُ عن المزيد من تفاصيل حياتها ، وقالت لى فى النهاية إن رئيسها هدها إذا لم تترك اللبناى فسوف يفصلها من العمل هى وزوجها ! وصُعِقْتُ ! وقلت لها أنت تريدين التكفير عن يمين حلفتيه وأنت ترتكبين الفاحشة ! فأنكرت وقالت إنما هو حب مثالى (idealist) وربما كانت تقصد ’حبا بريئاً‘ ، ولكننى أصررتُ على أن تترك حبيبها ، وقلت لها إنك على شفا حفرة من النار ووضعت السماعه“ .

وقال حسن إنه تصور أنه قد أرضى ضميره وقدم أثمن نصيحة ، ولم يكن يدري ما يخبئه القدر ، إذ استدعاه عميد الكلية وقال له إنه سمع عن علاقته بإحدى الفتيات وليس ذلك بمستحب ، وإنه لم يصدق ما سمع ، ولكنه يحذره من مخاطبة أى أنثى وإلا ... وخرج حسن وهو يعجب من الشائعة وكيف ظهرت ومن وراءها ، فليس تليفونه مُراقباً ولا همَّ له فى الواقع إلا العمل وجمع المال ، فإذا كانت الصومالية هى مصدر الشائعة فلا بد أن ينتقم منها ، وجعل يكيل الشتائم لها فى خياله ويلعن الساعة التى رد فيها على التليفون ، وبعد أسبوعين كاد أن ينسى ’الواقعة‘ فيهما ، جاءه طالب أزرق العينين وقال إنه يريد فى أمر هام ، ولم يجل بخاطر حسن أن يكون ذلك الطالب ’الصغير‘ هو حبيب الصومالية ! ولكن الطالب تحدث فأطال ، وقال له ما معناه إن الصومالية مفرمه به (أى بحسن) وإنها اتخذت من حادثة الحَنْثِ باليمين ذريعة لمحدثته لا أكثر ، وإنها باختصار تريد أن تراه ، وإنها اتصلت بالكلية لتسأل عنه بعد أن لاحظت عدم رده على التليفونات ، وانتهى الطالب إلى تبرئة نفسه من أى تكدير يكون قد تعرض حسن له فهو أستاذه الذى يحبه ويحترمه .

وقال حسن فى نبرات تفيض أسىً وألماً : ”وهكذا وجدت نفسى رغم أنفى فى حبائل امرأة أجنبية ، قد تكون صالحة وقد تكون غير ذلك ، وكان البرنامج التليفزيونى فيما يبدو هو السبب ! أحسست أننى معزول عن الدنيا دون ذنب جنيته ، ولم أعد أستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال ، وغدوت أتساءل إذا كانت القصة التى روتها الصومالية صحيحة ، بل إذا كان ما رواه الطالب صحيحاً ، وشعرت - وربما كنت مخطئاً - أن هناك رقابة مفروضة على من طرفٍ خفى ، ولما كنت لم أشاهد تلك الفتاة فى حياتى ، فقد أصبحت أستريب بكل امرأة تنظر إلى ، خصوصاً إذا كانت سمراء قاتمة السواد ، وأما إذا كانت تخفى وجهها الأبنوسى

بلثام أو بما يوازيه فكان يخيّل إلى أنها إذا رفعت النقاب فسوف أواجه مصيراً أسود ، وكثيراً ما كانت السيارات تقف إلى جوار سيارتي - على نحو ما يحدث في زحام المرور - فألتفتُ لأتبيّن فجأة وجهها أسود كأنه وجه القدر المتريص بي ، فأشيع بوجهي خشية أن المح بسمه أو أسمع كلمة ، رغم الزجاج المغلق والرجل الجالس إلى جوارها !

”ولم أحتمل أن ألقى مصير دافيد - وهو مدرس بريطاني (من ويلز) لمادة إلقاء اللغة الانجليزية (elocution) بالمعهد - الذي تلقى إنذاراً بالطرد في غضون أربع وعشرين ساعة ، بعد أن ثبت للسلطات الجامعية أنه ذو ميول جنسية مثلية ، وأنه كان يتقاضى نقوداً في مقابل خدماته ، والحق إنني كنت أشك فيه ولكن انشغالي بالعمل وكثرة تنقلاتي لم يتيح لي أن ألحظ سوى بواذر وظواهر ، وكنت أردد في نفسي ما نقوله في مصر ’خَلَقُ الله في مُلكِ الله‘ ، ولكن وجود الطالب اللبناني كان يذكرني بالصومالية ، وكثيراً ما كنت أرسم لها صورة في ذهني ، ولم يمض أسبوع حتى قدمت استقالتى من المعهد“ .

وسألت حسن إن كان قد عاد إلى مصر قبل عام ولماذا لم يتصل بي ، فقال إنه كان يحس بالذنب تجاه زوجته السابقة وابنته التي كبرت ، فعاد إلى مصر ليجد أن زوجته قد أصيبت بمرض مزمن ، فقضى شهوراً طويلة في علاجها حتى تحسنت حالتها ، ولكنها لم تعد قادرة على العمل إذ كست وجهها الفضون وجحظت عيناها ، واقتصرت على المشاركة في التمثيليات الإذاعية حتى تكفل لنفسها ولابنتها العيش الكريم ، فاشتري لهما شقة في وسط البلد حتى تكون زوجته قريبة من عيادة الطبيب الذي يشرف على علاجها ، وأدخل ابنته مدرسة أجنبية مصاريفها باهظة ، كأنما ليكفر عن إهماله لها طيلة تلك السنوات .

وعاتبته لعدم السؤال عني فقال إنه سأل بالفعل عني وقيل له إنني في جنيف ، ولكن هموم حياة الأسرة ابتلعتني ، ثم أطرق لحظة قبل أن يقول : ”نحن بخير الآن والحمد لله ، ولكن بريق الحياة انطفأ ! ولك أن تتصور ما يفعله المرض في نفس الإنسان ونفس ذويه ! ولقد تابعت نشاطك وشاهدتك أكثر من مرة في مسرح الطليعة ، ولكنني كنت كمن يمنعه الألم لما أصابك من الحديث إليك ! ولولا أنك رفعت يدك إلى بالتحية أولاً لترددت في الحديث إليك بالأمس !“ .

كنا نجلس في غرفتي بالكلية ، وقد أغلقت الباب وأعلنت أن لدى اجتماعاً خاصاً ، ولم يكن يُسمح بفتح الباب إلا للفراش ’نجاح‘ الذي كان يحضر الشاي والقهوة ، أو يخبرني عن

يريد مقابلتي ، ولم أكن أريد مفارقة حسن ذلك الصباح ، لكنه نهض ووعدنى بالاتصال فى وقت قريب ، قائلاً إنه ربما سافر فى مطلع العام إلى أمريكا مع أسرته لعرض زوجته على أحد الأطباء ، وأنه لابد أن يقابلنى مرة ثانية ليعرف أخبارى وما صار إليه أمر الدرويش والغازية . وخرج حسن ولم أسمع أخباره إلا بعد سنوات !

كنا فى موسم الامتحانات والصيف حار ، والطلاب يتعجلون إعلان النتائج ، وكنت مشغولاً بمشروع جديد تنهض به هيئة الكتاب هو مكتبة الأسرة ، إذ كلفنى سمير سرحان بإعداد مختارات لشوقى وحافظ ، فذهبت إليه بها ، وقضينا ليلتين فى الانتقاء والمفاضلة ، وكانت سميرة عرابى مديرة المطابع - رحمها الله - عنيدة إذ حددت عدد الصفحات بما لا يزيد على ١٢٠ صفحة ، وكنت أحاول التوسع وسمير يقول إننا محكومون بالميزانية ، ثم صدرت مختارات شوقى ونفدت فى أيام ، وصدرت مختارات حافظ ، لكنها لم تنفذ إلا فى آخر الصيف !



فى خريف ١٩٩٤ عُرضت مسرحية صباح الخير يا وطن عن على مبارك ، وكتب عنها النقاد كلاماً طيباً باعتبارها مسرحية تعليمية ، ولكن الجمهور لم يعرف الطريق إليها ، وكان فهمى الخولى ، المخرج المبدع ، الذى أخرجها ، فى أسوأ حالاته ، وقالت لى نهاد صليحة - بصفتها ناقدة محترفة - قولةً أعتز بها "الأفضل أن تنسى هذا العمل تماماً لا" قالت ذلك بالانجليزية ، فوجدت فى قولها حُكماً رحيماً بالعرض ، وحاولت أن أنساه ، ولكن ذكرى كتابته وإخراجه جعلتني أثبتة فى الواحات ! وأنا لا أنسى بسرعه ، وذاكرتى ليست انتقائية مثل ذاكرة نهاد ، بل هى تختزن الكلام والصور وتصنفها وتبويبها ثم تعيد التصنيف والتبويب! وهذا هو ما كنت أفعله بالمادة العلمية عن المصطلحات الأدبية الحديثة التى وضعتها فى البطاقات وعكفت عليها تصنيفاً وتبويماً فى نزوة من نزوات العمر فى ديسمبر ١٩٩٤ ويناير ١٩٩٥ ! كنت أعمل طول اليوم ، لا أدري من أين آتى بالطاقة ، بل ولا أدري إن كنت على صواب أم خطأ ، ولكننى كنت أعمل فحسب ، من الصباح الباكر حتى الظهيرة ، ثم فى المساء حتى يغلبنى النعاس .

وفى غضون شهرين كانت المادة قد قاربت الاكتمال ، وأنا أكتب بالقلم على الورق ، لا على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ، وعندما اكتمل النص عرضته على نهاد فاقترحت إضافة فصلين ، ففعلت ذلك ، وفى مارس ١٩٩٥ حملت النص إلى مكتب الكمبيوتر فانتهى منه فى أسبوع ، وفى إبريل حملته للشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان !

كانت تلك الشركة قد طبعت لى كتاب فن الترجمة عام ١٩٩٢ ، وصدرت الطبعة الثانية منه فى عام ١٩٩٥ ، وكان فى مصر بيار صايغ ، ابن أخت صاحب الشركة خليل صايغ ، والمدير المالى ، الذى رحب بالكتاب ، وبدأ الأستاذ وجدى رزق غالى ، رئيس تحرير المطبوعات العربية بالشركة ، فى تحرير النص . كانت المادة التى جمعتها تنقسم إلى قسمين ، القسم الأول يضم المصطلحات نفسها ، وهى لا تمثل إلا معجمًا محدودًا يتبع نظام المقالات أو التعريفات لا الترجمة النهائية إذ لم أكن من أنصار فرض ترجمة ما ، مهما تكن جذابة ، على الدارسين ، بل كنت ولا أزال أحبذ مناقشة الترجمات المتاحة وتفضيل بعضها على بعض ، فإذا كانت جميعها لا تفى بالغرض فى نظرى اقترحت ترجمة أو ترجمات أخرى ، وأما القسم الثانى فهو يمثل مقدمة أتناول فيها المدارس الحديثة التى أتت بتلك المصطلحات ، وكنت أعجب للحماس الذى دفعنى إلى جمع تلك المادة وتنظيمها وتبويبها بتلك السرعة ، وأخشى أن أكون قد أخطأت هنا أو هناك ، فمراجعى كلها انجليزية ، والمادة لها أصول ألمانية وفرنسية كثيرة ، ولكن الحماس جرفنى ، وكنت أطلق على الكتاب وصف النزوة ، وكان صديقى ماهر شفيق فريد يضحك من التسمية ، ويقول ما أحوجنا إلى هذه النزوات !

وفى الصيف اتصل بى المخرج اللامع فاروق الدمرداش ، صديقى منذ الستينيات ، وطلب منى نسخة من ترجمة يوليوس قيصر لتسجيلها لمحطة الإذاعة البريطانية ، وقال إنه سيحاسبنى بأسعار الإذاعة المصرية (البرنامج الثانى الذى أصبح البرنامج الثقافى) فأكدت له أننى لا أكرث للحساب ! وضرب لى موعدًا فى الاسكندرية فى مدخل مسرح سيد درويش ، فذهبت أنا ونهاد وسارة وقابلناه ، وأخذت له النص المطبوع ليوليوس قيصر ، إلى جانب ترجماتى لحلم ليلة صيف وروميو وجوليت وتاجر البندقية . ولكنه قال إنه يريد الأولى فقط ، وقال إنه سينظر فى الثلاثة الأخيرة . وقدم فاروق الدمرداش نص يوليوس قيصر مسجلًا بأصوات المصريين فى الـ B.B.C فلاقى الاستحسان ، مما دفعه إلى تسجيل النصين الثانى والثالث ، وأما تاجر البندقية فلا يجرؤ أحد حتى الآن على تقديمها فى العالم العربى بسبب حساسيتها السياسية !

ف عندما صدرت الترجمة عام ١٩٨٨ ، وكدت أطيّر بها فرحًا ، تحمس لإخراجها المخرج عبد الغفار عودة ، وحاول تقديمها على أى مسرح فى مصر ، ولكنه كان يقابل بكلمات معسولة ثم ينتهى الأمر إلى لا شىء ، وعندما تولت الدكتورة هدى وصفى إدارة المسرح القومى تحمست لإخراج المسرحية وكاد العمل أن يبدأ فيها ، ثم رأى المخرج المبدع فهمى الخولى تحويل النص إلى اللغة العامية ، وكلف السيناريست الشهير رفيق الصبان بتحويله إلى العامية، ثم تعثرت المسرحية ولم تر النور لأسباب غامضة ، وفى مطلع التسعينيات كان الباحث السورى حيان الساعى يعمل فى رسالة الدكتوراه فى انجلترا عن ترجمات شيكسبير وانتهى إلى أن تاجر البندقية التى ترجمتها أفضل الترجمات ، مما دفع بعض أبناء سوريا إلى محاولة تقديمها على المسرح - ثم توقف المشروع ! وعندما زارت إحدى الفرق الانجليزية مصر وحادثت مساعد المخرج (دونالد يورك) عن جرأة لورانس أوليفية فى إخراجها ضحك وقال ”لكن السير لورانس تدخل فى النص .. إنه غشاش !“

ترى هل يتمتع المسرح بكل هذه القوة ؟ ولنفرض أن شيكسبير يسخر من يهودى مراب أثيم ، فهل يعنى هذا أنه يهاجم اليهود كلهم أو الدين اليهودى ؟ لقد ذهب بعض النقاد إلى أن السخرية تتضمن فى الواقع إشفاقاً عليه أو استشارة للإشفاق على مصيره ، إذ أرغم على اعتناق النصرانية ، وصودرت جميع أملاكه ! ومهما يكن من أمر أفلا يمكن اعتبار ذلك كله حدثاً مسرحياً يدور فى عالم بُعد به العهد واختلفت أحواله عن عالمنا ؟ هل من المحتوم فى المسرح ”إسقاط“ أحداث النص على وقائع الحياة المعاصرة ؟

وسافرت فى الصيف إلى جنيف ، وجاءتنى مكاملة من باريس ، وكان المتحدث هو محمود القيعى رئيس القسم العربى فى اليونسكو الذى دعانى للعمل بالترجمة فى المؤتمر العام للمنظمة فى نوفمبر ! العودة إلى باريس إذن ! لكننى كنت هذه المرة صحيح البدن ، فسرت فى الشوارع أنشق هواء الخريف الجميل ، وزرت جميع الأماكن التى كنت أحلم بزيارتها ، وذات ليلة مقمرة هببت من نومى مفزوعاً إذ تذكرت عمر نجم - صديقى الشاعر الذى اختطفه الموت وهو فى ريعانه ! وكتبت دون تردد قصيدة بالعامية المصرية وغفوت . وكان التلفزيون ذا صوت خفيض ساعدنى على النوم ، وفى نحو الثالثة صباحاً سمعت المذيع يقول إن اسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل وصانع السلام مع عرفات قد قتل !

وضاع النوم من عيني ، ومكثت في الغرفة أنظر من الشباك حتى عادت الحياة تدب في الطريق ، وكان الرذاذ يضيء على ضوء الصبح مسحة حزينة كأنه عبرات تاكل ، وذهبت إلى العمل قبل موعد 'الواردية' وأنا ممزق النفس مهتاجاً ، أحاول التسرية بالعمل فيأبى العمل تسريتي ، وعندما انتهى النهار انطلقت أسير وأسير حتى غربت الشمس ، ذاهلاً عن كل ما حولي ، فمدينة باريس - كما يعرف كل من زارها - عالم كامل ، لا يطلب المرء فيه شيئاً إلا وجده ، واتجهت إلى الفرع الباريسي لمكتبة (W.H. Smith) الانجليزية فاشترت المزيد من كتب النظرية الحديثة في النقد ، الصادرة في ذلك العام أو أوائل التسعينيات ، ووجدت مغالاة في أسعار الكتب فأخبرتهم أنني عضو في اتحاد كتاب مصر ، وفعلاً خصموا ٢٠ ٪ من الفاتورة الكلية فلم أدفع سوى أربعة آلاف فرنك .

ووجدت في الكتب الجديدة ما يقتضي بعض التعديل في كتاب المصطلحات وأردت إضافتها فسمح لي الأستاذ وجدى ، وهو علامة نحري ، له من المعاجم ما يشرف أي مصري ، وانقضى عام ١٩٩٥ وقد انتهيت أيضاً من إصدار كتاب ضخيم بالعربية بعنوان من قضايا الأدب الحديث يضم مقالاتي المتفرقة التي نشرتها منذ الستينيات ، إلى جانب ما وجدته في مكتبي من دراسات لم يكتب لها أن تنشر من قبل ، وفي شتاء عام ١٩٩٥ - ١٩٩٦ طلب مني انتصار عبد الفتاح (المخرج والموسيقى النابه) إعداد نص مسرحي موجز لمسرحية الملك لير لشيكسبير ففرحت بالتكليف وأحضرت كشأني دائماً شتى طبعات المسرحية حتى أسترشد بالشروح وآراء النقاد وانهمكت في العمل . وعندما انتهيت من الترجمة المنظومة للنص ، كانت بواذر الصيف قد حلت ، وبدأ انتصار يستعد لتقديم عمل مسرحي موسيقي ، تحاشيت فيه أخطاء العمل الموسيقي القائم على روميو وجوليت قبل أكثر من عشر سنوات ، بل ركزت على التيمة الرئيسية في النص ، فقرأ المخرج ما كتبه وطلب الاطلاع على العمل الكامل حتى يكتمل لديه التصور وبدأ تجاربه المسرحية .

ولكن عام ١٩٩٥ لم ينقض دون أن تعود الحياة "بقدره قادر" إلى مسرحية الدرويش والغازية ، إذ اتصل بي المخرج حافظ أحمد حافظ من الثقافة الجماهيرية ، وقال إنه شديد الإعجاب بالنص ، وقد حدد أسماء الممثلين والعاملين ويريد مقابلي للانتهاء من بعض الاستفسارات . واجتمعنا فعلاً مع بعض الفنانين والعاملين بالثقافة الجماهيرية ، كان على رأسهم ضياء الميرغني ، المرشح للبطولة ، والفنانة التشكيلية شادية عرفى ، وكان حافظ قد اتفق مع فنانة مغربية على القيام بدور الغازية ، علمت فيما بعد أنها تزوجت الفنان عمر

الحريرى ، ولكنها - بعد عدد محدود من البروفات - انسحبت بسبب صعوبة اللهجة المصرية . واستمرت البروفات ، وقامت بدور الغازية فتاة واعدة اسمها منى حسين ، فرقست وغنت ومثلت فأبدعت ، ولكن العرض تأخر - كالعادة - فلم يُفتتح إلا بعد أن انتهى عام ١٩٩٥ وبدأنا عام ١٩٩٦ .

كان العرض يقدم على المسرح العائم بالجيزة (مسرح النيل حالياً) وكان يناير وفبراير كالعادة أبرد شهور العام ، ولكن إقبال الجمهور كان مذهلاً ، وكنت أذهب كثيراً إلى العرض مما أصابنى بإنفلونزا عانيت منها مر المعاناة ، ولكن فرحة مشاهدة العرض كانت لا تعدلها فرحة ، بل كانت مكافأة أكثر من مجزية على تعب الكتابة ومشاكل الإخراج والممثلين ، وما فتئ عرض الدرويش والغازية أن أصبح من عروض الريبيرتوار فى الثقافة الجماهيرية (إلى جانب المجاذيب) فقدمه المخرج إميل جرجس بعد ذلك فى قصر ثقافة بنها ، وقدمه آخرون فى بقاع شتى من مصر . وعندما عاد الربيع عاد الأمل ! وكان الأمل يقترن دائماً بالعمل .

كانت عودتى إلى العمل أو 'الإنتاج' - بتعبير الدكتور سيد البحراوى - عودة إلى الحياة! ولم أعد أخشى عودة المرض (أى recurrence) فلقد واجهت الموت مرة وأصبحت أتوقعه فى كل لحظة ، وذكرت ذلك ذات يوم للدكتور شكرى عياد - وكنت أحادثه كثيراً وطويلاً بالتليفون فى كل شئ - فقال لى "الواحد بس عنده كلام عايز يقوله .. لناس ما يستاهلوش !" وقد ذكرته بذلك بعد سنوات فقال لى إنه قالها فى لحظة غضب ، ولكنه يقصد "بفض النظر عن استفادة الناس منه" . وكان ذلك دأبى ولا يزال ، وكنت أجد الجزاء العادل فيمن يتعلم على يدى ويحصل على الدكتوراه فى الشعر الإنجليزى ، ثم فى تخصص دراسات الترجمة التى تعمقت وانتشرت وأصبحت علماً جديداً من العلوم البينية - أى المشتركة بين التخصصات !

وصدر معجم المصطلحات فى يونيو ١٩٩٦ فاحتفل به المجتمع الأدبى ، وكنت قد جمعت المقدمات التى كتبتها للكتب الصادرة فى سلسلة الأدب العربى المعاصر بالانجليزية ونشرتها بعنوان مقدمات فى الأدب العربى Prefaces to Arabic Literature بالاشتراك مع الدكتور ماهر شفيق فريد ، الذى ساهم بترجمات انجليزية لبعض الشعراء العرب من المعاصرين إلى جانب كتاب آخر أبين فيه الوشائج التى تربط بين الترجمة وبين الأدب المقارن وأشرح تفصيلاً كيف يتلقى الدارس العربى للغة الانجليزية مفاهيم تلك اللغة وأدبها ، وبنيت نظرية كاملة تؤكد صحة الإحالة إلى أدب اللغة الأم (اللغة العربية) وأنتهى من ذلك إلى أن كل

ترجمة أدبية تتضمن قدرًا من نشاط الأدب المقارن ، وذلك قبل أن تنشر (سوزان باسنيث) كتابها فى الأدب المقارن - الذى تقول فيه ذلك - بعام كامل . واشترك معى فى الكتاب الجديد الدكتور ماهر شفيق فريد أيضًا إذ أعد ببليوغرافيا كاملة عن ترجمة الأدب العربى إلى الانجليزية وكان اسم الكتاب **The Comparative Tone** .

وفى يوليو ١٩٩٦ قدمت مسرحية سيمفونية لير على مسرح الغد ، ونجح المزج الدقيق بين الدراما والموسيقى والغناء الأوبرالى ، فانتهيت من إعداد الترجمة الجديدة (المنظومة) بمقدمتها وهوامشها ودفعت بها إلى المطبعة . واتصل بى فى أغسطس الدكتور نبيل الزهيرى ، رئيس القسم العربى باللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا (الاسكوا) وكان مقرها المؤقت هو عمان ، بعد أن انتقلت من مقرها الدائم فى بيروت ، وقال إنه يعرض على العمل شهرين لديه ، وكان لابد من اجتياز الاختبار الطبى وإرسال النتيجة إلى نيويورك ، فذهبت إلى كايرو كلينيك (أو مستشفى القاهرة) ومكثت يومًا كاملاً فى تحاليل وكشوف وأشعة ، وكانت النتيجة مُرضيةً والحمد لله ، ولكن الدكتور محمد صادق - رئيس المستشفى - قال لى ”هناك بؤادر مياه بيضاء (cataract) فى العين اليسرى ، وهناك ظواهر خلل فى القلب - ولكنها طفيفة“ وكان يعنى القصور فى الشريان التاجى ، وعلل ذلك بأنه أمر طبيعى لأننى كنت فى أواخر الخمسينيات . ولم أكن أخشى هذا أو ذاك ، بل لم أكن أخشى إلا مرضاً واحداً !

وتأملت نفسى فى أغسطس ١٩٩٦ فوجدتنى أسابق الزمن لنشر كتب جديدة أو إعادة نشر ما نفذت طبعاته ، مثل إعادة نشر فن الكوميديا والأدب وفنونه ، بل والنقد التحليلى الذى كانت تعاد طباعته منذ عام ١٩٦٣ ! ولكن أهم إنجاز لى كان العودة إلى الكلام ! صحيح أن مخارج ألفاظى أصبحت معيبة ، ولكن المتعلمين يفهموننى ، وغير المتعلمين يجهدون أنفسهم فى فهمى ، فاقترضت على التدريس للدراسات العليا ، والإشراف على الرسائل الجامعية ومناقشتها ، فأعددت ما اعتبره جيلاً جديداً من الدارسين المتخصصين .



فى أكتوبر ١٩٩٦ اتصل بى الدكتور طه وادى وقال لى إن الدكتور شوقى ضيف يبحث عنك لأن مجمع اللغة العربية قرر أن تنضم إليه خبيراً بلجنة اللغة والأدب ! وكدت أطيّر فرحاً ،

فالمجمع حلم كل دارس للأدب ، والانضمام إليه بأى صفة شهادة على استواء اللغة العربية ، وكان معجم المصطلحات هو أهم بند فى 'أوراق اعتمادى' بالمجمع ، وإن كان أحد الدراعمة قد اعترض على اختياري - حسبما أخبرنى طه وادى - وهكذا أقبلت على حضور جلسات اللجنة ، وقال لى الدكتور بدوى طبانة فى أول جلسة إننى زكيت ترشيحك عضواً فى المجمع، وأيده الدكتور محمود على مكي .

ولكن كان علىّ أن أزور عمان لأول مرة فى نوفمبر ، وأنا لا أستطيع بسبب ارتباطاتى فى مصر أن أغيب عنها أكثر من خمسة أسابيع ، وعندما عدت فى أوائل ديسمبر ، موعد التجديد لرئاستى للقسم ، لاحظت جَوْاً غريباً ، وقد عرفتُ فيما بعد أن بعض الزملاء تقدموا بشكاوى من إدارتى للقسم . ولم يأخذ العميد بشكاواهم وأصدر الدكتور مفيد شهاب ، رئيس الجامعة قراره بتجديد رئاستى ، وعندما قابلنى هاشاً باشاً قال لى "كنا منتظرين رجوعك".

وتبين لى بعد ذلك أنهم يشيعون عنى كلما سافرت أننى مريض وأن النهاية وشيكة ، ولم يكن ذلك مقصوراً على الجامعة ، بل كان يتعداها إلى الوسط الأدبى ، وكان ذلك الإحساس يحزننى ويدفعنى إلى المزيد من العزلة والإنتاج ، وأصبح شعارى هو هاؤم اقرءوا كتابيه ! وبدأت فى الشتاء أجمع ما كتبتة عن الترجمة الأدبية باللغة العربية ، فوجدت يصلح كتاباً مستقلاً ، سميتة الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق ، وقدمته إلى شركة لونجمان ، وكان كتاب المصطلحات الأدبية قد فاز بجائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ فى النقد الأدبى فى معرض القاهرة الدولى للكتاب (يناير ١٩٩٧) ففرحت شركة لونجمان ، وعندما قابلنا الأستاذ عبد العزيز أبو الليل مدير مكتبة أبو الهول (وهى أيضاً تابعة للأستاذ خليل صايغ) فى حفل موسيقى بدار الأوبرا ، وكان معى الأستاذ المستشار أحمد السودة ، قال إن كتاب المصطلحات قد نفذ ، وإن الطبعة الثانية وشيكة الظهور .

وكان قسم اللغة الانجليزية قد عقد مؤتمره الدولى عن الأدب المقارن ، وهو الذى يعقد مرة كل عامين ، فى ديسمبر ١٩٩٦ ، وشارك العديد من الأساتذة الأجانب والعرب فيه ، وتجمع لدىّ أنا والدكتور ماهر شفيق فريد مجموعة من الدراسات ، كان بعضها قد نشر فقررنا إعادة نشره ، وكان البعض الآخر جديداً ، فضممنا هذا إلى ذاك وأعدنا كتاباً انجليزياً جديداً يضم ترجماتى لأربعين قصيدة تمثل أربعين شاعراً عربياً معاصراً (إلى الانجليزية طبعاً) ونشرت الكتاب باسم **Comparative Moments** فى عام ١٩٩٧ ، ولم

يلبث أن احتل كتابنا هذا مكانه بين كتب الأدب المقارن التي تتناول الأدبين العربى والانجليزى ومناهج الدراسة المقارنة .

كان شيطان الشعر يعتادنى فلا يلقى ترحيباً صادقاً ، فالقصيدة حين تلح على الذهن تطرد كل ما يزاحمها ، وتقتطع الكثير من وقت القراءة ومن وقت الترجمة وكتابة المسرح ، وكنت أحيل هذا الشيطان حين يزورنى إلى نصوص أدبية - عربية أو أجنبية - فبعد أن استعنت به فى ترجمة الملك لير أحلته إلى دواوين المعاصرين فترجمت ثلاثة دواوين هى ألف وجه للقمر لفاروق جويده ، وأغصان الليل عليك لمحمد الفيتورى ، ووقت لاقتناص الوقت لفاروق شوشة ، وصدرت جميعها تباعاً فى ذلك العام ، ولكن الشيطان كان لحوحاً أكثر مما ينبغى آنذاك ، فدفعنى إلى نشر مجموعة شعرية بعنوان أصدا الصمت جمعت فيها شذرات مما كتبته قديماً وحديثاً ، كان أهمها قصيدة 'القصّة' التى تصور حالى بعد تشويه وجهى بسبب المرض اللعين .

وكنت أقضى الربيع من كل عام منذ أن بدأت مكتبة الأسرة فى قراءة شعر المعاصرين من أبناء القرن العشرين ، وكانت قراءاتى مكثفة كأنها قراءة من يستعد للامتحان ، ولم أكن أبخل على هذه الدواوين بالمال ، فاكترت مكتبتى وأصبحت تضم المعاصرين إلى جانب ما ورثته من والدى رحمه الله من دواوين القدماء ، وعادت لى لذّة العربية التراثية فكنت ولا أزال أطرب للألفاظ طرباً لا يقل عن تذوقى للصور و'المعانى' ، وبدا أن الهوة التى كانت شاسعة بين القديم والجديد قد تقلصت ، أو قل كانت آخذة فى التقلص فبدأت أحس بالجسور أو بحلقات الوصل التى تربط القديم بالجديد ، وكانت الساعة التى أقضيها فى لجنة الأدب واللغة بمجمع اللغة العربية درساً أسبوعياً أحرص عليه ، واكتشفت فى غضون ذلك كله أن اللغة ملكة واحدة (أو قوة واحدة بتعبير الجاحظ) وأن من يتمتع بهذه الملكة وينمّيها تستوى لديه لغات الأرض ، فكأننى آمنت بتشومسكى بعد طول تردد ، وتأكد لى ما كنت أحسه فطرياً من أن الذى يجيد لغته الأم إجادة إبداعية (أى من يكتبها باليسر الذى يقرؤها ويتكلمها به) لا بد أن يجيد أى لغة أخرى يتعلمها ، وهذا ما أثبتته جيل آبائنا من كُتّاب القرن العشرين ، وجيل أساتذتنا فى القرن نفسه ، والكثيرون من أبناء جيلنا الحالى ، ويكفى أن ألمح إلى أفراد من هذه الأجيال الثلاثة المتعاقبة للدلالة على صحة ما أقول ، يكفى أن أذكر طه حسين وهيكمل والحكيم ، والعقاد والمازنى وشكرى (من اللاتينيين والسكسونيين على الترتيب) من الجيل

الأول ، وزكى نجيب محمود ولويس عوض ومحمد مندور وشكرى عياد ومجدى وهبة ، (وأنا أقتصر على الراحلين) من الجيل الثانى ، وأما الجيل الحالى فسوف أكتفى من أساتذة العربية بجابر عصفور ومن أساتذة الانجليزية بـماهر شفيق فريد . ولا شك أن القائمة طويلة ، والحصر محال ، ولكن ما أقل الذين يعرفون نصاعة أسلوب شكرى عياد بالانجليزية ! وأنا أتكلم فقط عن من أعرفهم ومن قرأت لهم ، ولكننى أعرف الكثيرين من أبناء دار العلوم الذين يثبتون صدق دعواى ، وإن اختلفت اللغة الأجنبية عن اللغة التى درستُها ، فقد تكون الفرنسية أو الإسبانية ، ولذلك قررت فى ذلك العام - ووافقتنى مجلس الكلية على قرارى - بألا نقبل فى قسم اللغة الانجليزية إلا من يحصل على تقدير 'جيد' على الأقل فى اللغة العربية ، ولم أعبأ بشكاوى أولياء أمور الطلاب من هذا 'الظلم' ! لقد خلف لنا آباؤنا منهاجاً ما أحرانا أن نتبعه ، وما زلت أذكر يوم أن توفى شكرى عياد فى ٢٣ يوليو ١٩٩٩ ، وكنت أجلس إلى جوار جابر عصفور ومحمود فهمى حجازى نتقبل فيه العزاء بعد ذلك بيومين ، حين مال على جابر عصفور وقال :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجر

وأظنه نسبه إلى لبيد ، ولم أجهد نفسى بالتحقق من قائله ، فالببيت يعبر تعبيراً صادقاً عما أحسنناه نحن جميعاً تلاميذ شكرى عياد من خواء بفقده .

وكان عام ١٩٩٧ عام تحوّل فى حياتى من ناحية أخرى ، إذ كان إصدار مجلة سطور قد بدأ فى ديسمبر ١٩٩٦ ، وكانت صاحبيتها ورئيسة مجلس إدارتها الدكتورة فاطمة نصر ، ولا تزال، ذات طموحات ثقافية بدت غريبة آنذاك فى الأوساط الأدبية، فهى أصلاً أستاذة للأدب الانجليزى - مثلى - ولكنها قارئة موسوعية تشغلها هموم الثقافة فى الوطن العربى وتشغل نفسها (مع قلة من مثقفى الأمة العربية) بالفكر المعاصر وتجلياته الأدبية والاجتماعية والسياسية ، ويخامرها قلق حقيقى وعميق على المسار المتخبط لثقافتنا بين التيارات العالمية المتلاطمة ، وكانت قد استعانت فى الأعداد الأولى من المجلة بمن تعرفهم من الكتاب والمثقفين، ولكن العمل لم يكن يسير على ما يرام ، فاتصلت بى تليفونيا فى شتاء ١٩٩٧ (والربيع لم تلح بوادره بعد) وعرضت علىّ تولّى رئاسة تحرير المجلة . كنت قد شاركت بالكتابة منذ العدد الأول ، وكان اسمى بين مستشارى التحرير ، وكنا نعقد اجتماعات ذات مستوى رفيع ، فهم نخبة من كبار مثقفى مصر ، ولكن العمل بالصحافة الثقافية كان يقتضى اندماجاً أكبر ،

وكانت لدى مجلة المسرح الشهرية التي تصدرها ولا تزال هيئة الكتاب ، ولكن المجلة المتخصصة تختلف عن المجلة الثقافية العامة . ومع ذلك فلم أتردد في القبول ، ووجدت في المجلة تحقيقاً لحلم التواصل - على مستوى الأمة العربية كلها - مع التيارات الثقافية العالمية المعاصرة .

وفي الصيف عرضت الدكتورة فاطمة نصر على أن أشاركها في ترجمة كتاب سيرة النبي محمد من تأليف كارين آرمسترونج ، الأستاذة البريطانية المتخصصة في تاريخ الأديان، ووافقت دون تردد ، ونظمنا العمل بحيث أترجم الفصول ذات الأرقام الفردية وأن تترجم هي الفصول الأخرى ، ثم نتبادل ما ترجمناه لتبادل النظرات والتعليقات ، واكمل الكتاب في أكتوبر (ولكنه لم ”ينزل“ إلى السوق إلا في ديسمبر) ولم يفطن أحد من النقاد لنظام تقسيم الفصول في الترجمة بل شعروا بأنه نسيج واحد لا اختلاف فيه ، مما شجعنا في عام ١٩٩٨ على ترجمة كتاب آخر لنفس الكاتبة ، وإن كان أضخم وأكثر ثراءً في مادته وهو كتاب القدس : مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، وفي خريف عام ١٩٩٧ قررت هيئة المسرح تكريمي مع عدد من الكتاب والفنانين ، وذلك بمنحى شهادة تقديرية أعزبها وأفخر .

وكنت في غمار انشغالي بالقراءة المتعمقة في التراث العربي ، وما اقتضته مكتبة الأسرة من تقديم مختارات من عيون الأدب العربي إلى القارئ الشاب ، قد نسيت أو تناسيت الكتابة المسرحية ، وكانت المهام الملقة على عاتقي في الجامعة في المقام الأول تتطلب الإلمام بما جاء في علم الترجمة (Translatology) الجديد ، وملاحقة ما يصدر من كتب في هذا التخصص، وقد أحصيت منها نحواً من ثلاثمائة منذ منتصف الثمانينيات ، ولم أكن أقرأ إلا ما تقع عليه يداي ، وهي لا تزيد عن عشرين ، فكانت القراءة هي عملي الأول ، وسرعان ما وجدتني مضطراً إلى تقديم خلاصة بعض ما قرأت عندما بدأ برنامج التعليم المفتوح بجامعة القاهرة في عام ١٩٩٧ ، وكلية الآداب تشارك فيه ببرنامج خاص عن الترجمة الانجليزية . كنت أقرأ عن الترجمة ، وأترجم ، فأرى ضرورة المطابقة بين النظرية والممارسة ، وانتهى الأمر بأن وضعت منهاجاً كاملاً لتعليم الترجمة لدارسي اللغات الأجنبية ، وهو ما يدرّس الآن في القاهرة ، واعتباراً من سبتمبر ٢٠٠١ في عدد من الجامعات السورية أيضاً ، وجميع كتب الترجمة فيه تحمل اسمي .

كنت مؤمناً ولا أزال بأن مهمة أقسام اللغات الأجنبية هي إفادة أبناء العربية بما يطلع الدارسون عليه وما يتخصصون فيه من فكر وفن (ولغة بطبيعة الحال) لا تخريج باحثين في اللغات الأجنبية متفرغين لها لمنافسة أبنائها ، فذلك مطلب عسير المنال يقتضى الحياة في البلدان الأجنبية والاندماج التام في ثقافتها وتقبل أبنائها للدارس الأجنبي إلى حد اعتباره من أهلها ، والنماذج القليلة القائمة تؤكد ما أذهب إليه . ولهذا حاولت في فترة رئاستي الثانية لقسم اللغة الانجليزية إقامة الجسور مع اللغة القومية والفكر القومي ، وحاولت التركيز على الترجمة والأدب المقارن ، وهو ما لم يكن يلقي القبول من بعض أعضاء مجلس القسم الذين لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى بالدرجة الكافية ، وكان بعضهم لم يصل إلى ما وصل إليه من مركز علمي مرموق إلا بفضل الإحاطة باللغة الانجليزية وحدها ، ولكنني كنت أرى أن اللغة الأجنبية جناح واحد ، والطير لا يحلق إلا بجناحين ، فإذا انحصر دور أقسام هذه اللغات في تعليم اللغة أصبحت أقرب إلى مراكز اللغات أو معاهد تعليم اللغة منها إلى الأقسام العلمية في الجامعات .

وكان من حسنات الدكتورة هدى جندى - زميلتي وصديقتي التي سبقتنى في رئاسة القسم - أنها أرست تقليد عقد مؤتمر الأدب المقارن مرة كل عامين ، وكان المؤتمر - كما سبق أن ذكرت - ذا طابع دولي يؤكد وظيفة قسم اللغة الانجليزية باعتباره جسراً يربط بين مصر والعالم ، وبين الأدبين العربى والانجليزى ، وكان من حسناتها بل ومن أياديها البيضاء أن أحييت المجلة العلمية المتخصصة في الأدب الانجليزى التي كان الدكتور مجدى وهبة قد أنشأها في الخمسينيات بعد تمصير القسم وخروج الانجليز عام ١٩٥١ ، وكان ينفق عليها من ماله الخاص. وكان أن وجدتُ القسم ، من ناحية ما يسمى بالآليات ، مستعداً للسير في الطريق الذى تصورته، على الرغم من معارضة البعض ، كما ذكرت ، وكانت مشكلة العثور على أساتذة للترجمة يعرفون اللغتين معرفة تؤهلهم لتدريسها مشكلة كبيرة ، خصوصاً بعد استئراء ما يسمى 'باللغويات' ، وهى العلم الذى يدرس طبيعة اللغة ووظائفها وأشكالها تطبيقاً على العامية المصرية . ولم يكن مما يدعو للخجل (بل أحياناً مما يدعو للفخر) أن يقول عضو هيئة التدريس المصرى فى الجامعة "أنا ضعيف فى العربية" والمقصود هو الفصحى ، وأما من يحبها ويكتب بها مثلى ومثل ماهر شفيق فريد ، فقد يوصف بأنه 'بلدى'

- خصوصاً وأن معظم (بل الغالبية العظمى) من أعضاء هيئة التدريس كانوا وما زالوا من الإناث اللاتي تعلمن تعليمًا أجنبيًا .

وأعتبر أنتى نجحت فى مسعى منذ عودتى حين بَعَثْتُ حب العربية والانشغال بقضايا الأدب والفكر العربى فى جيل كامل من أعضاء قسمنا الذين وصلوا إلى مرحلة النضج ، على اختلاف اهتماماتهم الأكاديمية . وقد يكون من المفيد أن أذكر أسماء عدد من تلاميذى الذين يؤمنون بما أومن به ، ممن أصبحوا أعضاء فى هيئة التدريس بالكلية ، وقد رتبته ترتيباً أبجدياً: أحمد هانى عبد الحكيم الشامى ، أميمة أبو بكر ، راندا خلف ، سحر الموجى ، شيرين أبو النجا ، لبنى عبد التواب يوسف ، محمد عبد السلام ، محمد عبد العاطى ، منى إبراهيم ، مها السعيد ، هدى الصدة ، وهم جميعاً - على اختلاف سنوات تخرجهم وتعيينهم - ممن تخصصوا فى الشعر ، وأشرفت على رسائل معظمهم ، إلى جانب من أعدوا رسائلهم فى الترجمة مثل هدى شكرى عياد ، وأميمة خليفة ، ونجلاء رشدى ، وقد أشرفت على الأخيرتين، وإلى جانب من يدرسون الآن للدكتوراه فى الترجمة تحت إشرافى مثل هبة عارف وخالد توفيق، ومن هم على وشك ذلك بعد الحصول على الماجستير فى الترجمة مثل علياء الجندى ، كما أشرفت على رسالتى الدكتور صلاح شبكة والدكتور سعيد العليمى فى الترجمة وهما من جامعة طنطا .

وكنت إبان رئاستى للقسم أشجع خريجي المدارس المصرية ، وأقصد بها المدارس العادية لا ما يسمى بمدارس اللغات أو المدارس الأجنبية ، على الالتحاق بقسم اللغة الانجليزية ، وخصوصاً من الذكور ، إذ إن الاتجاه إلى غلبة الإناث على أقسام اللغات ليس - لأسباب اجتماعية محضة - فى صالح هذه الأقسام ، فقد تكون الأنثى أذكى وأعلم وأنشط من الذكر ولكن أولويات الحياة الأسرية قد تفرض عليها ما يقلل من نشاطها الأكاديمى ، ناهيك بالنشاط الثقافى ، كأن ترافق زوجها فى الخارج ، أو تتفرغ للوضع وإنجاب الأطفال ، وما إلى ذلك بسبيل ، وكنت أتمنى تحقيق المساواة بين الجنسين فى قسمنا على الأقل ، وبذلت فى ذلك جهداً لا بأس به فازداد عدد الذكور نسبياً بين الشباب ، وإن كانوا ما زالوا أقلية ضئيلة فى القسم .

وكان من المنفصات المعتادة لرئيس القسم إيمان الطلاب الذى يستمدونه من المجتمع بالوساطة والرأفة والتساهل ، فأما الوساطة فكانت الكلمة التى تتردد عند بدء القبول

بالقسم، فالطالب يسمع من أبيه أنه إذا كان يعرف أحد "المهمّين" فى الدولة فسوف يساعده على خرق القانون والالتحاق بالقسم بصفة استثنائية ، وكان أولياء الأمور يزوروننى فى المكتب طلباً للاستثناء ، وعبثاً أحاول أن أشرح لهم صعوبة ذلك ، فالإلحاح من سمات المجتمع الجديد، استناداً إلى إيمان عميق بإمكان خرق القانون ، وكنت حين ينفذ صبرى أحيل الأمر إلى الوكيل، وحين ينفذ صبره يحيله إلى العميد !

وأما الرأفة فقد كانت تتخذ صوراً غريبة . جاءتني امرأة يوماً ما ، كان يبدو عليها الإجهاد وضيق الحال ، وقصت علىّ قصة طويلة مؤسفة مبكية ، وتذرعتُ بكل ما لدى من صبر حتى انتهت ، وبناءً على ذلك طلبت السماح بقبول ابنها (استثناء) فى القسم . وعندما قلت لها إنه حاصل على ٥٥ ٪ فى اللغة الانجليزية (بعد عامين فى الثانوية العامة) ونحن نطلب ٩٠ ٪ ، فأين هذا من ذاك ، قالت والدموع فى عينيها ، ونحن على باب الغرفة : "بقى أنا جيت لك بنفسى .. وخرجت من بيتنا وقصدتك .. تقوم تقول لى كده ؟" .

وكان طلب الرأفة يتبدى أيضاً عند إعلان النتائج ، فإذا رسب طالب فى أربع مواد (من عشر مواد هى مجموع ما يدرس) جاء ليقول لك إننى أحتاج إلى درجة واحدة حتى أنجح ! فإذا سألته كيف ؟ قال لك إنه لو نجح (دون وجه حق) فى إحدى المواد الأربعة ، فسوف يتمتع بدرجات الرأفة فى مادة أخرى ، وينتقل إلى السنة التالية بمادتين (تخلف) . وعبثاً تحاول إقناعه بأنه راسب فى أربع مواد ، وعادة ما تكون تلك من مواد التخصص ، ومعنى ذلك أنه ضعيف فى اللغة ، وعليه أن يبذل مجهوداً أكبر !

كانت هذه المشاغل التعليمية هى الضريبة التى دفعْتُها راضياً مقابل تحقيق غاية أنشدها للجيل الجديد، وكان علىّ أن أعيد تنظيم وقتى منذ أن توليت رئاسة القسم حتى أتمكن من تحمل تلك المشاغل دون أن تؤثر فى نشاطى اليومى ، فكنت ولا أزال أنهض قبل شروق الشمس، وأعمل حتى الضحى فى غرفة مكتبى ، ثم أذهب إلى الكلية حتى بُعيد الظهر، وأعود للغداء والقيلولة، ثم أنهض للعمل فى المساء إلى ما شاء الله . فإذا كان علىّ أن أذهب إلى المجلة ذهبت قبل الجامعة ، وكذلك إلى هيئة الكتاب أو غير ذلك من 'المشاوير' . وأما المساء فلا أضيّعه فى ندوة أو حفلة ، إذ تعلمت من مواجهة الموت أنه لن يبقى من الإنسان إلا عمله، وهو فى حالتي كتابٌ أفيد به الجيل الجديد ، أو من يرى فيه فائدة من غير الجيل الجديد، وكلام أوجّه به من يحتاج إلى توجيه، وعلمٌ أكتسبه حتى لا يُبعث الإنسان حماراً يوم القيامة -

كما يقول سمير سرحان! وهكذا كان المرض الذى أفسد مخارج ألفاظى نعمة فى ثوب نعمة، فالكتابة تغنى عن الكلام، ولكم تكلمت فى شبابى فأطلت فما أغنى ذلك أحداً! وكنت لا أزال أراود المسرح ويراودنى، وأكاد أنتظر ما يرغمنى على كتابته إرغاماً. ولو أن عام ١٩٩٨ قد شهد تقديم مسرحيتى السجين والسجان فى مسرح الطليعة، مع مسرحية الوافد لسمير سرحان فى عرض واحد باسم وجهها لوجه من إخراج جمال منصور، حظى بترحيب النقاد.



كثيراً ما يقال إن القصيدة تكتب نفسها حين يجد الشاعر الأبيات تنتظم فى خاطره انتظاماً قد يدهش له هو نفسه ، وأحياناً ما يقال إن الرواية أو المسرحية تفرض نفسها فرضاً على الكاتب حين يجد أن أحداث الحياة قد تشكلت أمامه ولم يعد عليه سوى التكثيف والصياغة اللغوية ، وذلك هو ما حدث لى فى أواخر يونيو عام ١٩٩٨ ، وكان يوم الجمعة ، وأنا فى طريقى إلى مقابلة صديقى المستشار أحمد السودة ، للحصول منه على نسخة من رسائل الجاحظ .

كانت الشمس قد غربت ، وأصداء أذان المغرب ما تزال ترن فى المدينة الساكنة ، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة (بالتوقيت الصيفى) حين انطلقت بالسيارة المرسيديس القديمة (التي كنت اشتريتها مستعملة) وأنا أُمْنى النفس بسهرة مع الجاحظ فأنا من عشاقه وطلّابه فى كل حين ، وسلكتُ الطريق الخلفى من مدينة المهندسين ماراً من شارع شهاب الذى ينحني على شكل هلال فيصب فى شارع وادى النيل ، أمام قرية ميت عقبة ، وهى قرية ما زالت تحمل كل سمات القرية الريفية وتجاور منطقة المهندسين الحديثة مجاورة تمثل مفارقة عمرانية عجيبة . وفى مفترق إحدى الطرق الصغيرة التى تعترض شارع شهاب ، حيث يتسرب الأطفال وسكان القرية إلى الشارع الرئيسى ، أوقفت السيارة أو خفضت سرعتها ترقباً للمفاجآت ، وكانت على يمينى ثلاثة من الأطفال الذين يرتدون ملابس رثة ، وتتراوح أعمارهم بين الرابعة والسابعة ، يحاولون عبور الطريق ، فتوقفوا حين توقفت أو كدت ، واطمأن قلبى

إلى توقفهم فعدت للمسير ، وفى تلك اللحظة نفسها اندفعت صغراهم بأقصى سرعة أمام السيارة فَدُسَّتْ بكل قوتى على الفرملة (الكابحة) فتوقفت السيارة ولكنها صدمت الطفلة فوقعت على الأرض واصطدمت بالرصيف .

وخرَجْتُ من السيارة وأنا أولول فى أعماقى ، فها أنذا أحكم على نفسى بالضيق بسبب نزق طفلة لا تعى ما تفعل ، وكان همىّ الأول إنقاذها فأهرعت إليها أحملها بين يدي فوجدت دمًا فى فمها فانخلع قلبى ، وقلت فى نفسى من المحال أن تكون الصدمة الطفيفة قد قتلتها ! ولكنها كانت ساكنة سكونا كاملاً ، دافئة ولكن لا حراك بها ، وعدتُ بها بين يديّ إلى السيارة ، وقبل أن أدخلها تجمع حشدٌ لا أدري من أين أتى ، وبدأت طفلة فى نحو العاشرة تصرخ وتولول صراخ النواح على الموتى ('تصوّت ') وبرز من الحشد رجل قدم نفسه على أنه 'محمد' كاتب محام معروف ، وتطوع بحملها نيابة عني والذهاب بها إلى المستشفى (مستشفى إمبابة) .

وجاء الطبيب النبطشى (النوبتجى) ففحصها ، وأعطاه حقنة فتقيأت ثم بدأت تبكى، وقال لى إن الدم فى فمها نتيجة كسر إحدى أسنانها عندما اصطدمت بالرصيف، وطمأننى، ولكنه قال إنها لابد أن تقضى الليلة فى المستشفى حتى يتأكد الأطباء من عدم حدوث ارتجاج فى المخ. وهدأت أعصابى، فهى حية على الأقل، وكانت ضئيلة الجرم نحيلة، تلبس جلباباً ممزقاً بالغ القذارة، وتعلو جسمها بقع الطين أو التراب، فقلت له أفلا يجب أن تفتسل قبل وضعها فى الفراش فابتسم ابتسامة مقتضبة، وقال إنهم سوف يفعلون ذلك بعد أن تفيق تماماً.

ولم تمض دقائق حتى سمعت فى الطابق الأرضى (وكنا فى الطابق الأول حيث وضعت الطفلة فى السرير) صراخاً وعويلأً يصمُّ الآذان ، ولم أكن أتصور أن له علاقة بالحادثة ، ولكن سرعان ما اقترب الصراخ ، وكان يصدر من مجموعة من النساء تقودهن امرأة فى ريعان الصبا، مكنتزة الجسم ، تلبس جلباباً وطرحه سقطت من رأسها على كتفيها ، وهى تقول "بنتى ! بنتى ! أشوف مرهت ! مرهت يا حبيبتي ! " والنساء من خلفها يبكين ويولولن ، فطمأنها الطبيب إلى أن ابنتها بخير ، ولكنها قالت "لا ! بنتى ماتت ! يا حسرة قلبك على مرهت يا ختى ! " وقالت لها ممرضة عابسة "بسّ يا ولية عيب ! الدكتور قال إنها بخير ! " ولكن الحشد واصل الولولة ، فهبطت إلى الطابق الأول للانتهاء من المحضر الرسمى عند أمين الشرطة .

وعند أسفل السلم وجدتُ الرجال يتوافدون ، وكان من بينهم 'مكاوى' والد 'مرهت' ، وكان يعرج فى مشيته ، ولا يزيد طوله عن ١٦٠ سنتيمتراً ، ويرتدى جلباباً أبيض ، ويبدو فى منتصف الثلاثينيات ، وكان يبرز من وسط الحشد رجل طويل فارغ الطول ، بشرته داكنة وله شارب كث ، وكان يرتدى جلباباً فضفاضاً ويمسك فى يده هراوة غليظة ، ويقول إنه خال 'مرهت' ، ويبحث عن الفاعل حتى ينتقم منه ، وأسرعت بالدخول إلى غرفة أمين الشرطة ، ولا أنكر أن الخوف قد تلاعب بى ، فقد يضربنى أحدهم بالنبوت فتضيع أحلام قراءة الجاحظ ويضيع غيرها من الأحلام !

وبدا أمين الشرطة بملء البيانات بعد أن أعطيته رخصة القيادة وكل ما طلب من أوراق وبيانات ، ثم سأل الوالد عن سن ابنته فقال إنها فى الرابعة ، ثم سأل عن عدد أطفاله فتردد وتلعثم ونظر حائراً إلى زوجته ، فأجابت هى بعد تفكير "خمسيتين !" وسألها أمين الشرطة "يعنى عشرة ؟" فقالت "خمس وخمسة !" وضحك الرجل ضحكة تفهم لأنه أدرك أنها تخشى الحسد ، ثم سألها : ماذا كانت ابنتك تفعل خارج البيت ؟ فقالت كانت تصلى الجمعة ! وبعد دقائق بدت لى سنوات طويلة قال مكاوى باسمًا إنه قد اطمأن على ابنته ، ولكن كاتب المحامى الذى كان حاضراً لكزه مومناً إليه بأن يسكت ، ثم قال : لا .. المسألة لم تنته بعد ! لابد من إحالة المحضر إلى النيابة ! وقال أمين الشرطة : الصلح خير يا أستاذ ! فوجدتُ كاتب المحامى ينهض ويصيح : "هى أزواج الناس لعبة !؟ الراجل غلبان وموش لاقى ياكل !" فإذا بمكاوى يصيح كأنما يرجع صده "يا بيه أنا خالى شغل من مدة ! والولية دى .." وأشار إلى زوجته التى نهزته قائلة "أسكت انت .. انت حمار !"

وتكهرب الجو ، فعاد كاتب المحامى يقول : ممكن تسبب لى أنا الموضوع ده .. أنا حاتولاه .. وقال أمين الشرطة "طيب .. نقفل المحضر بالصلح" فأردف كاتب المحامى قائلاً "والأستاذ حيرضى الجماعة .. دول غلابة ! دول موش لاقين اللضى !"

وبدا الرضى على وجوه الجميع لسماع كلمة "يرضى" ، وتصورتُ أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد ، فنهضت ونهض الجميع ، واستعدت الرخصة والبطاقة ، وخرجنا ، وأنا أحاول تهدئة الوالدين الثائرين ، واتفقتُ مع كاتب المحامى على أن يتجه إلى المكتب حيث يتم 'الإرضاء' ! ولكننى فوجئت عند باب الخروج بحشد من النساء يرتدين الملابس السوداء ، وتساءلت إحداهن فى لهفة "ماتت ؟" وكأنما كانت الأخريات يتجهزن للصراخ فهبين من

مجلسهن على الأرض ، ولكن الوالدين لم يردا ، وقلت أنا لهنّ لا تقلقن .. ”مرهت بخير“ فتساءلت من ظننتها رئيسة الحشد : ما ماتتشي ؟ وكأنها خيبتُ ظنّها ، ظلت تردد كلمات متقطعة عن الأعمار والآجال ، ولكن سيدة ضخمة (كانت تقبع على الأرض كأنها جبل) نهرتها ، وقالت لها : سيدنا رسول الله نهى عن الصُّوات ! فسكت الجميع . وكنت على وشك فتح باب السيارة عندما برز من الظلام (وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة) شخص يصيح : كسّروا العربية ! وسرت المهمة بين الجميع ، وتعلقت أنظارهم بالسيدة ’الجبل‘ فحدستُ أنها هي الرئيسة الحقيقية للحشد ، وأن الصائحة الأولى كانت ’ندّابة‘ وحسب ، وبعد ثوان قالت ’الجبل‘ : ”ربنا بيقول اعتدوا بمثل ما اعتدوا عليكم ! لكن الراجل ما اعتدّاش ! ده غُلط وحيصلّ غلطته ! إياك حد يمد إيدّه ع العربية !“ وتنفستُ الصعداء .

ونهضت الجبل ، وكان اسمها أم ياسين ، بصعوبة ، وإن كانت لم تتجاوز منتصف العمر وفى وجهها آثار ملاحاة قديمة لا تخطئها العين ، ودخلتُ السيارة غير مدعوة ، والجميع يساعدونها ، ودخل إلى جوارها مكاوى (والد مرهت) فى المقعد الخلفى ، وجلس كاتب المحامى إلى جوارى ، واتجهنا إلى المكتب حيث هبط الجميع بسلام ، وقالت أم ياسين لمكاوى قبل أن تفارقنا ”أبقى عدّى علىّ بعدين .. فاهم ؟“ ومضت إلى داخل القرية ، واتجهنا نحن إلى المكتب ، حيث فاوضنى المحامى حول المبلغ المطلوب لإرضاء الأب وتعويضة عما أصاب ابنته ، وكان معى والحمد لله ما يكفى فدفعته له ، ووعدت الاثنين بالمرور على العزيزة مرهت فى الصباح للأطمئنان على صحتها .

وعدت إلى المنزل فلم أجد نهاد ، ولا سارة ، فحدستُ أنهما فى منزل أصهارى فى شبرا فقصصت عليهما فى التليفون ما حدث ، ثم كلمت صديقى المستشار أحمد السودة واعتذرت له عن عدم الحضور وقلت له إن كاتب المحامى يريد أن يحيل المسألة إلى قضية كبرى ، فطمأننى وشرح لى الوضع القانونى ، وظللت حتى ساعة متأخرة من الليل أتمثل أحداث المساء، ظاناً أن علاقتى بالحادث قد انتهت إلى الأبد !

وفى الصباح ذهبت إلى المستشفى ، فرأيت مرهت تشرب عصير برتقال فتفاءلت ، ولكن طبيباً يلبس جهاز سمع فى أذنه قال لى إنه لا يستطيع إخراجها من المستشفى الآن حتى تصبح - على حد تعبيره - ”مائة فى المائة !“ وقابلنى والدها ، وقد زال عنه العرج فسألته عن سر العرج المؤقت بالأمس ، فقال إنه يعانى من مرض عصبى يصيبه بالعرج حين ’يتوتر‘ ، ولكن العرج يزول بزوال التوتر ! وقال لى إن كاتب المحامى تقاسم معه مبلغ الترضية ، وإنه

ينتوى طلب المزيد ، بل وحضه على عدم إخراج ابنته من المستشفى حتى يرى ما يمكن عمله . وقال له بالحرف الواحد ”كبر مخك واسمع كلامى .. وأهو خير لىّ ولك لـ“ وسألته إن كان قد وافقه على ذلك فقال إنه يعمل نجارًا (نجار مسلّح) وإن حركة البناء ليست مزدهرة ، وكلما حصل على عمل وبدأ ممارسته اعتاده التوتر والعرج فطرده المكاول لـ ورجانى أن أبحث له عن عمل عند مكاول ”يعرف ربنا“ ولا يفصله بسبب عرجه ، فوعده خيرًا وتركته وانصرف .

وعندما ذهبت إلى الكلية قصصت القصة بتفاصيلها للمرة الثالثة على الدكتور سلى كامل فقالت لى إن القانون لا يسألك إذا كان الطفل يقل سنه عن سبع سنين ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بأذى ، ودخلت الغرفة الدكتور معها فتحي السعيد ، تلميذتى العزيزة ، فلخصت لها القصة من جديد فقالت إن للأسرة صديقاً يعمل ’رئيس أطباء‘ فى تلك المستشفى ، وإنها سوف تسأله أن يخبرها بحقيقة الحالة فى بداية ’وارديته‘ فى الثانية ظهرًا . وفى الثالثة رن جرس التليفون وقالت لى لها إن الطبيب قال إن مرهت قد تماثلت تمامًا للشفاء ، وإنه صرح بخروجها ، ولكن الطبيب رجاء استبقاءها يومًا آخر بناء على توصلات الأسرة وكاتب المحامى! وفرحت بشفاء الطفلة وتأكدت من النجاة ، وقررت تجاهل كاتب المحامى ، وعندما عدت فى المساء وجدت رسالة مسجلة على جهاز تسجيل المكالمات التليفونية يقول فيها ذلك الكاتب إنه يستطيع ”تحريك القضية والأفضل لى أن أمر عليه حسب الاتفاق لـ“

وفضلت ألا أمرّ عليه حتى تخرج مرهت من المستشفى ، فذهبت فى الصباح ، وانتظرت حتى خرجت ماشية تريد أن تجرى وتلعب ، وودعت أباهما ، وطلبت منه أن يمرّ علىّ حتى أجييه إلى مطلبه ، وافترقنا ، ثم ذهبت إلى كاتب المحامى ، ولم يكن موجودًا بالمكتب ، فسألت عنه فقيل له إنه فى المحكمة - وسألنى كاتب آخر عما أريد فقلت إننى أريد مقابلة المحامى - وكان موجودًا - ففتح لى الباب ودخلت وسلّمت ، وقصصت عليه القصة فضحك وسألنى عن المبلغ الذى دفعته فلم أشأ أن أفصح فبدأ عليه الحزن وقال إن تلك آفة من آفات المهنة ، وطلب منى أن أنسى الموضوع وخرجت .

وبعد نحو أسبوع مر علىّ ’مكاوى‘ وقال إن أم ياسين تريد أن تقابلنى ، فقلت له إننى سوف أبلغ الشرطة إذا لجأ إلى الابتزاز ، وإننى لن أدفع له أو لها أى مليم بعد الآن ، وكنت حاد اللهجة بعد أن استشرت الجميع وتبين لى أن الرقة أحيانًا (فى غير موضعها - كما يقول المتنبى -) مضرة فتراجع عن مطلبه ومضى لحال سبيله .

وانتهى الصيف وكدت أنسى الحادثة ، حتى جاء يوم تعطلت فيه السيارة بسبب نفاد الهواء من إحدى عجلاتها أمام القرية . فنزلت وطلبت من أصحاب محل 'عجلاتي' هناك تغيير الإطار وإصلاح الإطار القديم ، وكنا فى نحو العاشرة صباحاً ، ووقفت أنتظر الانتهاء من 'المهمة' ، حين وجدتني وجهاً لوجه أمام 'أم ياسين' ووجدت ترحاباً لم أتوقعه وجوّاً من المودة والألفة يتناقض كل التناقض مع ما شهدته فى المستشفى منذ شهور ! وأصرت أم ياسين على أن أشرب الشاي ، وقبل أن أعترض كان الشاي قد حضر ، ووُضع كرسيان فى مدخل الحارة ، ولم أجد بداً من شرب الشاي ، وانطلقت أم ياسين تتكلم ، وكان حديثها زاخراً بالقصص المسلية ، والاقتباسات الحافلة بالأخطاء النحوية من الأحاديث النبوية (والآيات القرآنية أحياناً) وبعد ساعة تقريباً تمكنتُ من الرحيل ، وكان على أن أسجل فى مفكرتى بعض ما قصّته علىّ ، وما أصبح مادة لمسرحيتى التالية كيلو بودرة !

وكان من عادة أم ياسين أن تجلس فى صباح كل يوم ، مهما تكن حالة الطقس ، أمام منزلها داخل الحارة ، وأن تخرج إلى بعض محلات ميكانيكية السيارات ، والسمكرية ، والعجلاتية ، وتحادث هذا وذاك ، وكنت عندما حادثتها فى أكتوير ذكرت لها الكتب التى ننشرها وكان من بينها موجز سيرة ابن هشام ، فطلبت الكتاب منى ، وكان ذلك بداية لعادتي فى إهدائها سلسلة الكتب الدينية التى تصدرها مكتبة الأسرة والاستماع إلى قصصها ، واستمرت هذه العادة حتى وقت قريب ، حين علمت أنها سافرت إلى بلد عربى شقيق يعمل فيه أحد أبنائها ، وإن كنت لا أدري هل هو ياسين أم سواه ، فتوقفت عن زيارة القرية ، وإن كانت قصص أم 'ياسين' ، والألفاظ التى استخدمتها فى روايتها لا تزال تمثل رصيذاً حافلاً من المادة الإنسانية الحقيقية !



'المادة الإنسانية' ؟ تراها ما تكون ؟ إنها المادة الأولية الصادقة التى يستمد منها كل أديب عناصر أدبه ، وهى أولية بمعنى أنها الأصل الذى قد يكون كامل التشكيل ولا يحتاج إلى إعادة تشكيل فى العمل الفنى ، وكانت أم ياسين مادة جاهزة ، فهى امرأة تستطيع القراءة

والكتابة ، فى قرية تتكون فى معظمها من الأميين ، أو ممن تركوا الدراسة لأسباب اجتماعية محضبة ، فالكل يعمل من سن مبكرة ، والكل يؤمن بما تقوله أم ياسين فهى ، بتعبير علماء الاجتماع ، من زعماء المجتمع المحلى ، وهى ذات فكر فردى مستقل يحسدها عليه أقطاب دعاة الفردية فى الغرب .

وتصادف أن أُعلن فوزى بجائزة بن تركى (السعودية) للترجمة الانجليزية ، وكان المحكمون (فى اللجنة التى عقدت جلساتها فى عمان) خليطاً من العرب والأجانب ، لأن النصوص التى قدمتها كانت انجليزية ، فى الوقت الذى توثقت فيه علاقاتى بمحروس كهربائى السيارات ، الذى يعمل فى ورشة مجاورة لمنزل أم ياسين ، فوجدته متلهلاً عندما زرته كأنما علم بفوزى بالجائزة (نوفمبر ١٩٩٨) وأرسل أحد العاملين من الأطفال لديه لاستدعاء 'الرئيسة' ، وكنا فى الصباح الباكر نسبياً ولكنها جاءت على الفور ، وجلسنا نشرب الشاي ، وسرعان ما انتقل الحديث من الجائزة السعودية إلى السعودية نفسها التى أصبحت حلماً لكل المصريين ، ثم انتقل إلى نقد المجتمع الحديث الذى عقد العلاقات الإنسانية بالنظم المدنية ، وأنا أترجم أقاصيص أم ياسين هنا إلى لغة 'المثقفين' ، أى إننى أخلص الفكر الكامن فى تلك الأقاصيص وأشرحه ، فهو الفكر الجديد الذى ساد ، وأصبح يمثل قوة لا يستهان بها فى مجتمعنا .

كانت أم ياسين تؤمن تماماً بالحرية ، وهى الحرية التى يتيحها - كما تقول - شرع الله الذى يأمرنا بالزواج فى سن مبكرة ، لأن تأخير الزواج معناه إهدار الطاقة البشرية ، وكبت لقوى الإنسان الإبداعية ، ولذلك فإن الزواج عندها واجب يتمتع بالأولوية القصوى ، فهو تحقيق لذات الأنثى فى الأمومة وللرجل فى 'المتعة' ، وأما العمل فالكل يعمل منذ الصغر ، وعمل المنزل لا يقل أهمية عن عمل الدكان أو الورشة أو التجارة ، وأما المساواة التى يتحدثون عنها فهى - فى نظرها - مفارقة من مفارقات العصر الحديث ، فما دمنا نتحدث عن اختلاف الجنسين ونُقَرُّ بتفاوتهما فمن العبث أن نلغى أو نعارض 'خلقة ربنا' فنعطى عمل هذا لتلك ، وعمل تلك لهذا ، فالجنسان يعملان وهما يكملان بعضهما بعضاً .

كنت أحس أننى أستمع إلى حجج سلفية تخطاها المجتمع الحديث ، ولكن ما أورده هنا هو ملخص مجرد ، تجرد من الحقائق الواقعية فى قصصها ، وهو لذلك غير جذاب ، أما

حين يكتسى تلك الحقائق - على نحو ما يحدث فى قصة محسن (ابنها) وزبيدة زوجته ، فإن الأفكار فيه تكتسى طرافة وسحرًا . قالت أم ياسين :

”الناس يختلف بعضها عن بعض ، وفحولة الرجال تتفاوت ، فإذا كانت زائدة عند البعض ، كما هى عند ‘محسن’ ابنى الثانى ، كان لابد له من زوجة ثانية ، وهو سروجى سيارات ”كسيب“ ، والحديث يقول ’الكاسب حبيب الرحمن‘ ، ولذلك أحسست بأن ’زبيدة‘ مرهقة ، فاخترت له زوجة ثانية ، وسرعان ما نشأت الصداقة بين الزوجتين ، حتى لكان زبيدة أخت هدى ! وقد أنجب منهما ذرية صالحة ، وهم يعيشون جميعاً تحت سقف واحد ، فإذا سافر إلى ليبيا مثلاً أخذهما معاً ، فهو يحبهما حباً جمّاً ، ولا يستطيع البعد عنهما يوماً واحداً ! وسوف أريك محسن ولك أن تسأله بنفسك ! أما الفيرة فهى تنشأ من حب الامتلاك ، أو مد النظر إلى ’ما متعنا به أزواج غيرك‘ - كما يقول ربنا - وهذا حرام ! والأبناء من الزوجتين كالأشقاء تماماً ، فهم يتركون المدرسة فى سن الثانية عشرة ، ويبداون العمل ، وإن هى إلا سنوات حتى يصلوا إلى سن الزواج !“

وتذكرت ما تقوله الأمم المتحدة عن عمالة الأطفال وتحريمها بل وتجريمها ، ولكننى كنت أطلع على عالم قديم يعيش حياً نابضاً ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ، وذكرت قصص حسن المخرج ، وبدأت أناقش ما درجت عليه من أفكار ، وذات يوم فى ديسمبر جلست أستمع إلى أم ياسين من جديد ، وكان رمضان على الأبواب ، وكانت القرية تستعد له ، وكان بعض العمال يجلسون ومعهم أدواتهم (أدوات النجارة) عند تقاطع شارع وادى النيل مع شارع ٢٦ يوليو فى انتظار مقاولى الأنفار الذين يصطحبونهم إلى العمل باليومية ، وهم من كان جمال عبد الناصر يشغل نفسه بهم فى الزمن الغابر (عمال التراحيل) وكانت سيارتى تتطلب عملاً كثيراً ، فجلست ومعى ’هدية رمضان‘ لها ، وكنت أعتزم السفر إلى الولايات المتحدة فى الشتاء وفى الربيع ، ولم أشأ أن أترك سيارتى عاطلة ، فجلست جلسة أخرى سمعت فيها قصة محمود .

كان محمود من أبناء القرية وكان نابهاً متفوقاً فى دراسته فتخرج فى كلية الطب بعد سنوات من تعاون أهل القرية فى تحمل نفقات تعليمه ، ولم يشأ أن يعمل فى الحكومة بل أنشأ لنفسه ’عيادة‘ تولى تجهيزها من دخله الخاص بأحدث المعدات ، وكان مخلصاً لمن ساعده وأزروه طيلة أيام ’كفاحه‘ فلم يكن يتقاضى أجراً عن علاج أيهم ، بل إنه رد لهم ما أنفقوه

أضعافاً مضاعفة . ولع نجمه وبدأ الجمهور يتزاحم على عيادته ، فهو أمهر طبيب أطفال فى المنطقة ، وكثيراً ما كان يسافر إلى الاسكندرية للحديث مع بعض الأساتذة هناك ، فهم - فى زعمه - أمهر من أساتذة القاهرة ، ولكنه فى خضم النجاح اكتسب عادات الطبقة الوسطى وأراد الزواج من فتاة مثقفة (ألفرانكة) وكانت فى ذلك - كما تقول أم ياسين - سقطته ! فسرعان ما أدركت إحدى المترددات على عيادته أنه يديم النظر إلى ابنتها التى وصفته بأنها 'دبلوماسية' المظهر ، أى تلبس الملابس الإفرنجية وتضع منظاراً على عينيها ، وتتكلم لغة تختلط فيها العبارات العربية بالكلمات الانجليزية ، وفى غشون شهر واحد كان الزواج قد تم، فاشترى لنفسه شقة فى المبنى الذى تقع فيه العيادة ، ودفع مقدماً لصاحبها مبلغ مائة ألف جنيه!

وسهرت القرية كلها فى ليلة الفرح ، وكان الجميع 'فرحين' مستبشرين ، إلا أم ياسين - فهى - كما تقول - لم تكن سعيدة بتلك الزيجة ، وكان قلبها يحدثها بأنها لن تنجح ، وكانت تعرف أن فتاة أخرى من فتيات القرية تريد محموداً "بدليل أنها رفضت الزواج أكثر من مرة" ولم تكن تتحدث إلا عنه ! وقالت أم ياسين إنها تؤمن بالقدر ، "ومن ذا الذى ينكر القدر ؟" وبأن العالم الذى نعيش فيه تتحكم فيه قوى أخرى لا نعرفها ، قد تكون قوى الجن ، وقد تكون قوى أخرى ، ولكن تلك الفتاة التى اتهمها الكثيرون بالبلاهة ، كانت فى الحقيقة 'شيخة' (وفهمت من ذلك ما هو معروف عن 'المجاذيب') وبعد عام كامل طلبت الزوجة 'الدبلوماسية' الطلاق من زوجها .

وتعددت الشائعات - تقول أم ياسين - عن أسباب الطلاق ، ولكن السبب كان واضحاً لها، وهو أن الدكتور لم يستطع 'إتمامه' ، ولم تمض أيام حتى عرف أهل الشيخة أنها حامل ، وأن والد الطفل هو محمود (وتذكرت فيلم أنطونيو الجميل الإيطالى - بطولة مارسيلو ماسترويانى وكلوديا كاردينالى) وكان معنى ذلك - تقول أم ياسين - أنه تزوجها !

وسألتها : تزوجها قبل الحمل ؟ فقالت طبعاً ! فقلت : كيف ذلك دون أن يدرى أحد ؟ فانطلقت تقول إننى مثل سائر الأفندية أتصور أن الزواج لا يقع إلا بعقد مكتوب ، وهذه خرافة - على نحو ما أثبتت تجربة زواج الدكتور بالدبلوماسية ! "إنكم تعبدون الأوراق ! وهذا كفر! الزواج هو الرضا والإعلان !" وقلت لها : وهل حدث الإعلان ؟ فقالت بلهجة استنكار : وهل

هناك إعلان أكثر من الحمل ؟ لقد نجح محمود معها فى حين أنه أخفق مع 'الدبلوماسية'
التي كان زواجها ورقاً فى ورق !

وتصورت أنها ستقص على المزيد من جرعات السعادة التي جرّعها محمود ، ولم أكن
سألتها عن تواريخ تلك الأحداث ، إذ كانت تقصها كأنما هي آنية ، فسألتها إن كانا يعيشان
الآن فى هناء ، فقالت فى أسى وهي تمصمص بشفتيها : "حسرة على محمود واللى جراه"
ثم انطلقت تحكى :

"كانت 'الشيخة' تتابها نوبات خاصة، ولم تكن نعرف إن كانت تخاوى الجن أم لا،
ولكنها كانت تطلب منه طلبات خاصة فى تلك النوبات ، فيأتى لها بها ، وانتهى الأمر بأن بدأ
يعطيها حبوياً خاصة ، وكانت تتميز بالكرم فكانت تعطيه لمن يطلبها ، ولم ينقض عام واحد
على مولد الطفل ، وهي بنت كالقمر ، عيناها خضروان ، حتى ألقت الشرطة القبض على
محمود ولفقت له تهمة الاتجار فى الحبوب المخدرة ، وحكموا عليه بالسجن !"

فسألتها ومتى كان ذلك ؟ فقالت من عشر سنوات ! وأدناقت "سمعنا أنه خرج من
السجن فى العيد ، ولكننا لم نسمع عنه أخباراً مؤكدة ، والمرجح أنه سافر إلى أوروبا ، إذ كان
دائم الحديث عن أصدقائه فى بلاده بره !"

وقلت فى نفسى إنها قصة من قصص الحياة التي تنشرها الأهرام يوم الجمعة عند عبد
الوهاب مطاوع ، ولكن فيها مغاليق لا تزال تستعصى على الفهم ، فقلت أستزيدها : وأين
الفتاة ؟ فقالت : "بسم الله ما شاء الله ! فلقة قمر ! الأولى فى المدرسة ! لكن عريسها
مستنى ! ما فيش جامعة ولا كلام من ده !" فسألت وأمها ؟ فضحكت وقالت "جالها السعد يا
خويا ! اتجوزت مهندس وراحت السعودية ! ربنا يهنيها زى ما ملت عيشته هنا !" ورأت أننى
لا أشاركها الضحك فقالت : "الجن بتوعها مؤمنين ! تانى يوم اتجوزته جاله عقد عمل وفى
شهر كانوا مسافرين !" فعدت أستفسر : "الجن بتوعها ؟" فقالت بلهجة جادة : "حضرتك
متعلم وعارف إن فيهم مؤمنين وبيعرفوا ربنا ! أهم وقفوا معاها للآخر ! وده جزاة ما عملت ..
كل خير !" ثم همست فى نبرة إعزاز "تحب تشوف نوران ؟ دى يا أرض احفظى ما عليكى !"
واعذرت ونهضت . وكان عام ١٩٩٨ ما زال يخفى مفاجآت أخرى !

كان الدكتور عبد العزيز حمودة قد نشر كتابه المرایا المحدبة وهو الذى هاجم فيه
النظرية النقدية الحديثة هجوماً ضارياً ، مثلما هاجمها الكثيرون من أبناء أوروبا ، ولكننا كنا

للأسف ولا نزال نقدر كل ما هو مستورد ، فتنابها بعض العرب وتصوروا أنها السبيل الأقوم لفهم الأدب والكتابة بل والفكر الإنسانى ، غافلين عما تبطنه من ارتباط عميق بفلسفات الغرب الحديثة التى عميت عن منطق الروح تمامًا ، ولم تعد تتوسل إلا بمنطق الحواس . وكان ما شغلنى شخصيًا فى كتاب المصطلحات الأدبية الحديثة (١٩٩٦) هو سوء فهم الشباب بل وبعض المشتغلين بالنقد من الكبار أيضًا لبعض مصطلحات هذه النظرية وتداولها بالحق وبالباطل ، ولذلك حاولت - كما قلت فى فصل سابق - شرح هذه المصطلحات وإلقاء الضوء عليها فى سياق المدارس المختلفة المنبثقة عن النظرية الحديثة ، ولكن الدكتور حمودة لم يكتف بالشرح والإيضاح بل انقض على النظرية الحديثة انتقاض العقاب فمزقها تمزيقًا ، وتعرض فى غضون ذلك لدعاتها ، وللدكتور جابر عصفور ، وهو من هو ، ف وقعت معركة أدبية وفكرية شابتها لمسات شخصية (أعافها) فى مجلة أخبار الأدب وفرح جمال الفيطنانى بالمعركة لأنها أنعشت توزيع المجلة ، فلا أَحَبَّ للقراء - فى كل زمان ومكان - من التراشق بالاتهامات بين الكتاب مهما تكن مستوياتها ، ولكن المعركة أحدثت شرخًا لا شك فيه فى حياتنا الأدبية ، وعندما عقدنا مؤتمرنا الدولى للأدب المقارن فى ديسمبر ١٩٩٨ لم يحضره حمودة ولا عصفور .

واتسع الشرخ فأصبح يشبه الشق الواضح ، وإن كان ذلك لا يعبر عن حقيقة الواقع الأدبى. كما بين ذلك الدكتور شكرى عياد فى كتابه عن المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، فنحن مهما نقلنا ومهما تظاهرننا بالقطيعة مع التراث لا نزال نرتبط به أشد ارتباط ، ولا أستطيع أن أجد عربيًا ، مهما كانت درجة الحداثة التى يدعيها ، لا يحمل فى أعماقه تاريخنا الطويل وتراث اللغة العربية الذى هو تراث ثقافتنا ومحور هويتنا القومية .

وصدر لى فى عام ١٩٩٨ الجزء الأول من سيرتى الذاتية الأدبية واحات العمر فتقبله القراء بقبول حسن ، وكان صدوره بداية انشغالى برحلة الحياة الحافلة التى عشتها فى رشيد ولندن والقاهرة ، وكان لابد أن يتلوه جزء ثانٍ ، بدأت أكتبه على الفور وأنا فى الولايات المتحدة، أتولى تدريس الشعر البريطانى والعربى للطلاب ، وكان ذلك فى فبراير ١٩٩٩ ، وهو آخر عام لى فى رئاستى القسم ، لأنه كان عام التقاعد عن المناصب الرسمية ، (سن المعاش) واجتهدت فى إتمامه حتى صدر بعنوان واحات الغربة فى غضون ١٩٩٩ أيضًا ، وفاز بجائزة أحسن كتاب فى السيرة الذاتية فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير عام ٢٠٠٠ ١

ولكن عام ١٩٩٨ كان أيضاً عام اكتشاف الشعراء الشبان ، وقصيدة النثر ، والعام الذى ترجمت فيه المزيد من مسرحيات شيكسبير ، فصدرت لى هنرى الثامن وريتشارد الثانى ، كما شاركت الدكتورة فاطمة نصر فى ترجمة الكتاب الثانى لكارين أرمسترونج بعنوان القدس : مدينة واحدة وعقائد ثلاث ، فكان عام عمل متواصل ، وكان فى ذهنى طول الوقت ما سمعته وعرفته من أم ياسين ! لم تكن 'المادة الإنسانية' قد اتخذت بعد شكلاً فنياً ، بل كانت تتحول وتتشكل فى أعماقى !

٩

لم أكن أتصور أن من بين الأمريكيين من يعشق الشعر العربى المعاصر إلى هذه الدرجة ، وقد اكتشفت مدى هذا الحب حين بدأ العمل فى جامعة بتسبيرج مع حفنة من دارسى الأدب المقارن ، فقدمت لهم بعض الدواوين التى كنت ترجمتها للمعاصرين ، إلى جانب الذى كانوا يعرفونه عن الأدب العربى (من خلال المستشرقين) ثم قدمنى البروفسور ريتشارد توبياس إلى الزملاء من أعضاء هيئة التدريس ، الذين تخاطفوا ما كنت أحمله معى من كتب عن الأدب العربى بالانجليزية . وبعد أسبوعين فى فبراير ١٩٩٩ عدت إلى مصر بثروة من الكتب وحصاد وفير من الأفكار ، أهمها هو أن الغربيين لا يتعاطفون مع العرب سياسياً لأن العرب يتقاعسون ، على ما فى أيديهم من أسباب القوة ، عن تغيير صورتهم فى الغرب بأنجع الأساليب المتاحة وهو الحضور أو الوجود الثقافى ، وأما أيسر سبله فهو الأدب الحديث ، فهو المرأة الصادقة لحياة المجتمع وفكره الحى .

وعندما سافرت للمرة الثانية عام ١٩٩٩ عدت بأفكار أشد وضوحاً عن تسويق الأدب العربى فى الخارج . معظم دور النشر الكبرى فى أوروبا وأمريكا لا تقبل على نشر كتب قد تكبدها خسائر مادية ، إلا إذا كانت كتباً علمية جديدة 'بالتضحية' بمعنى أن تكون كتباً 'تصنع التاريخ' ، ولذلك فقد تحجم دور النشر الكبرى عن نشر الأدب العربى المترجم إلا إذا تمهدت دار نشر عربية بتغطية بعض التكاليف ، وبشرط أن يجيز محررو الدار النصوص المقترحة نشرها ، وقد تكون 'التغطية' فى صورة شراء ألف نسخة مثلاً لتوزيعها محلياً ، كما

حدث فى حالة ترجمة رواية اليد السفلى للكاتب السعودى عبده يمانى ، التى اشتركت أنا ونهاد زوجتى فى ترجمتها فى أواخر السبعينيات وصدرت بعنوان A Boy from Mecca عن دار نشر ماكميلان الانجليزية ، وكما حدث فى ترجمة بعض عيون الأدب العربى الصادرة قبلها عن دار لونجمان البريطانية . ولذلك تصورت أن تخصص جامعة الدول العربية بعض المال لنشر المترجمات إلى اللغات الأوروبية بأقلام أبناء العربية، دون انتظار للمستشرقين ، وما أقل من يعرف منهم كنوز الأدب العربى المعاصر ! والذى يحدث حالياً هو أن الترجمة تعتمد على جهود فردية ، وأكاد أقول 'شخصية' ، فتجد فى أسواق الغرب كتباً لكتاب ليسوا من بين طليعة كتاب العالم العربى ، وقد يكون اختيارهم على أسس سياسية أو اجتماعية ، أى إن الاختيار قد لا يقع على من يتميز أدبياً من كتاب جيله .

وقد تأكد لى ذلك عند صدور موسوعة الترجمة الأدبية إلى الانجليزية عام ٢٠٠٠ ، وهى تتكون من مجلدين بالغى الضخامة ، لا يحتل الأدب العربى فيها إلا مكاناً هامشياً بين آداب العالم ، وكنت ذات يوم قد فزعت من كتاب أصدرته سلسلة بنجوين البريطانية بعنوان الشعر العربى المعاصر مترجماً بقلم يمنى هو عبد الله العذرى ، ولا يتضمن قصيدة مصرية واحدة ! وفى غضون عام ١٩٩٩ خطر لى أن أقدم الجيل الجديد من الشعراء الشبان المتمردى على كل شئ ، وكانوا يطلقون على أنفسهم ألقاباً مستفزة مثل 'الجراد' أو إضاءة كذا ، وما إلى ذلك ، إذ وجدت أنهم يمثلون تياراً لا يمكن تجاهله فى الأدب العربى الحديث ، وطلبت من محمد متولى - زوج ابنتى - أن يختار لى عدداً من القصائد ففعل ، وترجمتها ولكن الكتاب لم ينشر إلا بعد عامين ! كما ترجمت ديواناً صغيراً لفاروق جويده بعنوان لو أننا لم نفترق ونشر فى العام التالى .

فى صيف ١٩٩٩ حضر البروفسور ريتشارد توبياس لمناقشة رسالة دكتوراه أشرف عليها عن شاعر بريطانى معاصر هو أنتونى ثويت ، وشارك فى المناقشة من مصر صديقى ماهر شفيق فريد والدكتور شبل الكومى ، أستاذ الشعر العظيم الذى كان وكيلاً لكلية الألسن ثم أصبح عميداً لكلية الألسن بجامعة مصر الدولية . وكان الطالب محمد سعيد أحمد على تلميذاً لى فى الماجستير أيضاً ، وناقشته فى قنا قبل عدة أعوام ، فدعانا بعد مناقشة الدكتوراه إلى العشاء فى مطعم فى شارع النيل بالجيزة ، وتطرق الحديث للمجال الذى يعمل فيه الأستاذ فقال البروفسور إنه أدرج دراستى عن ماثيو أرنولد ونظرته إلى أسلوب وردزورث

فى قائمة المراجع الخاصة بالمعصر الفكتورى ، وتشعب الحديث واتفقنا على أن أعود إلى أمريكا فى العام التالى .

كان عام ١٩٩٩ - كما قلت - آخر عام أقضيه رئيسًا للقسم ، وبدأت أشعر كيف يتحول الناس عني بعد أن "هلك عني سلطانيه" ، وكنت أعرف أن ذلك احتمال قائم ، ولكن بلوغ سن المعاش (التقاعد) لم يكن يعنى شيئاً لى ، فلا أزال قادراً على العمل ، وكانت بعض مشروعاتى ما زالت تنتظر الاستكمال ، مثل معجم مختصرات اللغة الانجليزية (معجم المترجم) والمعجم الآخر الذى أعمل فيه بجد عن الكلمات الجديدة التى دخلت اللغة الانجليزية فى الربع الأخير من القرن العشرين . ولم أكن قد انتهيت من ترجمة الفردوس المفقود ولا من ترجمة روائع شيكسبير ، وكانت الشهور التى أقضيها فى إعداد بعض سلاسل مكتبة الأسرة تبتلعنى تماماً ، وكان أول من يدرك ذلك هو صديقى المستشار أحمد السودة ، وصديقى ماهر ، وزوجتى نهاد التى كانت كثيراً ما تحتنى على الخروج مساءً لارتياح المسارح معها .

كان لى ما يشغلنى حقاً ، ولكننى مع ذلك شعرت بوخزة ألم دفين حين تكأكات بعض عضوات هيئة التدريس فى قسمنا لتأكيد زوال السلطان ، وتبدى ذلك ذات يوم أثناء مناقشة الموضوع الذى كنا اتفقنا عليه للمؤتمر التالى (عام ٢٠٠٠) للأدب المقارن ، وهو الحداثية وما بعدها ، إذ اكتشفت أنهن كن قد عقدن اجتماعاً لم أدع إليه واتفقن على أن يكون الموضوع خطاب السلطة (discourse of power) وعجبت لذلك الانقلاب ! وكان ماهر شقيق فريد حاضراً أثناء تلك المناقشة فدهش ولكنه لم يكتم دهشته تلك المرة بل دافع عن الموضوع المتفق عليه سلفاً ونبههن إلى ضرورة احترام قرارات مجلس القسم حتى بعد تغيير رئيسه ، وتصورت أن الأمور قد عادت إلى نصابها ، ولكن تيارات أخرى كانت ما تزال تجرى فى الظلام .

وقررت الإقلاع عن محاولة التغيير ، فالأفضل أن أترك القسم لمن خلفنى ، وكانت سيدة فاضلة ، طيبة القلب ، دمثة الخلق ، هى الدكتور جلييلة آن عبد المنعم راغب ، وقال لى عبد العزيز حمودة ، الذى كان قد أصبح عميداً لكلية الآداب ونائباً لرئيس جامعة ٦ أكتوبر ، إنه ذكر لها ضرورة التصدى للتيارات الخفية وإنها يجب أن تتحلى 'بالقوة' "مثل محمد عنانى" ، وابتسمت فى أعماقى ، فالقوة ليست حلية يُتَحَلَّى بها ، وإذا كنت قوياً ، كما يقول ، فقد كان مرد هذه الصفة ، التى لا أزعمها لنفسى ، إصرارى على إجابة مطالب الجميع ، وإتاحة

الفرصة للجيل الجديد كي يشارك في الحياة الثقافية خارج الجامعة ، ولم يكن الكثيرون من أعضاء الجيل القديم بقادرين على ذلك . وفي يونيو ١٩٩٩ فازت بجائزة الدولة للتفوق في الآداب .

احتجبت عمداً حتى يجد القسم طريقاً جديداً ، وكانت المياه البيضاء في عيني اليمنى قد بدأت تحد من قراءاتي ، فقررت إجراء العملية ، وأجريت العملية فعلاً في أوائل نوفمبر ١٩٩٩ ، وقد أجراها لي طبيب عبقرى هو الدكتور ممتاز حجازي ، في مستشفى قصر العيني الجديد (الذي يسمى الفرنساوي) . ولم يمض أسبوعان حتى تماثلت للشفاء ، ولكنني التزمت بنصائح الطبيب ، وكان رمضان قد أتى ، فاعتكفت وعدت إلى القراءة بعيني اليسرى طوال رمضان ، وما إن حل العيد حتى كنت قد استعدت بصري، بأحد مما كان عليه قبل الاستعانة بالنظارة الطبية !

وفي يناير ٢٠٠٠ كان محمد الألفي ، المخرج الفذ ، قد انتهى من الاستعداد لتقديم الدرويش والغازية على مسرح السلام ، كأول إنتاج في الموسم لسنة المسرح الحديث ، وأصرت البطلة فريدة سيف النصر على أن يكون العبدان هو الغازية والدرويش ، بتقديم البطلة على لبطل ، ولم أمانع ، وكان الذي يشاركها البطولة سامي العدل ، فلم يمانع أيضاً ، ووضع الموسيقى محمد عزت ، وهو ملحن موهوب ، وكانت الأغاني هي التي كتبتها في النص ، وكانت تلك هي المرة الخامسة (بعد زوجات ومرحلات والمجازيب والغربان، وجاسوس في قصر السلطان) التي لا يستعين فيها المخرج بشاعر محترف لإضافة أغاني إلى النص . ففي معظم العروض المسرحية المعاصرة ، يقوم المخرج - بصورة أوتوماتيكية - باستدعاء زجال محترف لكتابة الأغاني . وأذكر أن المرة الأولى كانت في مسرحيتي البر الفريسي عام ١٩٦٤ وكان الشاعر هو الفنان الكبير عبد الفتاح مصطفى ، والمرة الأخيرة في إخراج الثقافة الجماهيرية (حافظ أحمد حافظ) للمسرحية نفسها عام ١٩٩٦ وإن كنت لا أذكر اسم الشاعر المغمور الذي استدعاه حافظ !

حاولت بعد شفائي من العملية أن أعود إلى أداء واجباتي في التعليم المفتوح وكان أهمها إعداد الكتب الدراسية اللازمة للطلاب ، فشغلت بذلك في مطلع العام ، واجتهدت في أن أقدم المادة العلمية بأسلوب سلس يسير المأخذ ، وكانت المادة تحمل اسم نصوص أدبية

بالانجليزية، ولكننى رأيت أن تقديم النصوص وحدها لن يزيد من خبرة دارس الترجمة ، وربما كان يمثل انقطاعاً فى مسيرة اكتساب الخبرات اللازمة ، فأحببت أن أضيف إلى العنوان عبارة ”للمترجم“ ، و ووفق على ذلك فاستعنت بالدكتور ماهر شفيق فريد الذى أتى لى بنماذج متنوعة من ترجمات ثلاثة أجيال من مترجمينا العرب على امتداد القرن العشرين كله . وبدأت العمل المضنى الشاق فى تحليل النصوص الأصلية ، ووضع الأسئلة التى تعين الطالب على استيعابها ، ومن بعد ذلك تاتى مرحلة أخطر وهى اختيار منهج انترجمة المناسب لها ، وشرحه . وبعد ذلك أدرجت الترجمات العربية فى ذيل الكتاب للاسترشاد بها ، ومقارنة أداء الطلاب بأداء كبار مترجمى مصر . ولكننى لم أنشر الكتاب بعد ، وهو لا يعدو كونه من الوسائل التعليمية حالياً ، وأتبنى أن أنشره ، بجزئيه مع الكتاب الحديد الذى أنجزته عام ٢٠٠١ عن الترجمة الأدبية (بالانجليزية) .

كنت فى عام ١٩٩٩ قد أعددت كتاباً عن المعاجم اللازمة للمترجم ، وفى غضون ذلك كتبت دراسة (بالانجليزية) عن مفهوم الترجمة الأدبية استناداً إلى نظرية الترجمة الوظيفية وهى أحدث النظريات قاطبة ، أقول فيها إنه لا يوجد نص مطلق ، أى إنه من المحال القول بأن نصاً ما ، بلغة ما ، يقابله نص أوحده ثابت بلغة أخرى ، فلا الكلمات تتطابق تطابقاً تاماً (وهذا ما اهتدى إليه علم الدلالة الحديث) ، ولا انتراكيب ، (وهذا ما يؤكد علم اللغة) ولا الثقافة الخاصة لكل من اللغتين ، وهو ما أكدته فى دراستى ، مبيناً البعد الزمنى الذى يجعل للعربية مستوياتها الثلاثة التى سبق أن ألمحت إليها .

وكان صديقى العزيز ماهر البطوطى فى زيارة لمصر فى صيف ١٩٩٩ ، وقد نزل مع أسرته فى شقة بالعمارة التى نقيم بها ، فعرضت عليه الفكرة ، وهو أديب ومترجم ضليع ، وتناقشنا ساعات طويلة ، وتولّد من مناقشاتنا لكتاب المعاجم والدراسة التى كتبتها بعنوان مقتبس من قول هتجنشتاين - الفيلسوف الشهير - إن ثمة تشابهاً بين المعانى المختلفة للكلمة يشبه التقارب فى السحنة بين أفراد الأسرة الواحدة ، أقول تولّدت عن مناقشاتنا أفكار جديدة ، وطبقناها معاً على ترجمة خمسة أحاديث نبوية كان الأستاذ وجدى رزق غالى قد طلب منى ترجمتها لإدراجها فى معجم النفيس لمجدى وهبة . وكان ذلك يرتبط أيضاً بما ترسب فى أعماقى من رفض للمنهج الشكلى الذى اتبعته الباحثة نجوى الزينى (الدكتورة) فى رسالتها التى تقدمت بها للحصول على الدكتوراه بإشرال الدكتور سعد جمال ، وشاركت فى

مناقشتها ، وهذا المنهج ، مثل سائر مناهج علم اللغة يحاول وضع القواعد (to formalize) والتعميم (to universalize) فالقاعدة (rule) (كيف اشتقت في العربية من الفعل قعد؟) إذا لم تكن مطردة أى قابلة للتطبيق في جميع الأحوال ، فقدت قيمتها باعتبارها مبدأً يسترشد به . ولذلك فإن الباحثين في علم اللغة يفترضون أن جميع اللغات متساوية في قواعدها ، وفقاً لما قال به تشومسكى أولاً ثم عدل عنه في عام ١٩٩٥ ، وأنها تركز إلى مفاهيم أولية primes وعالمية عامة (universals) وأن شتى الفروق فيما بينها يمكن إما التفاضل عنها باعتبارها عارضة (incidental) أى غير جوهرية في البناء اللغوي أو باعتبارها خاصة بالثقافة وهو مجال لا يتطرق إليه علم اللغة .

وقد وجدت من ممارسة الترجمة الانجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الانجليزية أن ذلك الاتجاه قد أوحى به دراسات اللغات الأوروبية التي تتفق في جوهرها وعارضها بل وفي ثقافتها ، ولكنه لا يصلح أو لا يصدق على العربية عند المضاهاة بالانجليزية لأن العناصر العارضة وعناصر الثقافة تشغل مكان القلب في العربية التراثية ، وتجاهل العربية التراثية (بل والفصحى المعاصرة) في دراسات علم اللغة الحالية ، وتركيز الباحثين على اللهجات العامية (العربية المصرية ، والعربية الشامية ... إلخ) باعتبارها اللغات الحية الجديدة بالبحث وفقاً لمفاهيم علم اللغة الحديث ، قد أحدث خللاً لا بد من التصدي له ، وهو خلل في صلب المنهج نفسه وفي صلب النظرية . ولذلك شرعت أستقي من الممارسة مبادئ جديدة أهتدى بها، وانتهيت إلى أن المنهج الشكلي لا يكفي لتحليل الترجمة ، بل لابد أن يصاحبه منهج دلالي، يأخذ في اعتباره تغير معنى الكلمة العربية أو التعبير العربي عبر العصور ، وهو ما أسميه بالمنهج الزمني (diachronic) الذي يختلف عما يستند إليه الباحثون المعاصرون جميعاً من مناهج آنية (synchronic) أى مناهج لا تأبه لمعاني الكلمة المتوالية على مر الزمن ، وإن كان ذلك لازماً في حالة اللغة العربية .

وانتهيت أيضاً إلى أن من شأن المنهج الزمني أن يجعل المترجم واعياً بالسياق الثقافي للكلام ، لا السياق اللغوي أو التعبيري فقط ، واكتشفت أننا نحتاج إلى ذلك السياق حاجة شديدة ، إذ ابتعد العهد باللغة التراثية وأصبحت معانيها غامضة ، وربما لم تكن كذلك عند أهل زمانها ، فكثير من الكلمات التي نصادفها في شعر القدماء مختلف على معناها ، خصوصاً أسماء الحيوان والطير والنبات ، وكثير من الألفاظ الأصلية في العربية ذات معان

’واسعة‘ يكتنفها الغموض ، وتكفى قراءة مادة أو مادتين من لسان العرب لإدراك ذلك بسهولة. وقد ضربت في دراستي المذكورة أمثلة كثيرة على ذلك .

وأما جوهر المقال (أو الدراسة) فهو أن اختلاف المترجمين في فهم النص المربى لا بد أن يؤدي إلى اختلاف الترجمات الانجليزية له ، وقد قسمت درجات الاختلاف إلى فئتين رئيسيتين: الفئة الأولى هي فئة المترجمين الذين يقرأون النص باعتبار نصًا تراثيًا ، ولو كان مكتوبًا في القرن العشرين ، ويشجعهم على ذلك ميل بعض أساتذة العربية وغيرهم إلى استخدام اللغة التراثية في كتاباتهم ، والفئة الثانية هي فئة المترجمين الذين يعتبرون النص نصًا معاصرًا ، ولو كان قد كتب منذ ألف سنة أو أكثر ، يشجعهم على هذا كثرة تداول آيات كتاب الله العظيم وأحاديث نبيه الكريم ، ويشجعهم على ذلك أيضًا استناد هذه اللغة التراثية إلى مفاهيم أولية وعامة (بالمعنى المبين عاليه) تسمح بمثال ذلك التناول ، وفيما بين هاتين الفئتين تقع فئات كثيرة يتفاوت حظها من إدراك المعاني القيمة ودرجة وجودها (أو الإيحاء بوجودها) في النصوص المعاصرة ، ويتفاوت حظها من الإلمام بالتاريخ الثقافي للغة العربية .

ومع ذلك فقد ينتمى بعض المترجمين إلى فئة واحدة من الفئتين المذكورتين ثم يخرجون نصوصًا تختلف فيما بينها اختلافات واضحة دون أن يكون أحدها أصح من صاحبه ، وذلك أساسًا بسبب اختلاف فهمهم - حتى في نطاق الفئة نفسها - للنص ، واختلاف قدراتهم التعبيرية ، ومن ثم قلت في الدراسة إن كثيرين من كـ ، فئة يستطيعون إخراج ترجمات صحيحة تختلف في ألفاظها ، ولكنها تتبع في مجموعتين ذه ثلاث الفئتين السالفتين ، وهي على اختلافها تتشابه تشابه أفراد الأسرة الواحدة (ومن ثم كان عنوان المقال Family Resemblance) .

وكان صديقي ماهر شفيق فريد يتابع قراءاتي في علم اللغة الحديث ، فيما اشتريته من كتب أجنبية ، ويكاد ينكره ، وإن كان يقرؤه ويستمتع به ، ويقول لي ”لقد اختلف حديثك واختلفت اهتماماتك“ كأنما كان يرجو ألا أنصرف عن الأدب إلى اللغة ، وذات يوم كنا في مبنى مركز التجارة العالمي على شاطئ النيل ، في منزل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي للسؤال عن شيك أتوقعه من الأمم المتحدة ، وكنا في انتظار رفض الرسالة البريدية التي كنت أرجو أن يكون الشيك فيها (ولم يكن) حين أخرجت له من حقيبتي نص كتاب ترجمته من العربية إلى الانجليزية بعنوان وقت في العراء للكاتبة الجزائرية حبيبة محمدى ، وهو مجموعة فريدة من

الإبجرامات ، وكنت حائراً كيف أترجم 'إبجرام' حتى قال لى جابر عصفور "نحن نكتبها إبجرام وحسب" ففضضى الأمر وحسم ، وكنت كتبت للترجمة مقدمة عن ذلك الفن الشعري ، فاندللق يقرأ المقدمة وبدا عليه السرور ، إذ تيقن أن صديقه لم يخن قضية الأدب !

ورأيت الاستفادة مما تجمع لدى من المادة المترجمة التى تبين كيف تختلف معانى الكلمات، باختلاف السياق ، لأننى ضقت ذرعاً بالأساتذة انذين لا يعرفون إلا معنى واحداً لكل كلمة أجنبية ، وللطلاب الذين يمارسون الترجمة فلا يقربون المعجم ولا يحاولون إدراك المعانى المختلفة للكلمة ، وإذا كان الأساتذة لهم عذرهم فى ذلك ، فالمعنى الذى يعرفونه هو المعنى الذى يعنيههم فى تخصصهم ، فلا عذر للمترجم الذى ينصدى لنصوص كثيرة ، وعليه أن يلم بجميع معانى الكلمة إذا كان يريد احترام تلك المهنة الشاقة . وقدمت لهذه النماذج بمقدمة وافية من ثلاثة فصول ، ثم جمعت الكلمات فى مجموعات وأرفقت بها معجماً موجزاً أشرح فيه نظريات الترجمة ' حديثة ، فى إطار ما أسديت، بالترجمة الوئليفيه ، وأعددت الكتاب للطبع ودفعت به إلى شركة لونجمان ، فرحب به الأستاذ وجدى رزق غالى ، وأسماء مرشد المترجم وصدر فى عام ٢٠٠٠ .

إن الاهتمام باللغة لا يتصل عن الاهتمام بالأدب ، وكثيراً ما أحزن حين يحجم الأستاذ عن إجابة سؤال فى اللغة معتجاً بأنه أستاذ للأدب لا للغة !

وكان من خيرات ترك رئاسة القسم أن أصبح لدى الوقت اللازم للانغماس إلى القراءة ، وكنت منذ أن انغمست فى التراث العربى أستجلى غوامضه ، فهو بحر زاخر ، لا يمتطى ثبجه ولا تخاض لججه ، كما يقولون ، قد اكتشفت ضرورة الادطلاع على أصول الكلمات العربية ، وما أكثر ما تتجاهل المعايير العربية هذه الأصول ، وكأن من فواتح الشهية كتاب قضية التعريب على ضياء اللغات السامية للدكتور محمد زعيمة ، من قسم اللغات الشرقية عندنا ، إذ كنت أقرأ كتب الدكتور إبراهيم السامرائى فى هذا المجال فأجد أننى ما زلت حائراً ، ولم يكن فى كتاب السيد أدى شير عن الكلمات الفارسية الدخيلة فى العربية ، إلا زيادة فى حدى وإصرارى على وادج هذا الباب ، وعندما انتهيت من المعرب للجواليقى وكتاب جامع التعريب بالطريق القريب أيقنت أننى لابد أن أستزيد وأستزيد ، وكان كل كتاب أقرؤه - مثل تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل للدكتور أحمد السعيد سليمان - حافزاً لى على إعادة

النظر فى المعجم العربى ، وكيف نفهم العربية ، وهذا من أخص خصائص المترجم الذى يحترف هذه المهنة ويتوفر على مزاولتها .

وكنت فى ذلك أشعر أن العربية من أصعب لغات العالم ، فها أنذا نشأت فى الكتاب وبدأت حياتى بحفظ القرآن وتقويم لسانى به منذ الصغر ، ثم شجبت فى كنف والد لا همَّ له إلا العربية ، ومع ذلك أجِدْ نفسى مثل المبتدئين كلما عَنَّتْ لى صعوبة ، فأهرع إلى التليفون أسأل الدكتور عبد القادر القط ، ومن قبله - على امتداد سنوات - الدكتور شكرى عياد ، أو أقتضى الساعات مع المعاجم التى استنطقها فلا تنصح ، وفى غضون ذلك يزداد إعجابى بأساتذتنا الذين دانت لهم العربية فأحكموا فهمها وصوغها ، وأحياناً ما كنت أقول لنفسى ، هل كان علىّ أن أخصص فى العربية ، فربما حققت أحلامى . بدلاً من تعلم لغة أجنبية يزعم الجميع أنهم يعرفونها ، فلا حاجة بهم إليك ؟



وكان من خيارات التفرغ أيضاً حرية السفر فى ربوع مصر لمناقشة الرسائل فى الجامعات الإقليمية ، وكان صديقى الدكتور شبل الكومى يرشدنى إلى الخبايا والأسرار ، ويحثنى على الترحال على ما الأسفار من مشقة وإرهاق ، إذ أتاح لى ذلك الاطلاع على أحوال الدارسين فى تخصصنا ، وكما كانت دهشتى عندما أدركت أعدادهم الكبيرة ، ومدى الهوة التى تفصلهم بل وتعزلهم عن حياة البحث العلمى والاستزادة من المعرفة ، وكنت أستمع إلى القصص التى تبدو أغرب من الخيال ، ثم يتحقق لى صدقها عندما يتقدم بعضهم إلى اللجنة العلمية الدائمة طالباً الترقى إلى درجة أستاذ مساعد أو أستاذ !

وكننت خرجت أول مرة من القاهرة إلى الأقاليم فى مطلع التسعينيات عندما دعانى الدكتور فوزى مكاوى عميد كلية الآداب بجامعة طنطا إلى الإشراف على قسم اللغة الانجليزية فى الكلية ، ولم يكن بالقسم أساتذة أو أساتذة مساعدين ، فكنت أذهب بمبارتى الفيات القديمة (١٢٢) وأحاول تطبيق ما نفعه فى القاهرة هناك ، وكان أقدمهم - الدكتور هانى عازر - يتولى الإشراف الفعلى مع الاحتفاظ بالمعيد بالإشراف الرسمى . ولن أنسى أول اجتماع

أعقده لمجلس القسم حين قال لى الدكتور محمد الشاعر بصراحة موجعة : ”نحن لا نريدك .. ولا نريد رئيسًا .. ولا نطلب منك إلا تدريس الترجمة “ وعندما ذهبت إلى العميد جعل يقص على طرفًا مما يفعلونه لكسب المال ، وكنت أستمع (ما بين مصدق ومكذب) إلى أحابيل أبتزاز الطلاب وطرائق الإثراء السريع ، وقال العميد مزهواً لقد قبلنا المئات هذا العام بشرط دفع تبرع للكلية ، واشترت بالمال المتوافر عدة حافلات صغيرة تخدم الجامعة ، وسألته إن كان يطبق شروط الالتحاق التي نطبقها في القاهرة ، فقال ”إن لكل جامعة نظامها ، فنحن نؤمن باستقلال الجامعات ، وليست درجة اللغة الانجليزية في الثانوية العامة مقياساً يعتد به “

وجاء من يخبره أثناء الحديث معي بأن مدرساً في القسم يرفض بعض ما كلفه به ، وكان ذلك المدرس هو الدكتور حسن البنا ، فقال ”استدعوه “ ولما جاء حسن أغلظ العميد له القول ، وذكرني هذا الموقف بما قاله الدكتور أحمد خليل الذى كان منتدباً من كلية العلوم لعمادة كلية التربية في الفيوم في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ، إذ أتيت له ذات يوم في الرابعة مساءً أقول له إننى انتهيت من درسي وأود الاستئذان للرحيل إلى القاهرة (بعد عمل يوم شاق في التدريس من التاسعة صباحاً) فنظر إلى باستعلاء ثم تطلع إلى جدول المحاضرات ، وقال بلهجة ناظر المدرسة ”ميعادك الساعة خامسة لا روح فضلك يا أستاذ “ (فتركته إلى القاهرة ولم أعد بعدها إلى الفيوم أبداً) .

وحاولت مساعدة أعضاء القسم في طنطا على ممارسة البحث العلمى ، وتشجيع الصغار على الانتهاء من دراساتهم العليا ، ونجحت في مسعى الأخير إذ أشرف بعض أعضاء مجلس قسم الانجليزية لدينا - مثل الدكتور أمين العيوطى (الروائى والمترجم القدير) على بعض رسائلهم، وكنا نشارك أنا والدكتور محمود فهمى حجازى (من قسم اللغة العربية) فى الإشراف على الحياة العلمية بالقسم . ولكن سرعان ما اكتشفنا أن هم الجميع كان كسب المال لا انتساب العلم ، فبعضهم يسافر إلى بلدان قريبة أنشئت بها كليات تربية (مثل كفر الشيخ وشبين الكوم وبها) للتدريس حتى بلغ عدد الساعات التى يدرسها بعضهم ٦٠ ساعة فى الأسبوع ! وكانت التجربة أليمة ، خصوصاً بعد أن سمعت من الدكتور هانى عازز أن العميد يقول إننى، أنا والدكتور حمودة الذى كان قد سبقنى فى الإشراف على قسم طنطا ، نسعى لكسب المال ! وغضبت ، خصوصاً لأننى لم أتناقض مليماً واحداً مقابل عملى الأسبوعى هناك على امتداد عامين .

ذكرت ذلك كله وأنا انتقل بعد 'التفرغ' في أرجاء الصعيد وأنحاء الوجه لبحرى ، وقناة السويس ، وشهدت بعيني مدى التدهور في العلم والتعليم وكان أحد زملاء قد أطامنى على ما يفعله هو في المنطقة الشرقية من مصر ، منطلقاً من مكانه في جامعة المنصورة ، حين ذكرت له أنني قد قدمت بطلب للإعارة إلى إحدى الدول العربية ، فقال إنه لا حاجة له بالإعارة ! فالكتب تكفى ! وقال دون ذرة من خجل إنه يتفرغ مع إحدى مكتبات المنصورة على طبع النصوص الانجليزية المقررة (شيكسبير مثلاً) مع مقدّم ، يأتي بها من بعض الكتب ، ويكون ذلك كله عن طريق التصوير ، أى أن النص لا يُجمع في الطبعة من جديد خشية الأخطاء المطبعية ، غفيراً لجهد مراجعة التجارب الطباعية ، ثم إنه يفرض الكتاب باعتباره أستاذ المادة (وهو مدرس لأن الكوادر معظمها من الشباب ولا يوجد بينهم أساتذة) على ألف طالب في المنصورة وفي الزقازيق وبينها مثلاً ، ويحدد سعر ، بعشرة أضعاف التكاليف ، فيكون له من كتاب واحد ، مرتب شهرين أو ثلاثة في الكويت أو السعودية

وقد أكد لى الدكتور عبد الرحيم الرفاعى - من جامعة القاهرة - أن ذلك ما زال يحدث وأن رئيس الجامعة يوافق عليه ، وأن الشكاوى التى قدمت كن من مديرتها الرافض ، إذ قال رئيس الجامعة "لماذا يتحمل الطالب أسعار الكتب الأجنبية ، رادى بهذلة رهيبه ، وهو يستطيع أن يدفع ربعها أو ثلثها لشراء الطباعات المصرية ؟" ولكن الذى لم يقل هذا أو ذاك هو أن 'البائع' هنا يتقاضى أرباحاً 'باهظة ورهيبه' مقابل جهد لا يذكر . وأن الطالب يدفع عشرين أو ثلاثين جنيهاً ثمناً لكتاب لم يتكلف طبعة جنيهاً أو ثلاثة ! وسأله الدكتور الرفاعى ، وكان معى الدكتور ماهر شفيق فريد ، قبل مناقشة إحدى الرسائل ذلك ، اليوم في المنصورة ، "وكم عدد الطلاب الذين قبلتموهم في السنة الأولى ، بقسم اللغة الانجليزية في العام ؟" فقال "ألف وخمسمائة !"

ومن يعنى ذلك يدرك سر الضجة التى ثارت عند إصدار قانون الجامعات الجديد ! القضية ليست ، قضية الجامعات الرئيسية (القاهرة وعين شمس والإسكندرية) بل هى قضية الجامعات الإقليمية ، وإذا كان من اليسير التحقق من ضعف مستوى التحصيل في اللغة الإنجليزية ، إذ يكفى أن تحدث أحدهم بالانجليزية حديثاً ، ذلك ، فإنه من أعسر الأمور في التخصصات الأخرى ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتحقق من مستوى طالب الطب أو العلوم أو الزراعة ؟ والغريب أن يجرى ذلك كله تحت بصر المسؤولين وجمعهم ، فما إن يترقى أحد

هؤلاء الإقليميين إلى درجة أستاذ مساعد ، عادة في علم اللغة ، كأن يجرى بحثاً في كلمة 'فى' أو 'فيه' بالعامية المصرية (فيه / فى عندك) وأبحاثاً من هذا القبيل حتى يصبح أستاذاً مساعداً للغة الانجليزية له حق الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه ، فلا تمضى سنوات حتى يكون 'القسم العلمى' قد امتلأ بالمدرسين والمدرسين المساعدين الجدد ، ولا يعرف أحد عنهم شيئاً حتى يتقدموا للترقية ، وإن كان بعضهم يفضل عدم التقدم ، فالقانون يضمن له الاستمرار فى العمل فى الجامعة بعد الستين باعتباره أستاذاً متفرغاً وبعد السبعين أستاذاً غير متفرغ !

وأذكر أنتى دعيت ذات يوم لمناقشة رسالة تقدمت بها صاحبيتها للحصول على درجة الماجستير من جامعة الزقازيق . وكان المشرف من المنصورة ، والممتحن الآخر من الزقازيق ، وكانت الطالبة قد انتهت من السنة التمهيدية للماجستير عام ١٩٨٥ فى جامعة القاهرة ، وسجلت فى الزقازيق للدرجة ، وترددت الشائعات بأنها تزوجت العميد (وقد ذكرت لى ذلك بنفسها بلهجة من يريد أن يثبت ما ينفيه) وزارتنى فى المنزل لتسليمى الرسالة وكانت حاملاً على وشك الوضع ، وبعد أن قرأت الفصل الأول راعنى جمال الأسلوب واستواؤه ، فقلت للمشرف إننى موافق على المناقشة ، وشغلت بأشياء كثيرة عن الرسالة ، كما شُغلت هى بالوضع ورعاية الطفل ، ثم اتصل بى الدكتور طلعت حفنى . وكان زميلاً قديماً ليدعونى إلى المناقشة لأن الطالبة سوف تسافر مع زوجها إلى بلد عربى شقيق ، وتحدد الموعد بعد أسبوع . فمكففت على الرسالة وإذا بى أحس بأننى قرأت ذلك الكلام قبل ذلك . ترى أين قرأته ؟ وجعلت أحدث حتى مرت بى عبارة كنت واثقاً أن أصحابها هو السير موريس باورا مؤلف كتاب الخيال الرومانسى فأتيت بالكتاب ووجدت أن الطالبة قد نقلت عنه فقرات كاملة ، مع تعديل فى أماكن العبارات ، فهى تبدأ الفقرة لديها بآخر جملة فى الفقرة الانجليزية ثم تأتى بالجملة الثالثة ومن ورائها الثانية وهكذا ، فاتصلت بالدكتور حفنى وقلت له هذه الطالبة حرامية وإننى لا أستطيع مناقشتها ، ولا بد أن تعيد كتابة الرسالة وأن تورد أسماء المراجع التى اقتبست منها هذا الكلام ! وذهل مما سمع ، وقال إن الوقت ضيق ، ولن يتسنى لنا الاستعانة بأستاذ (ممتحن) آخر ، لأنها لا بد أن تسافر بعد أسبوع !

وقلت فى نفسى : لقد أخطأت عندما اكتفيت بقراءة الفصل الأول ، وربما يكون أحد قد ساعدها فى كتابته ، وكان الواجب أن أفحص الرسالة كلها قبل الموافقة ! وهأنذا فى حيص

بيص) ولكننى قلت ، من ناحية أخرى ، إننى أستطيع معاينة الطالبة وفضح سرقاتها ، بدلاً من إحضار أستاذ آخر يمنحها الدرجة بامتياز) وهكذا وافقت على المناقشة ، وأعددت ما انتويت أن أقوله ، وقلته كله ، وكانت الطالبة تبكى بكاءً صامتاً ، وطفلها الرضيع الذى تحمله أمها يبكى بصوت مسموع) واختلت اللجنة للمداولة ، فقال المتحنان لى إن أمامنا خياراً واحداً - طبقاً للقانون - وهو منحها الدرجة بتقدير منخفض ، لأننا ما دمنا وافقنا على المناقشة فقد أجزنا الرسالة) وحاولت التكفير عن خطئى (بعدم قراءة الرسالة كلها) وأصررت على منحها الدرجة بتقدير مقبول ، واعترض المتحنان لأن ذلك معناه عدم تسجيلها للدكتوراه فقلت لهما: فى هذه الحالة ، وكما يقضى القانون ، فإن من حقى الانسحاب لأن أداء الطالبة فى الشفوى غير مقنع) فوافق المعضون وحصلت الطالبة على الدرجة ، وسافرت ، واتصلت والدتها بى بعد نحو عام تشكرنى على موقفى ، وتقول إن ابنتها أصبحت رئيسة القسم هناك، وهى تعرض على السفر فى إعارة لديها)

وتجنبنت الوقوع فى ذلك الخطأ فى العام التالى عندما أرسل لى أستاذ من صعيد مصر رسالة لطالب كنت أظنها للماجستير ، إذ فوجئت بضعف اللغة وعدم الإحاطة بموضوع يظنه الناس سهلاً لأن فيه جانباً عربياً وهو صعب ومعقد لذلك السبب نفسه ، ألا وهو مقارنة مسرحيات صلاح عبد الصبور بمسرحيات ت. س. إليوت ، وكنت قد شاركت قبل أعوام فى مناقشة رسالة عن مسرح إليوت ، كان يشرف عليها فى جامعة الملك عبد العزيز ، فى جدة ، الدكتور عبد الله عبد الحافظ متولى ، مما اقتضى تعمقى فى دراسة الموضوع ، وأما صلاح فكنت أكاد أحفظه حفظاً)

تجنبنت الوقوع فى ذلك الخطأ بأن قرأت الرسالة واعتذرت للأستاذ بسبب سفرى إلى إيطاليا موضحاً له أن الرسالة فى حاجة إلى تعديلات فى المنهج وفى اللغة ، فقال إنه لاحظ ذلك وسوف يقوم الطالب بهذه التعديلات فى الصيف ، ورجانى ألا أنسحب من اللجنة بعد أن وضع اسمى فى التشكيل الذى وافق عليه مجلس الكلية والجامعة) ولكننى أصررت على الانسحاب متعللاً بمشاغل كثيرة ، وبعد أيام اتصلت بى الدكتورة منى أبو سنة وسألتنى عن رأى فى الرسالة بعد أن سمعت أننى قبلتها ، وقلت لها الحقيقة فقالت إنها قد اعتذرت هى الأخرى ، للأسباب التى أبديتها نفسها . وعندما عدت من إيطاليا فى سبتمبر قرأت خبراً مفاده حصول الباحث فلان على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى) ولا يزال ذلك الباحث يتقدم

إلى اللجنة العلمية ، المرة بعد المرة ، محاولاً الترقى إلى درجة أستاذ مساعد حتى يشرف على رسائل جامعية ، ولا يزال يخفق فى كل مرة ، لكنه دؤوب لا يكل ولا يمل !

وفى يوم ١٨ مايو ٢٠٠٠ ذهبت أنا والدكتور شبل الكومى لمناقشة رسالة فى أسيوط ، وكان يوم ثلاثاء ، فالطائرة تقتصر على رحلة واحدة من مطار القاهرة فى الأسبوع ، وقبل المناقشة ، وأنا مشغول بترجمة بعض أبيات من قصيدة على اسم مصر للشاعر صلاح جاهين ، دخلت الدكتورة فردوس عبد الحميد ، المشرفة ، وقالت إنها تركت اجتماع مجلس الكلية حتى تنتهى من مناقشة الرسالة . وكان المجلس يناقش تسجيل أحد الطلاب لموضوع فى الترجمة وهو ترجمة قصة موسى عليه السلام فى القرآن الكريم ، وكان ذلك هو نفس الموضوع الذى دَرَسْتُهُ نجلاء رشدى وحصلت به على الدكتوراه من جامعة القاهرة قبل عامين ، بإشرافى ، فقلت لها كيف لم يطلع المجلس على الرسائل التى سبقت كتابتها فى هذا الموضوع ؟ فقالت إنها اعترضت فى المجلس ولكن رئيس القسم (وكان أيضاً وكيل الكلية) الدكتور أحمد المختار أصر على رأيه ! وعندما رأيت الدكتور المختار بعدها بقليل ذكرت له ذلك فقال ”سوف يناقش الطالب الموضوع من زاوية مختلفة - لغوية !“ وقلت له أرجو أن يطلع الطالب على دراسة نجلاء ، ولكنه قال إن الزاوية مختلفة !

وفى عام ٢٠٠٠ اتصلت بى الدكتورة فاطمة نصر وقالت لى إنها وُقِّعت فى الحصول على حق ترجمة كتاب أرمسترونج الجديد معارك فى سبيل الإله وليتنا نبداً العمل على الفور ! وانتهى العمل فى آخر الصيف فعلاً ، وصدر الكتاب ولاقى نجاحاً كبيراً ، وفاز بجائزة أحسن كتاب مترجم عن عام ٢٠٠٠ فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير.

وفى عام ٢٠٠٠ بدأت رحلاتى إلى جامعة جنوب الوادى - كلية الآداب فى أسوان - للتدريس لا لمناقشة الرسائل ، فعلمت المزيد عن مصر وجامعاتها .

وصلت الآن إلى الحد الزمني الذي وضعت له هذا الكتاب ، وهو عام ٢٠٠٠ ، أى عام نهاية القرن العشرين ، فالعدد مائة يبدأ برقم ١ وينتهى برقم ١٠٠ ، ولم يبق سوى ربط بعض الخيوط التي سهوت عن ربطها فى خضم الأحداث ، ومنها مقابلة حسن المخرج فى صيف ١٩٩٩ بعد عودتى مباشرة من أمريكا ، أثناء زيارة له للقاهرة ، وقد استعاد نشاطه وحيويته ، برغم الشيب الذى وخط لحيته وشعر رأسه (وقد دب إليها الصلح) فطمأننى على حال أسرته ، إذ تزوجت ابنته من ممثل مشهور ، وهما يعيشان فى هناء ، وشفيت زوجته من مرضها القديم ، وإن كانا غير زوجين بالمعنى الدقيق ، وأما هو فهو فمقيم بصفة دائمة فى أمريكا حيث افتتح مكتباً للخدمات الإعلامية (الترجمة) ودعانى - كمادته - للعمل معه ، وكنت كشأنى مجاملاً فلم أرفض ولم أقبل ، وافترقنا ولم أره بعد ذلك .

وأما مسرحيتى كيلو بودرة فلم أجرؤ بعد على تقديمها إلى أحد المخرجين ، وليس فى ذهنى سوى محمود الألفى ، حتى أضيف إليها اللمسات التى تحررها بعض الشيء من المادة الحياتية (الحيوية) وتجعلها أكثر جاذبية للمشاهدة ، ولكننى أعددت ديواناً جديداً كتبت جُلَّ قصائده فى شتاء ٢٠٠٠ بعنوان حورية أطلس ولم أغادر مصر فى عام ٢٠٠٠ إلى الخارج إلا فى رحلة قصيرة إلى إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة برفقة سمير سرحان ، وفى ٢ ديسمبر من عام ٢٠٠٠ أجرى لى العبقري ممتاز حجازى عملية المياه البيضاء فى عيني اليسرى ، ولكننى رغم المضاعفات غير المتوقعة بسبب ارتفاع ضغط الدم المزمن لدى ، تماثلت للشفاء والحمد لله .

لقد التزمت بعدد محدد من الصفحات لا أزيد عليه فنسيت الكثير وحذفت الكثير ، ولكن همى الأول كان رصد ذلك التنوع الذى يقارب التشتت فى النشاط العلمى والأدبى على امتداد ربع قرن ، وكانت زيارة الماضى ممتعة وأليمة ، واستفدت منى جهداً نفسياً يصعب وصفه ، وأرجو أن أكون قد أخرجت صورة صادقة لحياتى فى هذه السنوات الخمس والعشرين ، آخر مرحلة فى العمر الرسمى ، وبعد أن غدوت أحس أننى ضيف على هذا الوجود ، أنتظر الدعوة للرحيل فى أى لحظة . كلنا ضيوف ، وكلنا راحلون ، ولكن تجربة المرض اللعين قد عمقت من هذا الإحساس الذى لا أظنه يراود الكثيرين ، وأنا أشكر الله سبحانه وتعالى على المرض وعلى الشفاء منه ، فلقد منحنى مهلة للاستعداد للامتحان ، كأنما أصبح هناك 'دور ثان' ، بلغة المدرسين ، وعلى أن أستعد له .

منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

**مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣١٤ / ٢٠٠٢

I . S . B . N 977 - 01 - 7705 - 7